سعيــد ســالم

الشئ الآخــــر

روايــــــة

إسم الرواية: الشئ الآخر

المؤلـــف: سعيد سالم

الغـــلاف: محمود عبد العزيز

النـاشـــر: دار ومطابع المستقبل ومكتبة المعارف ببيروت

رقم الإيداع ٩٠٠٦ / ٢٠٠٤

الترقيم الدولى 2- 73- 5365-977
I.S.B.N.

[أيهـــا الجـــبان.انتبه جيدا لما تقرأ.لاتغضب من تلك الصفة التى بدأنا بها مخاطبتك،فلا يحق لك الغضب الا بعد أن تثبت لنا أنك لست كذلك..نحن جماعة مكافحة العجز واليأس.لقد تحرينا عنك بدقة متناهية،وعرفنا دقائق حـــياتك منذ طفولتك فى حى الأنفوشى حتى تخرجت فى الجامعة بتفوق،ثم حدث ماحدث وتوقف زمنك عند جريمة شنعاء،فعانيت من الظلم والبطالة والفراغ والاكتئاب والهم والغم،حتى تعطف عليك بائع خضروات فجعل مـــنك موظفا صغيرا بشركة خاسرة من شركات قطاع الأعمال.نعلم أنك تجـــاوزت الأربعين وأنك متزوج ولديك ولد وبنت وتسكن فى حى شعبى مـــن أحـــياء بحـــرى.أنـــت رجل طيب القلب حسن النية-كشأن معظم المصـــريين-لاتســـعى الى الشر أبدا.ورغم التزامك الدينى الذى لايعرف التعصب،إلا أن نقاط ضعفك وسقطاتك لاتخفى علينا.نحن نعرفها ولا نود ولا نملـــك أن نحاســـبك علـــيها أو نهـــدد بهـــا حـــياتك المســـتقرة الساكنة.ولكن..انتبه جيدا لما تقرأ،فهذه أول خطوة نطلبها منك يا أستاذ منصور عبد الرازق..ولأنك جبان سرقت منه أحلامه ولم ينتفض،ولأننا كنا جبـــناء مـــثلك-قـــبل أن نتخذ قرارا بإنشاء الجماعة-فإن أحدا منا-نحن وأنت- لم يتخذ قرارا بأن يفعل،فكل قراراتنا ردود أفعال لقرارات اتخذها لـــنا غيرنـــا بالوكالـــة عنا ودون الرجوع الينا لأننا استنمنا الى التهميش واســـتمرأنا الســـكون والانقياد،وترك كل منا حياته ليديرها له الآخرون

كيفما شاءوا..نحن لانسرد عبارات إنشائية وإنما نقرر أمرا واقعا.لقد قررنا أن نـأخذ بـيد الجميع لكى يديروا حياتهم بأنفسهم حسبما يريدون هم لاحسبما يريد الآخرون.

لاتـتعجل الأمـور فسوف تجد فى رسالاتنا القادمة إجابات شافية عن تسـاؤلاتك الحـيرى بشأن هويتنا ومن نكون.عليك الآن فقط بالقراءة والـتأمل والتفكر.استرجع حياتك وتأمل كيف عشتها وارجع كل لحظة فيها الى ارادتك الحرة ثم اسأل نفسك:

-هل عشت حياتك كما تريد؟

كـن أمينا فى عملية الرصد والتقييم.تخلّ-ولو بصفة وقتية-عن جبنك وأنـت تكاشف نفسك،فستصل الى النتيجة الحتمية وهى أنك حتى هذه الـلحظة مسـلوب الارادة،نكرة،عـبد لاحتـياجاتك،لارأى لـك ولا صوت،ولاحول ولاقوة.تفتقد أبسط ضرورات الحياة الانسانية الكريمة التى يبتغـيها لنفسـه أى إنسان على الأرض،لا لأنه يبتغيها فحسب،بل لأنه يسـتحقها لمجرد كونه إنسانا،فحين أراد الله أن يختار من يخلفه فى الأرض رفض ابتهالات الملائكة أن يحظوا بهذا الاصطفاء واختار الانسان.

انتبه..نحن لسنا جماعة دينية وليس لنا أمير.نحن نرفض أصحاب الحقيقة الواحـدة المطلقة ممن يكفّرون خصومهم،فالقاعدة الذهبية التى تنطلق منها دعوتنا هى الحرية بمفهومها الانسانى المتكامل.وكما أعطينا لنفسنا الحق أن نصـفك بـالجبن،فمن حقك أن تثبت لنا أننا مخطئون،وأنك تنوى الفعل

بالفعل وهذا ما ننتظره منك.نحن لانملك السلاح ولانريد أن نملكه،ولانفكر في قــتل أحد أو إهدار دمه أو تكفيره والعياذ بالله.سلاحنا هو كلمة الحق وكلمة الحق هي سلاحنا.

ستتســاءل بــالقطع كيف تأتى لنا أن نتحرى عن حياتك والإجابة أن جماعتنا تضم رجالا مخلصين من العاملين في المباحث،فليس كل العاملين بهذا الجهــاز-كمــا تعتقد الغالبية من الناس-من الأنذال والأوغاد،بل منهم الوطنيون والشرفاء.

ستتســاءل كــيف تدّعــون أنكــم أحرار تنطلقون من قاعدة حرية الانســان،ثم تتجسسون على حياة الناس،والاجابة أنه لم يكن لدينا بديل عمــلى لمعــرفة واختــيار من يمكنهم الانضمام الينا،أو بمعنى أدق:من هم الجديرون بالانضمام الينا،حتى نكثف الفعل ونحرر ارادة الناس.

ستتســاءل كيف يمكنك الاتصال بنا،والاجابة أنه لاداعى للحديث في شيء قبل أوانه،فحين نستوثق من جديتك ستعرفنا وتسعد بنا،وسوف نعمل معا على تحرير قلوبنا وعقولنا ونفوسنا وأرواحنا من العجز والدنس.]

جماعة مكافحة العجز و الدنس

تحريرا في--/-/٢٠٠٣

••••

أعلم أن سقراط سأل مريديه يوما:

-أتعرفون الغرض الحقيقى لحياتكم؟

فأجابوا:

-نعم..أن نعيش ياسقراط

فقال لهم:

- لكن البهائم تعيش

وقد اعتدت فى السنوات الأخيرة أن أعثر فى صندوق خطاباتى على رسائل مجهولـــة مـــن نوع غريب،كثير منها يحتوى على بعض الأدعية التى ينبغى عـــلىّ-كمـــا يطلـــب مرسلها-أن أرددها عدة آلاف من المرات بالنهار واللـــيل،ثم أطبعها وأوزعها على الناس وإلا"احترق منزلى وبارت تجارتى والخرب بيتى"!..واعتدت أيضا أن ألقى بمثل هذه الرسائل فى سلة المهملات قـــبل أن أكمـــل قراءتها،والحســـرة تنتابنى على تلك الردة التى تنسحب بالحاضر الى قرون الظلمات،مرددا فى سرّى المثل الشعبى القائل:

-أهى المشرحة ناقصة قتلى؟!

أمـــام هـــذه الرســـالة التى افتتحت بإهانتى توقفت طويلا..الحق أننى ضـــحكت من قلبى،فأنا فعلا جبان!.هذه حقيقة لايعرفها أحد سواى.كم أدهشنى أنهم توصلوا اليها بهذه السهولة،ثم نعتونى بها بهذه الثقة.إن أحدا لم يصفنى بالجبن فى السر أو فى العلن منذ طفولتى وحتى اليوم.

أما المفارقة الخطيرة فى الأمر فهى توقيت وصول الرسالة..ذلك أننى منذ زمـــن غير بعيد بدأت أشعر من شدة الغيظ برغبة عارمة فى الانفجار،وفى الوقـــت ذاته أخشىعلى نفسى منه.أريد وأقاوم.أتمنى ولا أستطيع..غير أن هذا الصراع قد بلغ بى ذروته بعد أن قرأت فى جرائد المعارضة عن مجموعة متناثرة من أحداث تبدو كما لو كانت مترابطة من حيث طبيعة المناخ العام الذى وقعت فيه :

رجل ينتحر لأنه لم يجد مايشترى به الزى المدرسى لابنته .

..شاب تخرج فى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بتفوق ثم حصل على الماجســـتير،ينتحر بإلقـــاء نفســـه فى النيل لأنه لم يقبل فى امتحان بوزارة الخارجـــيةرغم تفوقه على الممتحنين كافة،وذلك لأنه—حسبما أعلنوه على المـــلأ—"غير لائق اجتماعيا"،لانتمائه الى أسرة فقيرة.إسم هذا الشاب عبد الحميد شتا.أموت ولا أنساه أبدا.

..شاب جامعى من أسرة طيبة،يتمسك بحقه القانونى فى ترك عربته بجوار رصيف الشارع الذى يسكن فيه رئيس مجلس الشعب،فيهجم عليه رجال الأمـــن ويودعونـــه مستشفى الأمراض العقلية عندما قال إنه يمارس حقه كمواطن فى الانتفاع بالطريق العام الذى يملكه الشعب.

.. رجـــل أعمال ينهب من البنوك مائة وخمسين مليونا من الجنيهات،ثم يقتل زوجته المطربة العـــربية ويقتل معهـــا مدير أعماله وزوجـــته فى

مذبحة يحيط بها الفساد من كل جانب.ثم يطلق الرصاص على نفسه تاركا وصـــية لأخـــيه بألا يتعامل مع البنوك!..وتتفرغ الجرائد القومية وجرائد المعارضـــة وقـــنوات التلفزيون أسابيع متواصلة للحديث عن هذه الواقعة وتحليل أبعادها.

.. مهـــندس بمحافظة الشرقية-التى يشاع عن أهلها شدة الطيبة لدرجة الســـذاجة-بدرجة مدير عام يكتب عبارة:"لالتوريث الحكم" على بعض الحوائـــط فتأتى قوات من شرطة الأمن المركزى المدججة بالسلاح لتدهم بيته بعد منتصف الليل وتصادر الآلة الكاتبة لزوجته الدكتورة فى الجامعة ،ويحبس بقرار من النيابة لخمسة عشر يوما على ذمة التحقيق لولا أن أمر رئـــيس الجمهورية بالافراج عنه..وفى نفس الوقت تفرج النيابة عن فنانة نصف مشهورة بكفالة قدرها مائتى جنيه بعد ضبطها وهى تقود سيارتها فى حالة سكر بيّن.

.. اتضاح براءة أربعة متهمين فى قضايا مختلفة بعد دخولهم السجن لعدة ســـنوات،إذ تبين أنهم اضطروا الى الاعتراف بجرائم لم يرتكبوها اتقاء لشر التعذيـــب الوحشـــى الـــذى مـــورس معهـــم عـــلى يد رجال الشرطة والمباحـــث..وقـــال أشـــعيا"مـــالكم تســـحقون شعبى وتطحنون وجوه البائســـين.ويل للذين يقضون أقضية الباطل وللكتبة الذين يسجلون زورا ليصـــدوا الضـــعفاء عن الحكم ويسلبوا حق بائسى شعبى لتكون الأرامل غنيمتهم وينهبوا الأيتام".

تراكمت فى ضميرى تلك الوقائع .كانت كل واقعة منها بمثابة كف غليظة تصفعنى على قفاى.هى بعيدة عنى كل البعد،لكنى تساءلت ما الذى يمنع أن تقترب منى يوما فأكون أحد أبطالها .أحسست بالخطر يقترب من كيانى كما لم يقترب من قبل،وبت على يقين من أن انسانيق أصبحت مهددة بالامتهان..حينئذ شعرت بخوف عظيم.

****

يقتضى منطق تداعى التفكير المتسلسل ألا أعرف كيف أفعل مادمت لا اعرف ماذا أفعل،وأنا فى حقيقة الأمر من ذلك الصنف من الناس الذين يتكلمون كثيرا ويفعلون قليلا.أظل أقلب فى الفكرة شرقا وغربا وشمالا وجنوبا حتى أستبصرها من مجال عريض الاتساع،فتتملكنى الحيرة وأشعر بالتشتت والضياع،وأعجز فى النهاية عن اتخاذ قرار بشأنها،وتكون النتيجة صفرا . الرسالة تستفزنى وتستنفرنى ولكنى عاجز لا أتحرك.انهم صادقون فأنا انسان يفتقد حريته التى تتيح له أن يريد أن يفعل فعلا يعرف سببه ولايدرك كيفية القيام به..أنا إذن لاشىء!

فجرت الرسالة غضبى المكتوم من نفسى ومن كل شىء حولى وأيقنت أنه لابد من فعل قوى يزلزل الأرض من تحت أقدام هؤلاء الذين من المحتمل أن يدفعونى أنا الآخر الى إلقاء نفسى فى البحر كما دفعوا غيرى الى النيل .المشكلة أننى أجيد العوم وأحب الحياة.لكن لابد أن تكون هناك أكثر من وسيلة تحول دون انفجارى-غير المأسوف عليه-الى شظايا آدمية متناثرة فى أرجاء

الوطن،لاتستطيع إيزيس—لو بعثت من جديد—أن تلملم شتاتها لتبعث فى الحياة من جديد، وحتى لو استطاعت فإنى أشك فى انها ستهتم،وذلك بإيعاز من القائل :"اذا لم تحسن الأمة سياسة نفسها أذلها الله لأمة أخرى تحكمها كما تفعل الشرائع بإقامة القيم على القاصر أو السفيه وهذه حكمة، ومتى بلغت أمة رشدها استرجعت عزها وهذا عدل،وهكذا..ان الله لايظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون".

أجلس الى نافذة شقتى المطلة على البحر.أتأمل هذا الكون الرهيب.

أرنو الى الأفق الذى لانهاية له.أراقب طيور النورس وهى تتراقص فوق صفحات الموج العابث..وأسألك أيها الخالق الأعظم بكل الإجلال والتوقير كيف تسمح لهذا الخلل أن يحدث فى كونك العظيم؟!

لقد بدأ مشروع وجودى—أو إيجادى—على هذه الأرض إثر انقضاء لحظة عاطفية عابرة جمعت بين أبي وامي.هكذا أصبح هذا الوجود مجرد مصادفة قدرية ، ورغم ذلك فأنا فكرة حقيقية لأننى موجود قدر له أن يحقق وجوده حتى لو اعترض البعض على ذلك..هأنا أحققه بتعاطى الحبوب المهدئة والحلول المهدئة حتى أستطيع النوم..وقد أوقعنى العجز والتعب والاصفرار ونقص الأكسجين فى وهم الاحتماء بصدر ماجده والاغتراف من نهرها الثائر المتدفق وارتشاف رحيقها المسكر حتى الثمالة،حيث ينقلب عجزى المهين إلى قوة جامحة ولاحول ولاقوة الا بالله.

أســلمت نفســي بين أحضانها للغيبوبة خلف حائط سموحه وبين سحب الدخـــان الأزرق ونوافذ الميكروسوفت والكحول وجدران المساجد.الأعاصير الـــتى تعصف بكيانى أقوى بكثير من إرادتى لأننى مهزوم وهزيمتى مركبة.إنهم صادقون فماذا أفعل برسالتهم هذه؟.وإذا كانت الحياة فى مجملها تقيم بماأنجزه الانســـان مـــن أعمـــال ذات قـــيمة انسانية،والانتصـــارات عـــلى المصاعب والمعضلات،وصمود أمام الهزائم والضربات والأزمات،فإننى أستطيع أن أدعى بلا فخر على الاطلاق اننى لم أنجز شيئا يذكر فى هذه الحياة،رغم اننى أحمل على كاهلى هموم القارات الست،بينما لا أستطيع أن أؤثر على أحداثها بمثقال ذرة ولـــو فى وطنى المحدود،كما لا أستطيع أن أتنازل فى الوقت ذاته عن حملى فهو قدر لامهرب منه..وتساءلت متى يمكن أن اكون شيئا مختلفا عما أنا عليه الآن حتى يزول الخلل ويعود التوازن الى الكون؟.

****

كانــت عقــارب الســاعة تشير الى الثالثة صباحا بينماأقاوم التفكير فى الذهاب الى غرفة النوم حيث تغط حنان فى نوم عميق أغبطها عليه.إدمانى للإنترنت بات حقيقة صارخة لاتنكر.انه ينسينى الهزيمة ساعة ويلقي بى فى أتونها ساعة ورغم ذلك لا أستطيع المقاومة.

حتى هذه الآلة الأمريكية الخطيرة متعادل تماما مع رهبتى منها.حين تصلنى بالعالم فأنظر الى ما يحدث به بعينين ذاهلتين وقلب ممرور فهى تؤكد عجزى لــتفاقم الــبون الشاسع الآخذ فى التزايد بين التقدم والتخلف، ثم تزيد التأكــيد عــلى انعدام الأمل فى إمكانية ملاحقة الركب الكونى فتصيبنى بالرعب والخوف على قومى من الانقراض.

أظــل قابعا امام نافذة الاتصال بالانترنت.تتعطل الشبكة وأصبر.أظل أعــاود الاتصــال مــرة وعشــرة وعشــرين.لابــد أن هناك عطل فى التوصــيلة.أخلــع الفيشــة.أحل المسمار الصليبة.أكشف على الأسلاك الداخلــية.أتأكد من توصيلها وتثبيتها فى أماكنها الصحيحة.أعاود تثبيت غطاء الفيشة.أضعها فى مكانها وأكرر محاولات الاتصال."الاتصال متعذر فى الوقت الحالى.حاول الاتصال مرة ثانية".تستدعى لحظات الانتظار أشياء غريبة منها شهادة الاستثمار التى حصلت عليها لفوزى فى مسابقة ثقافية أعلنــت عنها احدى المجلات.أعدت الشهادة الى البنك واشتريت بقيمتها لوازم لمؤمن وإيمان.أنا لا أستطيع شراء هدية لحنان فى أى مناسبة لأننى لم

أتذوق بعد لذة الفائض.هاهى المشكلة فى طريقها الى الحل."جارى تصنيف اسم المستخدم وكلمة السر".ثم"جارى الاتصال بالشبكة"..فى طفولتى كان زميل لى بالفصل يمتلك لعبة ميكانيكية معقدة لايستطيع التعامل معها.كنت أعـــلمه كيف يستخدمها لكنه كان غبيا رغم ثراء أبيه الفاحش.حاولت أكثر من مرة أن أقترضها منه لبضع دقائق فكان يرفض فى استعلاء.قررت مقاطعته.. ويقطع الاتصال مرة أخرى وأعاود محاولاتى وأنا أدخن سيجارة مـــن ســـيجارة رغـــم أن ميزانيتى مصابة بالأنيميا.تقع عيناى على ساعة التوقيـــت بركن الكمبيوتر الأيمن.يا الهى لقد انقضت ساعات أربع وأنا محـــنط فى مكانى ولم أفعل شيئا.أعاود الاتصال بإصرار جنونى حتى ينجح فأغوص فى أخبار الدنيا الواسعة المهولة وأنســـى..

صـــدام حسين على الشاشة.استخرجوه من جحر حقير.كفأر مذعور يستســـلم بعد أن تسبب -وهو فرد واحد على أرض هذا الكوكب- فى انـــتهاك أرواح وأعـــراض وأراض وأديـــان وكـــرامة على أيدى غرباء الغـــرب.أنا مذهول لأن يتسبب فرد واحد فى كل هذا الدمار الذى حاق بماضى وحاضر ومستقبل أمة بأسرها،ثم يعجز شعبه عن التخلص منه على مـــدى أكثر من ثلاثين عاما.مندهش لهذه الكراهية الكثيفة السوداء التى عـــبرت الأطلـــنطى بفكـــر أسود متعصب لتقضى بحقدها المسموم على حضارات بابل وآشور والفرس والفراعنة على مراحل متعاقبة طبقا لخطة مرســـومة ومعلـــنة..ذلـــك الفكر العنصرى القائم على الكراهية الذى

أطلقه"هنتنجتون"فى مقولته الشهيرة:"كيف نستطيع أن نحب ماهو نحن مالم نكره ما ليس نحن؟"!..ثم لايلبث عجبى أن يزول حين أتذكر أن أول من أشـــعل الحروب الصليبية فرنسي هو البابا اربان الثانى ،وأن اول حضارة قامت على الإبادة والإحلال لشعب آخر هى الحضارة الأمريكية،وأن أول احتلال استيطانى إحيائى هو الاحتلال الصهيونى لفلسطين،وأن أول دولة استعمارية فى العالم هى بريطانيا..يا الهى ما أبشع الكراهية!..أى خلل هذا الذى يحدث فى الأرض ويعجز الجميع عن إصلاحه!..ويرتفع ضغط دمى ككل يوم فأستحضر أسئلة حنان المتكررة:

–هل عينوك مسئولا عن العالم؟

–ماذا يفيدك ياسقراط زمانك أن تحشر هموم الدنيا فى راسك؟

–أليس من الأنفع أن تتفرغ لتربية أولادك؟

وأستحضـــر معهـــا إجاباتى البائسة بأن لله فى خلقه شئون،وهكذا خلقنى مهمومـــا بهموم العالم وكأن هموم وطنى وهمومى لاتكفي.ويعزينى فى ذلك قـــول كونفوشـــيوس:"ان هذه الفوضى التى تعم الدنيا هى الشيء الذى يحتاج الى جهودى".وحين تستنفد طاقتها على الحوار تقول فى تحد ساخر:

–إذن فافعل شيئا يامنصور تغير به العالم حتى تستريح وتريحنا

وهى تعلم–مثلما أعلم أنا الآخر–أننى لن افعل شيئا بالمرة،فأنا حقا عاجز، والرسالة بحاجة الى المزيد من التفكير والتأمل..وأترك نافذة الميكروسوفت

الى النافذة المطلة على البحر لأنفث دخان سيجارة فى الفضاء وأسبح بعيدا فى عالم الملكوت.

****

تبدأ رحلة العجز اليومية من جدران بيتى الأربعة. من المفترض أننى أستطيع داخل هذه الجدران أن أخلع درعى الفولاذى الذى أخوض به صراع كل يـوم خـارج الجدران، وأن ألقى بأسلحة الحرص والتوجس مهما كانت الأحـوال بداخـل هـذه الجدران غير مرضية.. ذلك أننى قادر هنا على التخلى عن القسط الأكبر من الخوف الذى ينتابنى بمجرد النزول الى غابة الأرض بحـثا عـن لقمـة العيش صباح كل يوم، مدججا بأسلحة الوقاية والدفاع والمقاومة والهجوم صائحا فى وجه الوحوش:

-فيه إيه يا اولاد الكلب؟؟؟!!

ولسـوف أتوقف عند هذه المحطة من رحلتى الأزلية مع العجز لأقر لمن يعنـيه الأمـر-وبصفة خاصة جماعة مكافحة العجز والدنس-بأننى أنجح أحيانا فى الهرب من رفقته الكئيبة باللجوء الى شاطىء البحر أحيانا لأذوب بضـآلتى فى اتسـاع الكون وأستنشق الأكسجين النقى بعيدا عن رائحة الدنـس المتعفـنة والمنتشـرة فى كل مكان.. وإلى حائط مصطفى الزوربا أحياناأخرى لأهيم فى غيبوبة الدخان الأزرق حين يصبح الأمر ملحّا، أو الى بيـت مـاجده حين تكون الظروف مواتية.. وفى بعض الأحيان أمكث فى المسـجد متعبدا خاشعا لساعات طوال أسأل الله التوبة والهدى والقرب

والمحبة وأبتهل اليه أن يسارع بإصلاح الخلل الذى يتهدد الوطن..وكثيرا ما أجد نفسى سابحا فى "الشىء الآخر"دون أن أدرى أنائم أنا أم يقظان.

حــين أمارس الهرب لا أفكر فى شىء غير محاولة إلهاء نفسى لساعات أعلم أنها ستتبخر بعد وقت طال أم قصر.ساعات تجعلنى أنسى الاصفرار والــذل والظــلم والكراهية والأنانية والرائحة العفنة،وأستمتع بالانعتاق الوقــتى.تصبح الوحدة عندى متعة صافية شافية،رغم أنها لاتحقق أكثر من الحد الأدنى من السعادة التى أتوق اليها بالانفلات من أسر الواقع الكريه الى أسر الوحدة الجبرية،فالأصدقاء الحقيقيون قد اندثروا وتشتتوا بحثا عن الــرزق أو السلطة أو الشهرة.فقدت حياتى بغيابهم قسطا كبيرا من جمالها لافتقاد صحبتهم بخيرها وشرها.

لست أدرى لماذا ازداد التباعد بينى وبينهم مع مضى السنوات مع انه كــان مــن الطبــيعى أن نــزداد تقاربــا وتلاحما كلما مضى بنا قطار العمر.الظاهر ان التفكير فى المستقبل من موقع من لايدرك الخلل أو يدركه لكــنه يــتجاهله،إنما يفقــد الناس رغبتهم فى اهتبال فرص السعادة فى الحاضــر،فيأتى المســتقبل ثم يتحول الى ماض دون إدراكها..أهرب من العجز أو لا أهرب فإنه عائد الى وأنا عائد إليه لامحالة.

عين الصواب هو أن تفكر فى قتل عجزك الذى توحدت معه.أصحاب الرسالة المجهولة لم يكذبوا فأنت أجبن من ذلك لأن العجز أنت نفسه،ولو قتلــته تكــون بذلــك قد قتلت نفسك،وهذا أمر من المستبعد أن تفكر

فـــيه.تعلل وجودك بلحظة عاطفية عابرة جمعت بين أبيك وأمك،وكأنك واثق مـــن بنوتك لهما،ومن أن تلك العاطفة التى جمعت بينهما كانت متبادلة،وأن أحدهمـــا لم يغتصب هذه اللحظات من الآخر عنوة.أنت مجرد صدفة أكثر من كونك فكرة حقيقية،شئت هذا أو لم تشأ.وجودك كان قهرا فى جميع الأحوال لأنك لم تمتلك حق العدم.مولدك ومماتك لايعنيان أكثر مما تحمل الكلمتان من معنى،أمـــا المســـافة بيـــنهما فحلم سخيف،وأما فائدة هذا الوجود فهى أمر نســـبى،وهأنت تخفـــى فى ســـريرتك أدلة انعدام فائدتك فى هذا الوجود بلا خجل،ثم تتساءل كيف يسمح الخالق الأعظم بهذا الخلل!..

... بعدهـــذا كلـــه تغامـــر بإيجـــاد موجودين من صلبك لتشهد بعينيك تكرارالمهـــزلة . هـــذا هو الشىء الوحيد الذى أفلحت فيه حتى الآن:إنجاب بريئين فى زمن لايعرف البراءة!.

حين فاجأت حنان آلام الوضع لم يكن بجيبى أكثر من بضعة قروش.لم نكن قد انتهينا من تسديد أقساط الجهاز وأدوات المنزل.كانت السماء ترخ سيلا من الماء لاينقطع.ركبنا الأوتوبيس ودفعت ما بجيبى ثمنا للتذكرتين.نزلنا بالمحطة المواجهـــة لمستشـــفى الشاطبى المجانية للولادة.كانت حنان ترتعش.ألبستها الجاكيت وبقيت بالقميص.عبرنا الشارع ودخلنا المستشفى كجرذين خارجين لتوهما من بالوعة.عقب ادخالها غرفة الولادة نظرت الينا الممرضة نظرة فيها ازدراء وفيها إشفاق أيضا.سألتنى:

-أين ملابس الطفل ولوازم الأم؟

أجبتها فى عجز وانهزام:

-سأذهب الى المنزل لإحضار كل شيء

كنت فى هذه الفترة أعمل عملا موسميا يتذبذب دخله بين الضآلة والانعدام.المسافة بين المستشفى والبيت تستغرق أكثر من ساعة مشيا على الأقدام.الذين يحملون المظلات الواقية لم يحتملوا السير تحت ذلك السيل المنهمر من المطر،فراحوا يحتمون بداخل البيوت.يبدو أن مؤمن-الوليد المنتظر-سيكون موفور الرزق طويل العمر ذو حظ وفير من السعادة..هكذا يقول الماء الغزير.وحدى كنت أسير حاملا ليسانس الآداب قسم الفلسفة والاجتماع منكسا رأسى غير عابيء بالمطر،مستسلما له دون اعتراض وربما فى شيء من البشر والتفاؤل،والسؤال التقليدى يتراقص بلامناسبة فى ذاكرتى:

-هل يبدأ الوعى من الذات أم من الموضوع؟

وهاتف خفى يهتف بى:

- "جتك نيله" وانت فقر!

لست أدرى ان كان لهذا الأمر علاقة بموقفى الآن من زوجتى ووليدها المرتقب..فيبدو أن هذا الوليد هو الموضوع وأن "أنا"هى الذات.أما الوعى فتكفى نظراتى الزائغة ورأسى الملتهب للتدليل على بطشه وقسوته،وأغلب ظنى أنه قابع تحت حذائى الغائص فى الطين،حين وقعت عيناى على بطاقة جلدية

ملقاة على الأرض تراكمت فوقها الأوساخ والأوحال.بعد مغادرتها بقليل صاح بى الهاتف نفسه فى قرف:

-إلحن وخذها

لكنى لم أستجب له وواصلت السير والخلق من حولى يتفرجون علىّ وهم محتمين بالبيوت.عدت اليها ولم ألتقطها وكأننى أتلذذ بمعاندة ذلك الهاتف الخفى كبديل لعجــزى عن معاندة الواقع الملموس.ذهبت مترددا وعدت أكثر من مرة حين صاح أحدهم:

-ألطف به يارب

وقال آخر:

-لاحول ولا قوة الا بالله

ثم صرخ فى الهاتف:

-لماذا لاتأخذها يابنى آدم؟

عــدت ممغنطا لالتقاطها وانحرفت الى زقاق جانبى.ليس بها بطاقة شخصية وإنما ورقــة مدون عليها بعض الأرقام والتواريخ ومفتاح صغير جدا وخمسون جنيها وصـــورة لامـــرأة تشـــبه الـــرجال مازلـــت أحتفظ بها حتى الآن. اشتريت فرخـــتين"بلـــدى"ووزعـــت بقـــية الخمســـين جنـــيها على الممرضات تيمنا بقدوم"مؤمن".ولاعجب فقد كان الوعى راقدا فى الطين .

رفعــت جانـــب الغطـــاء بلطـــف حتى أندس فى حرص من تحته كى لا أوقظ حـــنان.شـــعورى بالمهانـــة يبدأ بأننى أفقد كرامتى معظم ساعات اليوم خلال

محاولاتي المتعثرة دوما لانتشال نفسي وأسرتي من الفقر،ويمر دائما بأدهم جبريل الــذي لايكــف طيفه عن مطاردتي،ثم يستقر عند التصريحات الكاذبة للوزراء والمسئولين عن تيسير الحياة على محدودي الدخل.لم يكن أمامي شيئا أفعله غير أن أحاول النوم،ولسان حالي يقول:

-الأيام الخراء فائدتها النوم

وفيما يرى النائم أرى دائما أنني أجد نفسي عريانا فجأة وسط محفل من الناس-والعريان مفضوح كما يقول بن سيرين-فأظل أبحث لنفسي عن مخرج أستر به نفســي من الفضيحة دون جدوى،ولا أجد مكانا يسترني أو رجلا يسترني أو امرأة تسترني،وكأن الدنيا بأسرها قد خلت بي،فأحاول أن أخفي نفسي في نفسي حــتى لايــراني أحد،لكني لا أستطيع..ويبدو أن ارتخائي لصيق الصلة بالارتخاء الذي أصاب الدولة على يد المتحكمين في مقاليد أمورها،والذين لايزيد عددهم في أعــلى تقديــر عــن أربعــين* شخصا يديرون شئون السياسة والاقتصاد والاجتماع والثقافة .

إنني واثق من عودة الانتصاب-لكلينا أنا والدولة-لو تم تغيير هؤلاء الأربعين واستبدل بهم أربعون آخرون من الشرفاء المحترفين في تخصصاتهم.ومن الأكرم أن يــتم هذا التغيير"بيدي لابيد عمرو"وإلا سيكون الثمن فادحا يدفعه المنتصبون والمــرتخون معا،وســيدفعه معهــم المتســولون وسارقو الأحذية من المساجد والكنائس،والغسيل من المناشر وقد ظهروا من بعد اختفاء،ومنادو السيــــارات

---

*يقول الدكتور جلال أمين إنهم عشرون

وباعــة المــناديل الورقية والمناشف وأهالى المحترقين فى قطار الصعيد رقم٨٢٣ ومستنشقو السحابات السوداء والصفراء فى القاهرة وأبناء الطبقة المتوسطة بعد أن تهلهلت وانهارت قيمها ومبادؤها أمام الفقــــر والظلم وإغراء الصعود الى الطــبقات العلــيا بكل الأساليب النازلة من رشوة ودعارة واختلاس ومتاجرة بالمهنة والسلطة.

أما طوفان الشباب العاطل فسيدفع الثمن حقدا وغضباوتطرفا،حتى تحرق النار الجمـــيع.مازلـــت أذكر فى دهشة مقولة أبى بأنه يخشى أن يعاصر الزمن الذى ســيأكل فيه الناس بعضهم البعض!!..قالها على أثر رفض أخيه الثرى إقراضه مــبلغا من المال يواجه به متطلبات عــــام دراسى جديد.كان سبب الرفض الخفى هو عجز أبى عن تسديد ماسبق أن اقترضه منه من قبل،أما السبب المعلن فكان نقص السيولة!

****

قرأت الرسالة الثانية بنهم شديد:

[لقد تركنا لك فسحة كافية من الزمن لتقرأ وتتفكر وتتأمل وتتدبر ، ونحن على ثقـــة من أنك قد أتممت مكاشفة نفسك بنجاح..أما مصدر الثقة فهو أننا نعلم أنـــك انسان مسالم،صادق مع نفسك ومع الآخرين، وعليه فإنه من الممكن أن تـــنجح فى محاولـــة اجتـــياز الخطوة الأولى فى الطريق الى التخلص من جبنك وعجـــزك.عظـــيم.نحن نعرف إجابتك فأنت لم تعش الماضى كما كان ينبغى أن يعاش،ولســـت تعيش الحاضر وفق ما تريد،وفضلا عن ذلك فأملك فى المستقبل ضـــبابى معتم.انك معرض للاختناق فى كل لحظة من يومك لمعاناتك المنهكة فى تدبـــير الطعام والكساء ونفقات الدروس الخصوصية، وشراء جرائد المعارضة والكتب السياسية، وتلبية نداءاتك الوجدانية بفيلم تشاهده ومقطوعة موسيقية تسمعها ورحلة تصطحب فيها أسرتك الى مكان خلوى،وديوان شعر تسبح ببال رائـــق فى صوره الفنية الخلابة، ومطعم تتناول فيه العشاء مع زوجتك ولو مرة كـــل عام ،وبطاقة انتخابية صحيحة تحمل اسمك وشرطة تعمل فى خدمتك دون سب أو ضرب أو تعذيب ،ومستشفى عمومى لاتذل فيه كرامتك ولايمتهن فيه جســـدك..المسألة فى غاية الوضوح فأنت عاجز وهم عاجزون والعجز يحاصر الجميع.واسأل نفسك يامنصور إن كنت تعيش فى ظل حياة اجتماعية عادلة أم أن المحظوظين وحدهم هم الذين يتمتعون بهذه العدالة الظالمة!..وقبل أن تفكر فى الإجابـــة اعلم أننا كنا نود أن نحتل لآراء فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى

والقديـــس جريجورى والإمام محمد عبده والقديس توما الأكوينى الذين أجمعوا على ضرورة طاعة أولى الأمر وعدم جواز مقاومتهم أو التمرد عليهم،وأن أقل ماينبغى اذا انزلق اللسان الى استنكار أعمالهم أن يتجه القلب فى أسف وخشوع الى الندم والاستغفار التماسا لعفو السلطة العظمى التى ماكان الحاكم إلا ظلها عــلى الأرض..لكننا وجدنا صعوبة محققة فى هذا الامتثال، فقد تغير الزمان ولم يعد ولىّ الأمر ظلا لله على الأرض،وإنما أصبح مجرد حاكم مدنى ليست له سلطة دينـية عــلى الاطلاق.ولحين أن تتعرف على الاجابة الصحيحة سنتركك"الآن ونحـــن عــلى ثقـــة من استقامة مفهومك للعدل وأنت الدارس للفلسفة المحب للحكمة.]..

جماعة مكافحة العجز والدنس

٢٠٠٣/../..

لاجديــد فى الرسالة. الجماعة لاتضرب الا على وتر العجز.[أنت عاجز وهم عاجـــزون والعجـــز يحاصـــر الجميع].ومادام الأمر كذلك فلماذا لايعرضون وسائلهم السلمية المقترحة للقضاء على العجز وإصلاح الخلل .إنهم لايختلفون فى قليل أو كثير عن أولئك الذين يرفعون شعار"الاسلام هو الحل" ثم لايقدمون تصورهم لكيفية تنفيذ هذا الحل بشكل تطبيقى عملى.يكتفون حتى الآن بإرسال الرســـائل لى –ولغـــيرى بالتأكـــيد– ممن وقع عليهم اختيارهم.لماذا لايقولون بصـــراحة ووضـــوح إن لديهم خطة محددة ومنهج عمل مدروس للتخلص من العجـــز الوطـــنى عـــلى الأقـــل واســـتبدال القـــادرين بالعاجـــزين الذين

أسموهم"هم"؟..المسألة عرض وطلب.هم يعرضون وأنا يحق لى-كما يحق لغيرى- أن أقبل مشاركتهم أو أرفض.هذه هى الحرية التى يقولون انها منطلقهم الوحيد.ومالم يكونوا يعانون من العجز فلماذا لايعلنون عن أنفسهم؟..أم أنه مريض يضاجع ميتا؟..

انهم يتلصصون على صناديق البريد حتى يضعوا فيها الرسائل فى مأمن من العيون.لقد وجدت الرسالة الأولى فى صندوق بريدى بالمنزل ساعة نزولى بعد العشاء.أما الرسالة الثانية فوجدتها صباحا عند نزولى للتوجه الى العمل.إذن فالرسالتان وضعتا بليل. ترى كيف يتصرفون مع من ليس لديهم صناديق بريد؟.انهم خائفون و الخوف عجز.أخشى ما أخشاه أن تكون هذه الجماعة مجموعة من الدجالين الذين لايختلفون فى شىء عن أولئك الذين أهلكونا بكلماتهم السمجة عن الرعيل الثورى وتحريك الأسعار وإرادة التحدى والصمود والمرحلة الحرجة-أو التاريخية-التى تمر بها والأمن والأمان وتوجيهات السيد الرئيس الحكيمة وأخيرا مصطلح الخصخصة ومعه تابعه الملاصق له واسمه الكريم:"توسيع قاعدة الملكية"!..بمعنى أن الشركة التى يملكها الآن ثلاثة آلاف عامل ستصبح بين يوم وليلة ملكا لفرد واحد.هذا هو التفسير المنطقى لعبارة التوسيع وعلى الشعب كله أن يستوعب مايراه المسئول الكبير صوابا،كل على قدر استيعابه..أنا مثلا أستوعب بإخلاص أن هذا الفرد المشترى لابد أن يكون واسعا لدرجة اللانهائية المعروفة فى علم الرياضيات بالعلامة ∞ ."وويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون لأنكم تغلقون ملكوت السماوات قدام الناس

فلا تدخلون أنتم ولا تدعون الداخلون يدخلون"..إنكم تبدأون دائما كالملائكة الأطهـــار ثم تنتهون الى شياطين مردة ولاتعلمون أن ذاكرتنا يقظة لاتموت، فقد كـــان عبد الملك بن مروان عابدا زاهدا ناسكا فى المدينة قبل الخلافة،ولما أفضى الأمـــر اليه كان المصحف فى حجره فأطبقه وقال:"هذا آخر عهدى بك"..كما بـــدأ كاليجولا حكمه بتوزيع الأموال على الشعب وإظهار الخضوع والتواضع لأعضـــاء مجلس الشيوخ،لكنه لم يلبث أن طلب منهم أن يقبلوا قدميه تعظيما وتبجيلا وأن يشكروه لسماحه لهم بذلك،وعندما قل مايلزم من اللحم لإطعام الوحـــوش الـــتى كـــان يستخدمها فى الألعاب،أمر بأن يقدم جميع الصلع من المساجين ليكونوا طعاما لهذه الوحوش..أما نيرون فبعد خمس سنوات من حكم مثالى استبد بمواطنيه واضطهد المسيحيين وأحرق روما وقتل أمه التى أوصلته الى العـــرش ثم قطع رأس زوجته وألقاها تحت أقدام عشيقته تحقيقا لرغبتها..وعليه فـــإن الشركة تعرض على السيد الواسع للبيع بنصف الثمن المقدر لها انصياعا للتقييم الذى أقره مكتب خبرة أمريكى لا يعترف بغير دراساته ونتائجها من بين غيرها من الدراسات المحلية،وإذا أراد الله بقوم سوءا ابتلاهم بكثرة الجدل وقلة العمل،وكأننى أرى فى هذا الواقع وليدا غير شرعى لعلاقة جنسية شاذة،الفاعل فـــيها هـــو الكذب والصدق هو المفعول به.وإذا كانوا يتحدثون عن استقامة مفهومى للعدل فمن أين جاءوا بهذه المعلومة الخاطئة وأنا الذى لم يعرف العدل ولم يـــره.أنا الذى لم يذق طعمه ولم يستظل بظله.كل ما أعرفه عن العدل أننى أحلم به فى المنام واليقظة عاريا كنت أم كاسيا.

إن لم تتضح لى معالم هذه الجماعة فى أقرب فرصة فسوف أصرف النظر عنها قبل أن تضاف الى رصيد أسباب اختناقى الدائم وإحساسى بالاصفرار ونقص الاكسجين وتضخم الخلل واستشراء العلاقة الجنسوكيمائية بين الصدق والكذب التى لاتسفر إلا عن مركب من المسخ،وأنا لست أريد أن أموت مختنقا فالحياة–رغم كل شيء–جميلة ورائعة خارج مدار الخوف.

****

المكان نساء متطرف تندر فيه القدم السائرة.ساحة كبيرة فى مواجهة مجمع الاسكان الشعبى الصناعى بمنطقة سموحه.حين أحيل مصطفى الزوربا الى المعاش المبكر–ضمن برنامج الخصخصة–اشترى أحد الدكاكين الموجودة بالساحة وجعل منه مقهى صغيرا.

بقدرة فائقة أحال المكان الى حديقة صغيرة يكسوها النجيل الأخضر وتحيط بها مجموعة من الشجيرات التى دأب على زرعها ورعايتها بإصرار حتى أورقت وتشابكت فروعها فصنعت سقفا أخضر جميلا يظلل المكان.

يحد المقهى حائط كبير يفصل بينها وبين أحد معسكرات الجيش المهملة.الحائط مصنوع من الحجر الأنترى الملتصق ببعضه عشوائيا فى غير تنسيق هندسي بحيث تقبل عليه العين المحبة للجمال العتيق وتستريح له دون التفكير فى معرفة السبب.

أجلس دائما وظهرى الى الحائط عند نهايته فى ركن قصى حيث يستدير قليلا، فأشعر أنه يحبنى و يحتضنى ويمتص دموعى وآلامى ويتوحد معى حتى

لـــيكاد ينطق ويحدثنى.أسوق لنفسى فى كل مرة أتجه فيها الى المقهى-الحائط- مبررا يدفعنى اليه.أقضى أكثر من ساعة فى المواصلات حتى أصل من بحرى الى بدايـــة الشـــارع المهجور الذى يقع المقهى فى نهايته.ثم أمشى هذا الشارع فى خطـــوات منـــتظمة تســـتغرق من قيمة وقتى العدمى مايقرب من ثلاثين دقيقة أخرى.تعصف ملايين التساؤلات برأسى الخربة المحنية نحو الأرض و التى يفترض أن تكـــون مـــرفوعة.لماذا لاتبحث عن حائط قريب من مسكنك تبكى أمامه عجزك والخلل؟!

عندما عجزت عن تقديم إجابة شافية لإيمان عن سر عشقى لهذا المكان قالت لى بمرحها المعهود:

-لقد عرفت السر يا أبى

-ماهو؟

-فى حياتك حب جديد غير أمى

-وكيف عرفت؟

-شرودك وغموض نظراتك وصمتك الطويل يقولون ذلك

-يا إيمان..إن ما أعانيه ليس حبا،وليته كان كذلك

-فماهو؟

-قولى انه اكتئاب متأصل أخشى أن يطول عمره بقية عمرى

التقيت مصادفة بمصطفى الزوربا بعد سنوات من إحالته للمعاش المبكر فى أحد المســـاجد فدلنى على مقهاه ووعدته-دون نية صادقة- بزيارته،لكنى زرته مرة

مشــــدودا بحبه القديم لى واهتمامه بأمرى،فعشقت خلوة المكان وعزلته وصمته وتواؤمه مع انكسارى الدفين.

من يرى مصطفى الزوربا لأول مرة وينظر الى معالم وجهه الأسمر الضخم التى تنم عن قسوة بالغة ،وجسده المتعملق فى تناسق مذهل،يخيل اليه أنه أمام فتوة من فــتوات"السيالة"لايعرف الا منطق البطش والقوة،ومن يدخل فى تلافيف عقله يقــرأ خــبرة السنين وحكمتها،أما قلبه فقلب طفل تجاوز الأربعين يبكى لأتفه الأسباب.هو عندى مخلوق يعج بالمتناقضات الإنسانية والتى تشكل-للعجب-فى نهاية أمرها كيانا متكاملا لايعرف التناقض!

حــين عرفــت قدماى هذا المكان المتفرد فى كل شىء،شعرت باستغناء عن البشر أجمعين،وكأن سكينا حادا قد قطع مابينى وبين المجتمع من صلة.أصبحت لا أريــد أن أرى أحدا من زملائى أو أصدقائى من أبناء طبقتى التى صارت فى هــذا الزمان إما منسحقة مثلى معدمة،وإما ظهر فيها من يتاجر فى لحوم النساء ومن يتاجر فى اللحوم الفاسدة ومن يتاجر فى أعضاء الموتى والأحياء.لاأريد أن يكــلمنى أحد فى أى شىء ابتداء من أحاديث المهنة وانتهاء بأحاديث السياسة والغلاء وضياع العراق وانخفاض قيمة الجنيه وتفشى الفساد وجبروت شارون وتوافــه الأمور الحياتية الأخرى عن الأولاد وأسعار الشقق والخيانات الزوجية ورحلات العمرة والمناصب العليا التى اعتلاها الانتهازيون.بصراحة لم أعد أطيق الشكوى وأحاديث المعاناة فالحياة لم تخلق لهذا الغرض.

وتهب عاصفة ترابية لاتحتمل فأقطع كل هذه المسافة من بيتي وأذهب الى المقهى.تكتسح الأمطار السماء والأرض وأذهب الى الحائط.يغمر الوحل حذائي طوال الطريق اليه وهى وعرة متربة مليئة بمخلفات صرف الجنود المتسربة من المواسير المتآكلة.أدوس فى بحيرات الكيروسين والمازوت والشحم المتناثرة بين عربات نقل الجنود المبعثرة فى غير نظام على جانبى الطريق المهجورة غير المرصوفة.أتعرض للانزلاق والوقوع على هذه القاذورات بعد منتصف الليل ولا أعبأ ولا أبالى ،فاليد التى تجذبنى نحو الحائط بعنف وقوة هى ذات اليد التى فرقت بينى وبين اهتماماتى الغارقة فى أوهام السبق والارتقاء والتقدم وما يسمونه بسخافة بالغة:تحقيق الذات!

****

منصور عبد الرازق أستاذ الفلسفة بجامعة الاسكندرية ورئيس نادى أعضاء هيئة التدريس وصاحب ما يزيد على عشرين مؤلفا والحائز على جائزة الدولة التقديرية وعميد كلية الآداب والمرشح كمدير لجامعة الاسكندرية وفيما بعد كوزير للتعليم العالى ثم رئيسا لمجلس الوزراء..

..هذا المنصور رفض من قبل أن يعمل مدرسا للتاريخ بوزارة التربية والتعليم إذ رأى فى هذا العمل نوعا من أنواع الدعارة،فتاريخ بنى الانسان على الأرض عبر آلاف السنين يؤكد هذه الحقيقة.

هاهو الآن يجلس مربوطا الى مكتب متواضع يتلقى فيه المكالمات من كل صوب وحدب ليوصلها الى السيد الرئيس..يقدم له الملفات والبريد الوارد

ويتسلم منه البريد الصادر وينسق له مواعيد الاجتماعات داخل الشركة وخارجها..كل هذا فى جانب وشكاوى العمال فى جانب آخر.أتلقاها بقلب عصفور.أبذل مابوسعى من جهد لأتيح للشاكى فرصة مقابلة الرئيس كى يعرض مشكلته بنفسه.أتدخل بشخصى لإزالة أسباب ما أستطيع من شكاوى،فأنا-رغم خيبتى-أمثل بالنسبة للعاملين مركز قوة لايستهان بها بحكم اقترابى من صانع القرار الأول..وإذا كانوا ينظرون الى"حوده"سائق الرئيس على أنه مركز قوة فكيف ينظرون إلىّ وأنا سكرتير الرئيس؟.كل الأحلام المشروعة-نوما ويقظة-والتى داعبتنى فى صباى وشبابى،رأيتها تستحيل الى واقع عبثى لاعلاقة فيه بين الأسباب والمسببات،فالذى حدث إفراز طبيعى لكل مالا أستطيع تسميته من سوء حظ أو حسن طالع أو قدر مكتوب أو جهل مطبق بأسرار رحلة الانسان نحو مستقره الأخير.

يحكى لى مصطفى كيف كان يشق يد زميله بموسى حادة خلف الإبهام ليصحبه بدفتر التأمين الصحى المسروق الى عيادة شركة البيرة.مصطفى وزميله كانا يعملان كظهورات فى الفترة المسائية بشركة البيرة قبل أن يعمل بشركتنا.يحملون عشرات الصناديق البلاستيك المحملة بالزجاجات الممتلئة والفارغة فوق أكتافهم من مكان الانتاج الى مكان الشحن.تحتسب للمصاب يومية عمل كاملة يتناصفها مع مصطفى قبل أن يعيد اليه بطاقته الشخصية المرهونة لديه لحين القبض.أتألم أنا لأشياء لاحصر لها مثلمايتألم المصاب حين يفك رباط الجرح فى اليوم التالى للأجازة المرضية،فيبلله له مصطفى بمحلول البوتاس

الكاوى ليزداد التهاب الجرح ويتناصفا يوميتين من جديد.وتتكرر الدورة حتى تستنفد حدودها قبل اكتشاف الملعوب..وفى جميع الأحوال فإن الدواء المصروف يباع بمعرفة مصطفى الذى يقتسم ثمنه مع زميله بما يرضىالله.أما الحصيلة فينفقها فى شراء الخبز والأرز للأطفال الذين أنجبهم فى غفلة من الزمن.

اليوم ذاق مصطفىطعم القرش.أصبح يرتدى ملابس نظيفة مكوية ويعد لى علبة من السجائر الملفوفة بالحشيش ندخنها معا فى مجلسنا تحت الحائط..وحين أريد ان أختلى بنفسى فإنه يحترم رغبتى برقى فطرى غريزى رائع وهو يقول:

-براحتك ياصاحبى

وينصرف للعب الدومينو مع أصدقائه من رواد المقهى والذين لاينادونه إلا بلقب المعلم.

بدأت صداقتنا الحقيقية حين أحيل الى مكتب رئيس الشركة وجلس فى الاستراحة خلف مكتبى ينتظر السماح له بالدخول.كان قد ضرب برأسه رئيس الوردية الأولى فشج له أنفه وكسر له سنتين،ولم يكتف بذلك وإنما حاول إلقائه من العنبر القائم بالدور الثالث الى الأرض لولا أن حال بينهما العمال.

كان الجميع يعرفون السبب ولايملكون إزاءه شيئا.استطاع رئيس الوردية أن يخدع فتاة من العاملات بالعنبر ويعدها بالزواج،ولما حملت منه أنكر كل شىء وتركها للفضيحة تنتشر فى المصنع.فشلت محاولات الأسطوات الكبار لإقناعه بأن يكتب عليها ولو يطلقها فيما بعد.كان مستبدا طاغيا شديد القسوة على العمال،فكانوا يخشون بطشه ويتقون شره.مصطفى الزوربا هو الوحيد الذى

تصـــدى له.رايت فيه بطلا أسطوريا أثار إعجابي وحبق..الشكوى التى حررها أحدهم للفتاة ممن يعرفون القراءة والكتابة كانت حروفها كنبش الفراخ،فضلا عن أن صياغتها الساذجة الركيكة لم تكن كافية لإقناع الرئيس بأن يأخذ على عاتقــه حـــل المشكلة.أوضحت له تفاصيل المأساة من وجهة نظرى الشديدة الانحياز الى البنت.خيره الرئيس بين الفصل من العمل وإبلاغ النيابة،أو أن يعقد عليها بحضور مأذون فى غرفته.بفضل مصطفى نجح الخيار الثانى وما أصعب ألا يجـــد الانسان له سندا فى الحياة يؤازره فى الحصول على حقه المهضوم.حصلت على شهادة الليسانس بدرجة جيد جدا .كان حلم حياتى الكبير بأن أعين معيدا بالقسم راقدا منتشيا بين قبضة يدى،يغذى فى الأمل بقفزة اجتماعية واقتصادية تنشلنى من عذابات الواقع المرهق.لكنهم"هم"عينوا بدلا منى"أدهم"ابن الدكتور جبريل الأستاذ فى قسم اللغة العربية.تقدمت بالشكوى الى كل مكان يمكن أن أتوجـــه اليه.حتى البعض على رفع دعوى ضد الكلية،وأشفق على البعض من معانــــاة ومصروفات غير مجدية لن تصمد أمام من لديهم أكثر من مبرر قانونى زائف يدعم حقهم فى ظلمى.

بقيت عاطلا لثلاثة أعوام متتالية أتنقل بين عمل موسمى وآخر،يطحنى العجز ويكوينى الشعور بالقهر وانعدام القدرة على الفعل.والدى محال الى التقاعد منذ عـــدة أعوام.لم يعد له حول ولاقوة.معاشه من وظيفته المتواضعة لايكاد يكفى لإطعـــام أسرته رغم مساعدتى الهزيلة له حين يتيسر الحال.*وفى الطائرة أجلس على مقعدى بالدرجة الممتازة وأمامى الكمبيوتر المحمول.أراجع صفقاتى التجارية*

عـــبر المحـــيطات وتنقلات أموالى التى لاحصر لها بين بنوك العالم،ثم أتوقف عند صـــافى أرباحى حتى اللحظة الأخيرة لأضربها فى ٢،٥ % لأحدد قيمة الصدقات التى يجب أن أنفقها على الفقراء دون أن تنتابنى لحظة تردد واحدة.

يتأملنى حوده صاحب دكان الخضروات المجاور لبيتنا فى إشفاق.أحاول انتقاء البطاطس السليمة نسبيا من بين الثمرات المعطوبة الرخيصة.لاتجرؤ عيناى على النظر الى سلة البطاطس الممتازة فسعرها فوق الطاقة.لم يسألنى عن أخبار العالم وأحوال السياسة كشأنه الدائم معى، لكنه سألنى بمودة جميلة:

-ألم تجد وظيفة حتى الآن؟

-نعم

-سأكلم لك رئيس الشركة والأرزاق على الله

-أى شركة؟

-التى أعمل بها نهارا فأنا سائق الرئيس

-وماذا أعمل بليسانس الفلسفة فى شركةصناعية؟

-سمعنا صلاة النبى واتكل على الله..بلا فلسفة بلا "بتاع"

-اللهم صل على سيدنا محمد

-طاهر بك لايرفض لى طلبا والتساهيل على الله

****

أمـــام رئيس الشركة وقفت خائفا مهزوزا تنتابنى دهشة عظيمة من أن يتوقف مصير إنسان على كلمة ينطقها إنسان آخر،حين سألنى بهدوء:

-ماذا تفيد الفلسفة فى مجتمع كمجتمعنا؟

لم أنطق فسألنى بهدوء أكثر:

-ماهى الفلسفة؟

-للفلســـفة تعاريف كثيرة منها حب الحكمة ويعرفها برتراند رسل بأنها الجانـــب المظلم من العلم وهى تتناول علوم الوجود والميتافيزيقيا وعلوم المعرفة العقلية والحسية والحدسية وعلوم القيم كالحق والخير والجمال.

راح يهـــز رأســـه الى أعلا وأسفل عدة مرات ثم تساءل كمن يحدث نفسه فى دهشة:

-آه..الحق والخير والجمال

ثم قال وكأنه يسمع هذه الكلمات لأول مرة فى حياته:

-وهـــل تســـتطيع أن تفـــيد الشركة بكل هذه العلوم من موقع عملك؟

- . . .

-عموما سوف نجرب ونرى

من الهمز والغمز واللمز والهمسات المستترة خيل الى أن أمة خلقه من العاملين بالشركة يعرفون أن واسطتى للعمل معهم هو حوده سائق الرئيس.

ارتقيـــت من وظيفة الى أخرى فى ادارة المبيعات بالقطاع التجارى-فأنا حمار شغل كبير-الى أن فوجئت يوما بطاهر بك ينتدبنى كسكرتير له على أثر الوفاة المفاجئة لمدير مكتبه وقد نما الى علمه أننى أجيد الانجليزية.علمت فيما بعد أننى

كنــت موضوعا تحت ميكروسكوبه حيث أن كثيرا من الشبهات كانت تحوم حول القطاع التجارى،ويبدو أن الرجل قد منحنى ثقته التامة بعد نجاح فحصه المجهرى الدقيق.فى ذلك اليوم نصحنى نصيحة محددة

-فى هــذا المكــان لاتتكــلم كثيرا مهما رأيت أو سمعت،وعندما تنتابك الدهشة من شىء ،عليك بفلسفة الأمر الواقع حسبما تستريح..هكذا تستفيد من دراستك!

ثم أطلــق ضــحكة غامضة علمتنى أن التزم بنصيحته بحذافيرها وأصبحت بتعاقــب الأحــداث والمشــاهد المدهشــة عاجزا أصيلا عن فلسفة تجلب لى الراحة.عبأت فى صدرى تلالا من أسرار طاهر بك وحكاياته ورواياته ومواقفه وأفعالــه وأقوالــه.لم أفكــر فى الــبوح بها لمخلوق،أو فى محاولة تعقبها بالفهم والتبرير،أو معرفة الدوافع وتوقع النتائج المحتملة..أنا حتى هذه اللحظة لاأستطيع أن أصــرح لأحــد-أو حــتى لنفسى-إن كان هذا الرجل شريفا أم لا..كما لاأســتطيع أن أعرف تماما ما أهمية أن أعرف ذلك فى كون يسوده الخلل على علم من خالقه الذى لابد أن له حكمة فى ذلك.

****

هـأنذا أكـرر بكل غباء وبلادة دورة حياة أبى الميتة فى تماثل تام دون أن أضيف شيئا ذا قيمة الى الحياة.دخل محدود وأسرة منهكة بالمطالب اليومية وعجـز مـؤرق عن تحقيقها وطموح مقتول وظروف معاكسة تحت مظلة تعكـس العدالة وتمتص الظلم و مخلوقات تدمن التطاحن والتنافس بالحق والباطل.الفارق الوحيد بين حالتينا هو أن زواجى لم يكن تقليديا وإنما كان عن حب متبادل جمع بينى وبين حنان منذ أيام الجامعة.كان هذا الحب بمثابة العـزاء القـوى والبلسـم الشـافى والسـند العظيم للثبات أمام كل المتغيرات.وظل الأمر على هذه الحال حتى دهمتنى الرغبة فى الانفجار والتى تزامنـت مع وصول الرسالة الأولى من الجماعة.مع تلك الرغبة تواكبت نكسـة صـاعقة فى حميمـية العلاقة بينى وبين حنان، فلم أعد أشتاق الى جسدها بل صرت أنفر منه،وإن أجبرت نفسى على الفعل فشلت.تكررت المحاولات دون جدوى حتى أصابنى اليأس وتمكن منى حزن دفين غطى على كل الأحزان..إذ لم يعد يحزننى كثيرا أن يكون بعض نوابى فى مجلس الشعب تجـار مخدرات أو سماسرة قروض أو متهربين من التجنيد أو فتوات بارات ليلية.لم يعد يحزننى كثيرا أن يعتدى ضابط بقسم شرطة حلوان على نساء أسـرة مواطن متهم فى قضية قتل بالتعذيب وهتك العرض العلنى لإجباره على الاعتراف بجريمة لم يرتكبها .

ولم يعد يحزنني كثيرا أنني أصبحت كمواطن مصري عربي مسلم عبدا من الدرجة العاشرة في عرف أهل الغرب وألعوبة في أياديهم يتقاذفون مصيري وفقما يشاءون.

لم يعد يحزنني أن يستبيح ثلاثة من آلهة الإغريق أقداري العربية ويأبوا أن يفارقوها الى يوم الدين..فلو بذل كل من فلكان ومارس وبلوتو دماءهم المقدسة للانتقام من العرب وتعذيبهم وإذلالهم لما استطاعوا مثلما استطاع العرب أنفسهم . لم يعد يحزنني كثيرا أن تتراجع حضارة البدو الغبية- بأوامر أمريكية صريحة-عن ثوابتها المتخلفة،فينتقل مشايخها من فكر أسامه بن لادن بين يوم وليلة الى فكر جورج بوش الذي يطالب بتعديل المناهج الدينية العربية وحذف آيات من القرآن تتحدث عن اليهود وتحض المسلمين على قتالهم،مبررا ذلك برغبته الانسانية المخلصة في الحض على التسامح بين الأديان وخلق حوار بينها يحترم فيه الرأي الرأي الآخر،نبذا للغلو والتطرف وتأكيدا على الوسطية والاعتدال.

كل هذه الأحزان تضاءلت الآن أمام حزني الجديد،أما الحزن الأصيل الذي ظل يلازمني فهو ذلك النابع من الشعور بالظلم بعد أن سرقوا حقي بدون خجل أو حياء،فصرت أنعى حظي كما نعاه أيوب البابلي:

"لقد نفوا صيحة الحصاد من حقولي..

وفرضوا الصمت على مدينتي..

سمحوا لغيرى بأن يحتل مناصبى..

وعينوا غريبا يقوم بشعائرى وطقوسى..

بالنهار تنهيد وبالليل أنين..

وكل يوم نواح كنواح الحمام..

وآهات أطلقها بدلا من الغنـــــاء.."

استقبلت حنان تلك الحالة فى البداية بصدر رحب وقلب حنون وعقل متفهم، ولعل هذا الموقف النبيل منها كان سببا جوهريا فى مضاعفة حزنى وانكسارى،ولكن ماذا يضير الشاة سلخها من بعد ذبحها؟!..

قال لى الطبيب:

-لاتجزع فهذه حالة سائدة بين شباب اليوم

-والسبب...؟

-نفسانى صرف:مناخ محبط،وعجز شامل فى كل شيء!

اكتملت الدائرة وأحاط بى البلاء من كل جانب فالحمد لله الذى لايحمد لمكروه سواه،ومرة ثانية تساءلت:

-أهى المشرحة ناقصة قتلى؟

مـــن عـــيادة الطبيب الى حضن الحائط طرت لائذا بتهويماته الضبابية الزرقاء متسائلا فى نشوة مسروقة:

-لماذا لاأكون أنا حضرة صاحب الفخامة والجلالة سمو أمير البلاد؟!

لكــن التجول فى ملاهي "النود جيرلز"بشارع٤٢فى نيويورك أسهل بكثير من تحمــل أعــباء الحــاكم العادل الذى لاتتفشى فى عهده الأمراض النفسية بين المواطــنين فيعجزون عن ممارسة الحب.رحم الله امرءا عرف قدر نفسه،فالحكمة والعدل فوق مستوى طاقاتى وقدراتى وهاهو الملل يخترق نخاعى ليعيد تشكيل طبــيعتى المرحة المتسامحة الى طبيعة تتسم بالتجهم والذهول محرم عليها الغضب الــثائر.تــأكلنى فى صــمت قــاس لاأقــوى عــلى تبديده بصرخة احتجاج واحــدة.حصادى العظيم من حياتى المعظمة فشل ذريع.أرتعد من شدة إشفاقى عــلى مؤمــن وإيمــان وقــد تســببت بحمــاقتى فى نزولهما الى هذه الأرض الصــحراوية،أما الثالــث فقد أجهضناه حتى لاتزداد ورطتنا بالحياة،فضلا عن اعتقادى بانه كان سيولد مسخا شانها معبرا بحق عن طبيعة عصره.لم يبق هناك وقــت اضــافى للتأمل واجترار الماضى.إما الجنون وإما مغادرة هذا البلد الذى أصــابنى بالاختــناق.أظــل أجوب الطرقات ليلا ونهارا وطولا وعرضا بحواس مســتنفرة مستفزة لكنها شديدة الضعف والوهن،يطاردها القبح مثلما يطارد روحى أينما حللت.تصيبنى بين الحين والآخر رجفة يهتز لها جسدى فلا أستعيد تــوازنى إلا بالاستســلام الوقتى *ل"الشىء الآخر" يداعبنى وأنا فى كامل يقظتى وصحة قواى العقلية..*

ميراث مفاجىء يكفينى وأسرتى لممارسة حياة كريمة بقية العمر.عمل جديد مثمر أحــبه.منصــب رفــيع أختال به على الكلاب.تجارة مربحة أجوب من خلالها العــالم.عربة شرطة تتقدم موكبى تسبقها الدراجات البخارية.يتناثر الناس على

جـانبي الطـريق كالهاموش من حولك خوفا من الدراجات والسلطان والحياة والمـوت، لكنهم يصفقون لك ويبتسمون ويتمنون لأنفسهم ماتمناه قوم قارون غبطة وحسدا.ملامح أوجههم صارت غريبة عليك.لم تعد تعبأ بهم رغم أنهم أبناء بلـدك الذيـن وضعوك فى هذه العربة حتى لو كانت الانتخابات مزورة.رعايا الملـك السلطان الحاكم الأمير الرئيس الزعيم القائد المؤمن حفظه الله ،صاحب السمو والسعادة والحكمة والفخامة والرصانة والتوجيهات السديدة للمسئولين فى كـل المواقع،خاصة لأئمة الفقهاء فى المساجد بأن يعملوا فكرهم ويصرخوا بأعلى أصواتهم لتعليم الناس أحكام الحيض والنفاس، والبول والنكاح، وأحكام ارتداء الحجاب والنقاب، ونواقض الوضوء وأحكامه وهل ينقضه لعاب السبع ،وهـل يجوز للزوج أن يرضع من ثدى زوجته ،وكيف يتم تقسيم الميراث عند الزواج من جنية ...أحب اللحوم المشوية والنبيذ الأحمر والنساء الحسان وأعشق الانحـناءات والانكسـارات الربانـية فى أجسادهن.أعشق التجوال فى البحر والـزرع والصـحراء.بيوت جميلة قابعة على تلال خضراء تحيط بها الأشجار والزهور وتجرى من تحتها الأنهار،والناس هانئين فى رغد من العيش.موسيقا حالمة تنسـاب فى الكـون لتنفذ فى شعيرات خلاياك العصبية المتعطشة دوما للنشوة والهائمـة فى عشـق الحـياة.أرقـص.أغنى.أتجرد من ملابسى وجلدى.لاأعبأ بشـىء.أتوحـد مع الأشجار والحيوانات والطيور والأسماك وغصون الأشجار والسـماء والأرض ، فقـد قال رسول الله "إن الله تجاوز لأمتى عما حدثت به نفسها مالم تتكلم ومالم تعمل به" ..حقا انى لم أعد أساوى شيئا!..لقد قتل شاب

جامعي عاطل رجلا لايعرفه التقى به مصادفة فى الطريق لمجرد أن يدخل السجن فيجد المأكل والملبس والمأوى..هذا ما قرأته فى جريدة مصرية منذ زمن قليل.

قال لى مصطفى وهو ينفث دخان أوهامه الطائرة:

-البلد"سخسخت"ياجدع فى يد الحكومة

-لا تقلق فهم يبحثون عن وسائل مبتكرة لإفاقتها

- صدقنى..لن ينفع معها إلا الزار

-لقد استولوا على أموال المعاشات وربنا يستر

-حلـــو..بـــإذن الله سنمد يدنا للخلق ونقول لله يامحسنين.عشاءنا عليك يارب.

قلق على معاشه الضئيل خشية أن تسرقه الحكومة.مازالت امامى سنوات طويلة حـــتى أفكـــر فى مسألة المعاش.علىّالآن أن أفكر فى حالتى النفسية التى طالبنى الطبيب بتحسينها.

****

زوجهـــا مهندس عربيد.لايعرف للدنيا سببا واحدا غير المتعة واللذة.نادرا ماتراه.مرتان أو ثلاث كل عام على الأكثر.يعود اليها من سفراته الطويلة بجسد ملـــوث بعطـــور نساء البلاد التى يجوبها.تشعر أنه يلامسها من باب الشفقة أو تأديـــة لواجب شرعى.إبنها يدرك فى قرارة نفسه أن أمه ليست مستقيمة كما ينبغى،لكـــنه لايفعـــل شيئا.يخطط للهجرة الى أمريكا بعد تخرجه.يبتزها كلما اختفـــت مـــن البيت وعادت من حيث لايدرى.لايلتقيان إلا مرات قليلة كل

شـــهر،فهو يـــدرس فى جامعـــة بمدينة أخرى.لكل منهما عربته الخاصة وعالمه الخاص.ضبطته مرة مع امرأة على فراشه بالبيت.لم تجد تهديداتها نفعا فليس هناك رجل يراجعه أو يزجره.لم يستطع أن يعيرها بأنها تفعل مثلما يفعل فهو لم يقتنص بعـــد دلـــيلا ماديا يؤكد شكوكه.أنا أول من تطوع بتقديم هذا الدليل له بعد زيارتى للطبيب بيوم واحد.

لم تكـــن الفرصة متاحة كى ألتقى بماجده فى بيتها كالمعتاد،فالولد كان فى إجازه.ذهبنا بعربتها الى حدائق المنتزه وانتحينا جانبا مظلما تحيط به الأشجار.أم كلثوم تغنى"هذه ليلتى"ونحن نتبادل العناق واللمسات التى دفعنى اليها الطبيب دون أن يدرى ودون أن أدرى أنا الآخر.تدللنى فى ميوعة وهى تقول:

-سلامة نفسيتك يامنصورتى

عـــلى صدرها ألقى بعجزى فأشعر أننى قوى فعال.تضطرب الرغبة فى جسدى بعـــنف وأشـــعر أننى رجل طبيعى لايشكو من عنة.تقتلنى الحيرة.لماذا أنجح مع ماجده وافشل مع حنان.لماذا ينجح الحرام ويفشل الحلال؟!

يامولاى انى مرعج متعب منهك.أعوذ بك من نفسى.أجرنى منها فلقد تملك مـــنى الهلـــع ولازمنى الخوف.لابد انك تعاقبنى على معصيتى وتمردى وعشقى لرقص القلب ونشوة الجسد وسحر الليل وأناشيد القمر وعناقيد الفل.ماذنبى يـــامولاى وقد ركبت طبعى على هذاالنحو العصابى المرهق.انى مصاب بعشق الشـــىء ونقيضـــه وما يتألف منهما من شيء ثالث.عالمى الداخلى هو القلق والـــتوتر وشدة الحساسية تجاه الناس والأشياء.ارحمنى واجعل منى كائنا متبلدا

يـــأكل ويشـــرب ويـــنام ثم يمـــوت.اعـــتقنى من عشق الحرية فى عالم يدين بالاســـتعباد.دلـــنى عـــلى نفسى هل أنا طفل أم عاشق أم مجنون أم شاعر أم متصـــوف.*كـــم أنت حقير أيها الفقر*.لقد تعلمت ألا أطلب العون لنفسى من مخلـــوق حـــين أدركـــت أن مســـاعدة العـــبد للعـــبد كمساعدة السجين للســـجين.."والويـــل لمن وضع ثقته فى إنسان مثله".."إن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون"..*ابشر يامنصور فالجماعة قادمة*..ولعل مامضى من دنياى حلم وما بقى منها أمان والنفس أخبث من سبعين شيطانا ومن هربَ من الـــبلاء لايصل الى باب الولاء فليس هناك تمكين من غير ابتلاء وأنا يامولاى عبدك الهارب من كل شىء فامنن على بالقرب والمحبة وأدركنى بمقامات التوبة والصـــبر والشكر والرجاء والخوف والزهد والتوكل والرضا فلقد شربت من الحب كأسا بعد كأس ولانفد الشراب ولارويت..وذكر المحبة يامولاى أسكرنى فهل رأيت محبا غير سكران ؟وواهم من يزرع الصدق فى أرض كاذبة فالزهور لاتـــنمو فى الصخور ولاتساوى اللعبة كل مايحرق لأجلها من شموع والى متى نستظل بشجرة قد تقلص عنا ظلها وانى أتوسل اليك يامولاى أن تنسف وعيى وتدمره تدميرا فلا تبقى على شىء منه ولاتذر فأنا مازلت أسهو ويحدونى الأمل رغم أنى أعلم أنه لولا السهو والأمل لما مشى الناس فى الطرقات وإنما عمرت الدنـــيا بقلـــة عقـــول أهلها.."ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعـــلمون"..انـــنى أريد السير بجوار الحائط هادىء البال صافى النفس لاأعرف الحاكم ولا أريد أن يعرفنى ولا أريد من الناس شيئا حتى أريح وأستريح وانى

لشديد الحسد لذلك العارف الذى سألك يارب أين الطريق اليك فجاءه النداء الفورى:

– خل نفسك وتعال

لحته يقترب من نافذة العربة فى تحفز للقتال.صرخت ماجده صائحة:

–يالهار اسود..إبنى زياد!

جف ريقى وارتعشت قدماى.أدارت موتور العربة وهى تصرخ:

–اقفل زجاج العربة بسرعة وسكّر الباب

سارعت بضغط زر الباب وإغلاق النافذة.راح يضرب عليها بقبضتيه وهو يصرخ مزمجرا فى عنف:

–افتح الشباك ياجبان

...مرة ثانية أواجه بنفس الصفة التى لاأنكرها!

تحولـــت الى كـــائن مشلول الفكر والارادة عاجز عن التصرف.انطلقت ماجده بالعربة على أقصى سرعة.جرى مسرعا الى عربته.كانت فتاة تجلس الى جـــوار مقعد القيادة.قفز اليها وأدار عربته وراح يطارد عربة أمه.عند منحنى ضيق قطع عليها الطريق فاضطرت الى التوقف.لم يكن أمامى الا أن افتح الباب وأنزل لمواجهته.

–من انت وبأى حق تجلس بجوار أمى مكان أبى؟

حمدت الله أن لم يرنا منذ قليل ونحن فى نشوة القبل الساخنة.

–أنا صديق

شخر بأنفه وقال فى سخرية غليظة:

-هه؟!صديق؟..لأمى صديق وأنا لا أعرف؟.بوى فرند؟!..

لم أجد ما أقوله .كنت غارقا فى خوفى وارتباكى حين تصاعدت حدة نبرته الزاعقة:

-مااسمك وأين تعمل؟..أرنى بطاقتك..تكلم

كان على وشك أن يتهجم على لولا أن توسلت اليه ماجده.

-روّح الآن يازياد وسأشرح لك كل شيء بالمنزل

تضاءلت عزيمته على الشر عن قصد منه وقال لها بنظرات مهددة:

-ساعرف كيف أتصرف معك

تنفست الصعداء حين انصرف وفى عينيه شعور بالنصر والشماتة كما لو كانت بينهما حرب خفية،أو كما لو كان يريد أن يقول لها ها نحن على كفتين متوازنتين تماما.قالت لى وأنا أحاول جاهدا أن أبتلع ريقى:

-مائة جنيه تكفى لإسكاته

تعرفت عليها للمرة الأولى خلال مشاهدتى لأحد المعارض التشكيلية.دار بيننا نقاش حول لوحة لفرس جامح.تواصل الحوار على فنجانين من القهوة فى صالة المعرض.فى المرة التالية تواصل الحوار على زجاجتين من البيرة فى المعمورة.بعد ذلك تناوب اللقاء بين حدائق المنتزه ومنزلها فى الابراهيمية حين يكون زياد فى جامعته البعيدة.تعجبت للقوة

الكامــنة التى تتفجر فى جنون حين يلتقى عاجز بعاجزة،وتساءلت لماذا تخون زوجها المسافر،ولماذا أخون زوجتى التى صرت عاجزا عن التواصل معها.اننى أمقت هذا التزول البغيض وأرى فيه حقارة بالغة رغم اقترانه بالمــتعة وإثــبات الرجولة،وأتحير فى تلك القوة الطاغية التى تتولد من عجزأصيل..اننى لا أفهم هذه الحياة أبدا،وربما كانت هذه هى مشكلتى الكبرى فى عجزى عن التكيف معها.

بمحــاذاة مســجد أبى العباس المرسى طلبت منها التزول وأنا مشفق علــيها مــن ضياعها العظيم، وأنا الجدير بالإشفاق على نفسى.دخلت المســجد وتوضأت وصليت.تمنيت أن أبكى وأمنه وأغرق فى نشيج من الــندم لكن هذا لم يحدث.توجهت الى مكتبة المسجد بحثا عن قبس من روح يعــيدنى الى روحى لكنى لم أجرؤ على لمس المصحف.بدأت بقراءة ماتيســر فى كتب دينية متناثرة وكأننى أبحث عن موضوع بذاته.."ليس هــناك يقين لاشك فيه أشبه بشك لايقين فيه أكثر مما نحن فيه".."طول الأمــل ينســى الآخرة واتباع الهوى يصد عن الحق".."كلما اشتدت ملابســة العبد للذنوب أخرجت من قلبه الغيرة على نفسه وعلى أهله وعامــة الناس حتى لايستقبح القبيح لامن نفسه ولا من غيره".."ليس أضيق من سجن الشهوة ولا أصعب من قيد الهوى".

هأنــا أطلبك يامولاى طامعا فى أن أجدك وأنت أصل الوجود.أعوذ بك من أن أنساك ولو نسيتنى يمنى.أنا لاأبرر معصيتى ولكنى عاجز عن الطاعــة التامة التى تتيح لى أن اجدك،بعيدا عن السجن والقيد والذل والخلــل والنسيان.كان ينبغى أن ألجأ اليك حين سرقوا مستقبلى،لكنى نســيتك ورحت أبحث فى الأسباب غافلا عن عدالة المسبب .اغفر لى يــارب.لعل فى ذلك خير لى أنت تعلمه وأنا لا أعلم،فقد قال لى طاهر بك:

—حين تختلط عليك الأمور وتصيبك الدهشة مما تسمع أو ترى فما عليك الا أن تفلسف المسالة.

..وما أسهل فلسفة أمور الدنيا المتغيرة بأمور الدين المطلقة..

ظللــت أصلى متوسلا لعينى أن تدمعا حتى أستريح،لكن دموع قلبى كانت قد جفت بفعل العجز الأزلى أمام الخلل.

****

ما أبشع أن يكره الانسان عمله.سنوات عديدة أقوم بعمل حقير دون كفاءتى وقدراتى الذهنية وطاقتى الابداعية.يدق جرس التليفون فأرد على المتحدث:

-أهلا وسهلا. من حضرتك؟ إبق معى دقيقة واحدة من فضلك.

ثم أصله بطاهر بك قائلا:

-"فلان"بك مع سيادتك

أردد هـــذه العـــبارات الآلية الباردة عشرات المرات كل يوم حتى قتلتنى. *كان يسعدنى ترديد عبارات أخرى فى محاضراتى لطلبة الجامعة عن إعلاء الدين عند المتكـــلمين والعقـــل عـــند الفلاسفة والقلب عند المتصوفين.* أستقبل العملاء والمورديـــن فى الاستراحة وأطلب لهم الشاى والقهوة.يأتينى جرس الاستدعاء فأفـــتح لهـــم الـــباب وأدخلهم على طاهر بك.لم أستطع الالتزام بنصيحته ان أفلسف هذا الموت البطىء،وعلى استحياء منى طلبت العودة الى العمل بالقطاع التجارى.فوجئت به يقول لى:

-لو صبرت قليلا لنلت مرادك

-كيف؟

-فضائح مدير المشتريات فاقت الحدود.ستحل محله

-لكن خبرتى تنحصر فى تحصيل شيكات المبيعات

-اذا كنت قد نجحت بمهارة تحسد عليها فى الانتقال من الفلسفة الى البيع رغم تناقضهما الشديد،فماذا يمنع أن تنجح فى الانتقال من البيع الى الشراء وهما عمليتان متكاملتان؟

وبدلا من أن أحمل"بروفات" كتبى عن علاقة الفلسفة بالدين والعلم لأتوجه الى المطبعة،كنت أحمل الشيكات بين العملاء والشركة والبنوك.مئات الملايين تداولتها يداى وأنا ألتقى بكائنات بشرية عجيبة يسمونهم رجال الأعمال.ما من أحد منهم نظر الى وتعامل معى من الداخل.كلهم رأونى كموظف أو"بوسطجى"،وحتى عندما عملت مع طاهر بك كنت أمارس نفس المهنة،فبدلا من الشيكات كانت الأوراق والملفات والمكالمات التليفونية.لماذا اختاروا إبن الأستاذ ونبذونى؟..*لماذا اختطف ضابط المباحث فى قسم باب شرقى فتاة عمرها خمسة عشر عاما وخلع ملابسها وحبسها عارية مع المحتجزين،ثم حمل ملابسها الداخلية الى أسرتها وقال لهم:إذا لم تعترفوا كما اريد فسوف أجعل المحتجزين يغتصبون ابنتكم ثم ألفق لها قضية دعارة؟..ولماذا لم يرفع هذا الضابط قضية على جريدة الأهالى حين نشرت عنه هذا الخبر الهمجى البربرى؟*..لماذاسارعت بالاستسلام ولم أحارب وأناضل؟.لو اشتكيت الى رئيس الجمهورية.لو رفعت دعوى. لو أضربت عن الطعام.لو هددت مدير الجامعة بالقتل.لو رقصت عاريا فى صحن الجامعة.لو فعلت أى شىء ولو لم يؤد الى نتيجة لكنت الآن راضيا عن نفسى،لكنى اكتفيت بالصمت وانتهيت الى"بوسطجى"مرة فى ادارة المبيعات

ومـــرة فى مكتب طاهر بك.رغم ذلك فلن أجعل من نفسى"عبد الحميد شتا" الثانى حتى لاينام الكلاب مطمئنين على فعلتهم الوسخة.

يقـــول طاهـــر بك ان فضائح مدير المشتريات فاقت الحدود.ألا يعلم أن فضـــائح مديـــر المبيعات أيضا قد تجاوزت الحدود؟.أنا أعرف أن أحد العملاء رشاه بعربة فيات وأن عملاء آخرين يخصصون له راتبا شهريا لقاء التلاعب فى أصـــناف المنتج وتبديل مسمياتها،وأن بعض العملاء قد اشتروا بضائع بملايين الجنـــيهات دون ضـــمانات التمانية كافية بحيث عجزت الشركة عن تحصيل مســـتحقاتها.كـــل ماتستطيع الشركة أن تفعله فى مثل هذه الحالة هو أن تخطر المدعى العام الاشتراكى باسم العميل وبياناته المتاحة ثم تفاد بعد ذلك بأنه لم يتم العثور عليه وأن بياناته تلك كانت وهمية،وأن مطربة ناشئة قد رفضت الغناء فى أكثر من فندق من ذوى النجوم الخمس بعروض مالية مغرية مبررة رفضها بأنها تركز جهودها فى إنجاح ألبومها الغنائى الأول.

تـــرى مـــاذا أفعل لو كنت قد وضعت فى هذا المكان؟..سؤال من السهل إجابـــته من بعيد بالحديث عن الشرف والأمانة والضمير طالما أننى لم أوضع فى محـــك الاختبار.اليوم تبدل الموقف وأصبحت الإجابة عن نفس السؤال صعبة مرهقة محيرة،فأنا معذب بين شعورى بالحاجة ووجودى فى غير المكان المناسب لى."هـــم"وضعونى هنا،وهنا أستطيع القضاء على أسباب الحاجة."هم"سلبونى حقـــى مـــن جهة ثم وضعونى فى مكان بمقدورى أن أعوض فيه ما سلب منى- تعويضا ماديا على الأقل-وبذلك نكون"خالصين"!.ولتذهب ثقة طاهر بك فى

شخصى الى الجحيم،فهى ليست عندى أهم من ثقى فى منصور عبد الرازق التى ستكون حينئذ قد سبقتها الى نفس المصير.

من أستاذ بالجامعة الى مدير للمشتريات بشركة صناعية وجاءنى الامتحان الأول عـــلى عجل. تعامل معى العميل على حذر رغم ثقته الواضحة بقدرته على شرائى كما اشترى معظم من سبقونى الى هذا المقعد.أوضحت له خط سير بضاعته الرسمى.ترسل العينات الواردة من سائر العملاء المتنافسين بأرقام كودية الى ادارة المعامل بالشركة لتحصل على معاملات جودة متباينة بعد تحليلها.تقيم البضـــائع بعـــد ذلـــك وفقـــا لأسعارها من جهة ومعاملات جودتها من جهة أخـــرى.لجنة المشتريات هى التى تقوم بالتقييم النهائى،وهى لجنة يرأسها رئيس الشـــركة وتضم العديد من المديرين ورؤساء القطاعات.أكدت له أن امكانية التلاعـــب مســـتحيلة،وأنه لـــيس بيدى أن أميزه عن غيره حتى لو رغبت فى ذلك.اطمأن لى الرجل نسبيا وإن كانت تحركات عينيه توحى بغير ذلك.أكدت لـــه أن السعر والجودة هما المعيارين الوحيدين لضمان نجاحه فى المناقصة وقبول توريداتـــه.بـــدأ فى ملاعـــبتى بـــأن قدم لى"طاقم مكتب"كهدية رمزية دعائية لشـــركته،فقبلتها شـــاكرا عـــلى استحياء.شعر بشىء من الزهو الناشىء عن انتصاره المبدئى وقد فتحت له باب الدخول بيدى.

جـــاءنى بعد فوزه بالمناقصة.هنأته بحرارة.عاودت التأكيد على أنى لم أفعل شيئا يخل بلوائح الشركة وقوانينها،وأنه فاز بجهده وحده، وأن أحدا فى الشركة

بأكمـــلها لايستحق منه تقديرا خاصا.أيدني في كل ماقلت ورغم ذلك فإنه- وبكل بساطة- قدم لي مظروفا مغلقا وهو يقول:

-اعتبرها حلاوة النجاح

وجدت نفسي أقبل منه المظروف دون تردد وكأنني أمارس فعلا قد اعتدت عليه منذ زمن طويل،أو كأنني أنتقم من"هم"!.

في البيت أغلقت على نفسي حجرة وفتحت المظروف على عجل.

خمسة آلاف جنيه.رقم أتعامل معه لأول مرة منذ توظفت رغم تفاهته.يسد لي ثغرات عديدة مفتوحة.أصبحت مرتشيا بين يوم وليلة.أخفيت المظروف في مكان غير مطروق.ليس الأمر كذلك يارجل بل انه مجرد"بقشيش"من تاجر غني لـــبروليتاري فقير لم يفعل شيئا أضر بالشركة ولم يخرق لها قانونا ولم يتلاعب في سعر أو رقم ولم يخالف نظام العمل ولم يحد عن الحق قيد أنملة.

[نحـــن ضميرك يارجل، فخض في نفسك واقمعها ولاتخف.لاتخش شيئا أو أحدا فأنت انسان كرمك الله بالوجود على صورته.إغسل أوساخك بعنف وقســـوة فأنـــت جديـــر بـــأن تكـــون نظيفا.] اذن فقد قبلت الرول يامنصـــور.جعلت من يدك اليد السفلى وكأنك متسول يقبل حسنة.هل هـــناك فلســـفة لموقفك أفضح وأوضح من ذلك؟.نعم هناك،فما دمت قد قبلـــت المظروف-سواء بعد تردد أو بلا تردد-فهذا يعني أنك لو عملت بالفلســـفة في الجامعة التي تتباكى عليها ،كنت ستفعل نظير مافعلت،كأن تستغل ظروف الطلبة بالدروس الخصوصية أو المذكرات المطبوعة أو على

أســوأ الفروض تبيع الامتحانات لمن يقدر على شرائها وتعثر فى يسر على فلسفة تبرر بها ذلك.

يقولــون فى الأمــثال الشعبية "أول الرقص حنجلة"..ولقد تحنجلت بقبولك الآلاف الخمســة،ولولا الــربابة لما كانت الكمنجة.فى المرة القادمة بإذن الله سترقص طربا بقبول الآلاف العشرة وستؤكد لنفسك وللعميل أنك لم تحد عن الحــق قــيد أنملة ولكنك ستكون على وشك أن تحيد،وستحيد مرة وتتعذب كثيرا،ثم تحيد مرة ثانية وتتعذب قليلا،ثم تحيد مرة ثالثة ولاتتعذب.ثم تظل على حــيدتك المتزايدة الى الأبد وستظل أيضا تؤكد-ولكن كاذبا-بأنك لم تحد عن الحــق قــيد أنملــة.حينئذ تكون قد أصبحت مرتشيا وكاذبا بعد أن تجاوزت بالتدريج خطوتك الأولى بالنزول الى منزلة صاحب اليد السفلى ويقول سيدنا عــلى:"أحسن الى من شئت تكن أميره،واستغن عمن شئت تكن نظيره،واحتج الى من شئت تكن أسيره".كان من الأجدر بك الاحتفاظ بمنزلة النظير،فالإمارة صــعبة عليك وأنت الذى ارتضى بالأسر.ومادمت قد ارتضيت بالأسر فإنك أصبحت عاجزا،وهذا ليس بجديد عليك فلقد أدمنت العجز.ترى كيف يكون موقفك أمام طاهر بك الذى انتشلك من الفقر والضياع والبطالة ووضع فيك ثقــته لــو عــلم بمــا فعلت أو بما تنوى أن تفعل؟..هل ستشرح له مبرراتك الفلســفية؟..ربمــا تكــون لديك الشجاعة الكافية لتقول له ان هؤلاء الناس قادرون وأنا عاجز فلماذا أرفض تكافلا اجتماعيا يتحقق بعطائهم لى عن طيب خاطر مادمت لم أخالف القوانين واللوائح.لو عارضك قل له ان الشركة تعترف

اعـــترافا شبه رسمى ب"قهوة" موظفى وعمال ادارة الشحن بالمخازن،فالعميل يعطيهم"قهوتهم"علانية والجميع يعلمون أن هذه"القهوة"تقدر بعشرات الجنيهات يوميا ولا أحد يعترض انصياعا لمبدأ التضامن الاجتماعى بين الأغنياء والفقراء. وتطبيقا لنظرية الأوانى المستطرقة و"المليان يكب فى الفاضى".كن شجاعا وقل لـــه ان البضاعة التى يأخذها العميل توزن بدقة على ميزان الشركة فلا يحصل عـــلى أكـــثر مـــن حقـــه،ومادام يدفع"القهوة"عن طيب خاطر فهى ليست رشـــوة..هـــى"حلاوة"أو"بقشيش"يسمونه"قهوة"كما جرى العرف منذ تاريخ انشاء هذه الشركة وغيرها من الشركات.

لكـــنك تنسى ذلك الوالى الذى قبل هدية فاستدعاه سيدنا محمد عليه السلام وسأله:

-كيف تأخذ ماليس لك بحق؟

-لقد كانت هدية يارسول الله

-أرأيـــت لو قعد أحدكم فى داره ولم نوله عملا،أكان الناس يهدونه شيئا؟!

ثم تعـــود وتتذكر ذلك الوالى على استحياء فى مرة تالية حين خسر هذاالعميل مناقصة أخرى..فوجئت به يوبخنى ويعنفنى فى مخاطبة تليفونية أشـــعرتنى بالذل والعبودية والهوان،وكأننى المسئول عن خسارته.فكرت أن أعـــيد له آلالافـــه الخمسة لكنها كانت قد اندثرت مع اندثار الجنيه المصرى الذى كان فيما مضى يعادل بضعة جنيهات استرلينية.

جـــاءنى عمـــيل آخر عرف فى الشركة بالبذخ والسخاء يدعى محمد العالم.لم أتردد فى الرفض مثلما لم أتردد فى القبول من قبل.أصابه رفضى بذهـــول شـــديد وظل ينظر الى متعجبا وكأنه ينظر الى كائن قادم من كوكـــب آخر.إننى لن أنسى نظراته تلك ماحييت.هكذا تصرفت وأنا أيضـــا فى ذهول من نفسى وكأن مخلوقا آخر غيرى هو الذى يتخذ لى قراراتى المصيرية.كان عرضه شديد السخاء يسيل له لعاب الضعفاء من أمثالى،لكن مقاومتى كانت فوق ما تصورته عن نفسى.بل اننى تجاوزت حـــدود المقاومة والرفض الى اتخاذ قرار تلقائى حاسم بألا أكرر سقطتى الوحـــيدة مرة ثانية طيلة حياتى،ومن العجيب أننى نجحت وكان نجاحى قاطعا ساحقا،ومازلت عاجزا عن فهم معظم مايحدث فى هذه الحياة من مفارقات.

فى حضـــن الحـــائط فتحـــت صدرى عن آخره لمصطفى تحت مظلة الأشـــجار الصـــامتة وأفضـــيت له بما يستحيل أن أفضى به لإنس أو جان.ابتسم فى حنكة متسائلا:

—عندما اخذت الخمسة آلاف جنيه هل كنت سعيدا راضيا؟

—نعم

—وعندما رفضت ماعرضه عليك العالم هل كنت سعيدا راضيا؟

—نعم

—فأين هى المشكلة؟ولماذا تفسد علينا قعدة المزاج؟

ثم تركنى لاستقبال صديق حين تمكنت من فرصة للاختلاء بنفسى لعقد مكاشفة جديدة..لماذا رفضت العرض الثاني والأخير؟..إفعل كما يفعل هــؤلاء البراجماتيون الأمريكان حين يناقشون فكرة جديدة تنطوى على العديد من المتغيرات والاحتمالات بطريقة العاصفة العقلية التى يسمونها BRAIN STORM.أذكر كل فكرة تخطر على بالك ولو بغير ترتيب أو مـــنطق،ومهما بدت غير معقولة أو مقطوعة الصلة بموضوع البحث..ثم دع الأفكـــار تتفاعل وتتصارع وتنسق وتصفى حتى تحصل على الفكرة النهائـــية الصحيحة ذات النفع والفائدة،فهم يقولون:"ان هذه الفكرة حقيقـــية لأنها نافعة ومفيدة وهى نافعة ومفيدة لأنها حقيقية"،ثم لاتفتح فمـــك بكـــلمة واحدة عن فكرة وجودك على أرض هذا البلد..عشاء *فاخر من السمك فى أفخم مطاعم الكورنيش وزجاجات ثلاث من البيرة المثلجة.الحرام والحلال والخوف من الله.جلستا لدى ماجدة كحلمتى ثدي فتاة عذراء وذلك أمر غريب فى عالم النساء الأكثر غرابة،فكأنما تتحدى الزمن وهى التى حملت وولدت و اقتربت من الأربعين وبشاعة الانحدار والســـقوط وشـــبكة الانترنت والدخان والحائط والأحلام الضائعة فى الشـــىء الآخر واستغنى عمن شئت تكن نظيره واحترام الذات وخيانة الـــثقة والإحســـاس بالضعة والدونية والتنكر للتكريم الإلهى وإغماض العيـــنين عن رقابته وتحدى إغراء المال وتغرق فى الدنس وتلوم المدنسين مـــن أولى الأمـــر– الأربعـــين على الأكثر– وحتمية زوال كل الناس*

والأشياء بما فيهم النبي بوش السكير الأسبق الذى يبدأ يومه بالقراءة فى الكتاب المقدس والذى يقول انه رسول الله لهداية المسلمين ثم يتبع قوله بسرقة أراضى الشعوب ويعلنها حربا صليبية لتغيير العالم باسم الله واضعا مصر فى ذيل القائمة لأنها -حسب قوله- جديرة بأن تكون رائدة للديموقراطية فى المنطقة مثلما كانت رائدة للسلام باسلام وهل جربت الرقص عاريا أمام مرآة على إيقاع موسيقا راقصة وما أروع الاعتزاز بالنفس ودرء الشعور بالدونية وهل من الأفضل أن تركز على سبب دنيوى متغير أو أن تبحث فى الأسباب الملكوتية المقدسة.اللهم أعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك..وبعد،فهل توصلت بتلك العاصفة الدماغية الى شيء؟!..

****

••

رغــم موقفهــا النبيل فهى امرأة.ما أن تحقق عجزى أمامها حتى انفجر ماكــان كامنا فى أعماق سريرتها فى وجهى.أنا اليوم رجل أنانى تسببت بــتخلفى فى استقالتها من عملها الحكومى لتتفرغ لتربية الأولاد وكان راتبها الضئيل يساعد-كما ترى- فى تدبير حال الأسرة.كانت نفقات المظهــر والمواصــلات-كما أرى-تفوق المرتب.أنا الآن عندها رجل لم يســتطع اتخاذ قرار صحيح فى حياته ولو مرة واحدة.ألم أكن أنا نفس الرجل قبل الانكسار يا امرأة؟..

-وجدت عملا جيدا فى شركة استثمارية

-ماهو هذا العمل؟

-سيحدده مدير الشركة بعد المقابلة

-لو كان هذا يريحك فلا مانع عندى

-وحتى لو مانعت...

صحيح أن تحولها قد حدث تدريجيا ولكنى لم أكن أتصور أن يتخذ هذه الحــدة أو أن يبلغ بها هذا المبلغ من الجرأة والتطاول.لست أدرى ماذا فعلــت حــنان بــالأولاد حتى أصبح الثلاثة بمثابة حزب يعارض كل تصــرفاتى ويتخذ مواقف معاكسة لكل موقف أراه سديدا.كيف نقلت شعورها بعجزى الى أبنائها بهذه السرعة وأين ذهب حبنا القديم؟.أبهذه البساطة ولهذا السبب وحده ينهار أساس الحب ويندك فيتبعثر رمادا فى

الهــواء؟.أتضمحل الروح تحت سطوة الجسد هكذا فى غمضة عين؟.فما معنى الزهور والموسيقا والشعر والفن والأحلام والأمانى المحلقة والسهر فى البحر على ليالى القمر؟..قال كليمان السكندرى ان كل امرأة يجب أن يحمــر وجههــا خجلا لمجرد التفكير فى كونها امرأة،وتخلص أوريجين السكندرى من خصيتيه هربا منها،أما أنا فكالمعتاد لم أفعل شيئا.

لامــاجده تعــرف أوريجين ولاحنان تعرفه.أنا الذى أعرفه.هنيئا لك بمعرفتك يافالح.انى أنظر الى حنان حتى هذه اللحظة كما أنظر الى الزوجة الفاضلة التى امتدحها لموئيل فى سفر الأمثال قائلا:"ان ثمنها يفوق اللآلىء وانهــا تصنع خيرا لزوجها لاشرا كل أيام حياتها".ورغم اختفاء عجزى أمــام ماجده فإنى مازلت أرى فيها المرأة الصخابة التى ذكرت فى نفس الســفر وهى تجلس عند باب بيتها على كرسى فى أعالى المدينة لتدعو عابــرى الطــريق المقومــين سبلهم فتقول:"من هو غر فليمل الى هنا" ،ولناقصــى العقــل تقول:"المياه المسروقة عذبة وخبز الخفية لذيذ وهو لايعلم أن الخيالات هناك وأن مدعويها فى أعماق الهاوية".،وانى منصور عــبد الرازق ناقص العقل راقد فى تلك الأعماق،فالقلب يعرف مرارة نفســه ولايشــاركه غريب فى فرحته..ترى هل شمت رائحة ماجده فى جسدى أو فى سلوكى أو حتى فى عجزى ومن ثم تريد أن تنتقم لنفسها دون أن تعلــن عــن السبب؟.لعلها كانت تراقبنى كما تراقبنى الجماعة إياها،فقد تردد السؤال كثيرا على لسانها:

-أين كنت بالأمس؟

وتكررت إجاباتى الهلامية:

-كنت مع أصدقاء

-وتترك "مؤمن"مريضا ولا تسأل عنه!

التســاؤلات ذاتهــا لاتضايقنى.الذى يفزعنى هو تلك النبرات المباحثية الاستطلاعية الاستفزازية التى صرت ألحظها على خطابها معى.هذا مافعله الجـنس ياسيد فرويد.فلتقر عيناك بصحة نظرياتك عن مرضاك إذ أن زوجتى أصبحت تستمرىء توبيخى وتقريعى أمام الأولاد فى كل مناسبة منذ ذلك التحول البغيض الذى لاناقة لى فيه ولاجمل.

وأفاجأ بمؤمن يقترب منى فى هدوء وهو يقول:

-كنت أتمنى أن تكون قدوتى ومثلى الأعلى يا أبى

يصيبنى رعب يتفزز له جسدى فأسأله:

-وما الذى يمنع ذلك ياحبيبى؟

-لاتؤاخذنى إنى أفتقد فيك القوة

-وماذا تقصد بالقوة؟

-معظــم آباء أصدقائى أقوياء بأموالهم ومناصبهم وممتلكاتهم..أما أنت..

-ألا تعــرف أن الله يوزع الأرزاق كيفما يشاء وأن هذه المسألة خارجة عن ارادتى؟

–لاتؤاخذني مرة أخرى،ان الدلائل على سلبيتك المطلقة عديدة

–اضرب لى أمثلة

–أنت لاتدرى شيئا عن شئون بيتك،ولست أعرف ان كنت تعلم أننا بتنا يوما بلا عشاء

–غير معقول أن يصل الأمر الى هذه الدرجة

–انك لم تتحدث معى عن آمالى فى المستقبل ولم تعلمنى هواية ولم تراجع معى درسا.

..أومأت فى خجل وقلت له بصوت لايكاد يسمع:

–قد تكون محقا فى ذلك

–والحـــال نفسه مع إيمان التى بدأت تفكر كامرأة دون أن تدرى عنها شيئا هى الأخرى

–....

–أريـــد أن أسألك ألم تفكر يوما فى تغيير عملك حتى تكف أمى عن الاستدانة من أمها كل شهر

–أراك وقد بدأت تردد آراء امك

–آسف لجرأتى فأنا لاأقصد أبدا إيذاء مشاعرك

–لاتأسف وأعدك أن أغير من نفسى

ولأول مـــرة آخذه بين أحضانى،وأشعر أننى أب حقيقى،فقد كان صادقا فى كل ماقال.

لعلها لحظة من اللحظات النادرة التى جمعت بينى وبين مؤمن فى حوار بهـذا الشكل منذ أن التحق بالجامعة. إن أعظم ماتوصلت اليه من هذا الحوار ان ابنى يحبنى بشدة-دون أن أدرى-لكنه يفتقد وجودى، ولست أدرى من أين جاءه الإلهام أن يواجهنى فى هذا التوقيت بهذا الحب الكبير المغلــف بمرارة الانتقاد وقسوته. يحدث هذا كله وأنا منشغل فى اجترار هزائمى دون فعل حتى استمرأت تلك الخيبة..

[ســوف نقــترب مــنك أكــثر ونــأمل أن نلقى منك الاستجابة المرتقبة. واصل الاغتسال والتطهر وتخلص من كل مايعوق انطلاقك نحو مستقبل تنعم فيه بحرية الارادة وراحة البال وسكينة النفس، واقتل تلك الصــراعات التى تستهلك روحك حتى تنعم بالسعادة الحقة، وإياك أن تخاف من الحاكم فهو ليس بالمعصوم ولاهو مهبط الوحى ولايخصه الدين بمزية ولايرتفع به الى منزلة خاصة، فنواب الأمة هم الذين ينصبونه والأمة هــى صاحبة الحق فى السيطرة عليه وهى التى تخلعه متى رأت ذلك من مصلحتها.

إن الذين خافوا قال لهم جيمس الأول ملك انجلتره: "اننا نحن الملوك نجلــس على عرش الله على الأرض".. وفعل مثله لويس الخامس عشر فقــال: "انــنا لم نــتلق الــتاج الا من الله، فسلطة سن القوانين هى من اختصاصــنا وحدنــا بلا تبعة ولاشركة" ..وفعل مثله الخليفة العباسى المنصور حين قال فى خطبته يوم عرفه: "أيها الناس انما أنا سلطان الله فى

أرضه،أسوسكم بتوفيقه وتسديده،وحارسه على ماله،أعمل فيه بمشيئته وإرادتــه وأعطيه بإذنه،فقد جعلنى الله عليكم قفلا اذا شاء أن يفتحنى فتحنى لإعطائكم وإذا شاء ان يقفلنى عليه أقفلنى"..ومسك الختام نسوقه اليك من قول لويس الرابع عشر:"ان سلطة الملوك مستمدة من تفويض الخالق فالله مصدرها وليس الشعب"].

..كلامكم جميل حقا،لكن ما أسهل الكلام!..

فى الـــيوم الـــتالى اشـــتدت أعراض الأنفلونزا بمؤمن وارتفعت درجة حـــرارته.لست أدرى لماذا لم أنظر الى الأمر بما يستلزمه من اهتمام،ولا أذكر بأى شىء شغلت عنه،معتقدا أن المسألة لن تستغرق أكثر من بضع ساعات حتى تنخفض درجة حرارته،ولست أعتقد أننى لم أستدع طبيبا للكشـــف علـــيه مـــن باب البخل.صحيح أننى لم أكن أملك مايكفى لاستدعاء طبيب ولكن كانت هناك أكثر من وسيلة لتدبير المبلغ ثم رده لصاحبه حين ميسرة.تعجبت من نفسى كيف لم أفزع أو أخف أو أقلق عليه،وخـــيل الى انـــنى لم أنضج بعد بالدرجة التى تؤهلنى كى أكون أبا طبيعيا حقيقيا،أما العجيب فى هذه القصة فهى أننى كنت أتألم فى صمت مـــن جهـــة وأهـــون الأمـــر على نفسى من جهة،ثم لا أفعل شيئا فى النهاية.ربما شغلنى عن الاهتمام بأمره انشغالى بالتفكير فيما أفضى به الى مـــن مشاعر حميمية صادقة.كنت أستعيد عباراته الحاسمة القاطعة بأنه لن

يعيد تكرار دورتي ودورة أبي الحياتية،مؤكدا على أنه سيصنع من نفسه شيئا هاما وسيحقق في حياته قيمة كبرى. وعندما صرخت حنان:

-إلحق يامنصور..الولد يهذى من شدة الحرارة

سارعت في لهفة باصطحابه الى الطبيب والدموع تتساقط من عيني.حاولت حنان أن تأتي معنا فأثنيتها عن عزمها،وكانت سعيدة بإيجابيتي الحديثة العهد بها..وفي العيادة مات مؤمن!..

****

أصـــدق ما يقال عنى بعد تلك الصدمة المروعة أننى أصبحت منصور عبد الرازق"الصفرى"!..أستطيع بلا فخر أن أدعى بهدوء تام أننى الآن رجـــل صــــفرى.أفـــتقد حـــرية الاختـــيار بين ما يقع عن يمين الصفر ويساره.أصبح مبعث عزائى لنفسى بعد وفاة مؤمن هو الكمون فى طوايا الـــلحظة الصــــفرية بكل برودها. أستحلب متعة الانتقال-بلا فعل أو حركة-بين أقصى يمين الصفر وأقصى يساره دون مغادرة جحرى الذى لم يعـــد آمـــنا بعـــد انكساراتى القدرية الأخيرة..فهل تعلم الجماعة بما توصـــلت الـــيه الـــيوم؟.وإذا اقتربوا منى -كما يبشرون فى رسالتهم الأخيرة-فهل يغير هذا الاقتراب من واقع تلك الصفرية الجديدة؟..

فجـــأة وجدت نفسى أمتنع عن ماجده.تركتها عن يمين الصفر.كان ارتباطى الجسدى بها قد أضاف هم الخوف الى هم الاختناق ثمنا للتنعم بلذة الشعور بعدم العجز.الخوف كان يشملنى وإياها من المجتمع وأحيانا من الله وأحيانا من الشيطان.وثمة شعور مقيت آخر يلح على بأننى انسان خائن،وخيانتى مزدوجة،فأنا أخون الميثاق المقدس الذى يربطنى بحنان،كما ادفـــع زوجة أخرى الى اقتراف نفس الفعل حتى لو لم تكن تعانى نفس الشـــعور.يصيبنى هذا الارتباط القوى المزيل بارتباك شديد فى ملكاتى الداخلية والخارجية فتختلط على الأشياء وأشعر أننى أساهم بقسط وافر

فى الدنس العام بينما أسعى الى مقاومته،وفى إحداث الخلل الكونى بينما أدعى الرغبة فى اصلاحه.

فى ومضـــة إلهـــام شاردة بارقة حاولت الامساك باللحظات الزمنية الســـاخنة الـــتى عانقـــت فـــيها مـــاجده وحنان لأتأملها وأستكشف خـــباياها..انه نفس التعرى ونفس الفعل ونفس المقدمات ومانفرزه من نتائج.فهل تساوى اللعبة كل ما أصبحت أحمله -لأجلها- على كاهلى مـــن هموم؟..انى أعلم أن لكل شىء ثمنا،ولكنى كنت أستحم عقب كل لقاء مع أى منهما بنفس الماء الذى يتركب من الاكسيجين والايدروجين ثم أنشف جسدى بمناشف صنعت جميعا من ألياف سليولوزية ملونة تحمل نفس التركيب الكيمائى،ثم أنسى..ويوما سألتها:

-هل تكرهين زوجك؟

- لا

- اذن فلماذا..

- لست أدرى..وأنت؟

- أنا أحبها فعلا

- فلماذا؟..

- لست أدرى أنا الآخر

- فلماذا نشغل أنفسنا بالبحث عن الأسباب؟

ذكرتني بمنطق مصطفى الزوربا فيما تعلق بقبولي الرشوة مرة ثم رفضها بعد ذلك الى الأبد..وما جدوى الوعي لو أنه يصبغ الحياة بهذه المرارة.

لفـــترة من الزمن كانت حنان فاتنتي ومعشوقتي وخلاصة أمنياتي من الحـــياة.فراقنا مستحيل بكل المقاييس،فحاجة كل منا الى الآخر كانت حتما مقضيا لايستعاض عنها بما يمكن أن يقدمه لأحدنا إنس أو جان من تلبية لنداء أو استجابة لرغبة أو تحقيق لحلم من الأحلام.

انهـــا لحظـــة كشف كان لابد أن تجيء.هو التكرار وإن اتخذ صورا مخـــتلفة.هـــو الـــزوال وإن اتكأ على ذرائع متنوعة من بينها الاعتياد والاختـــناق والملـــل وعشق الجديد.إنه اللاجدوى مما على الأرض من مســـاحيق ترابية انسانية متحركة،والتطلع الى ما في السماء من أرواح ملائكـــية هائمة في لحن سرمدي لاتستطيع أن تسمعه أو تستوعبه كل الآذان.كان من الممكن أن تعبر تلك اللحظة جسر الزمن فتنقشع كشأن كـــل لحظـــات الكشف السابقة التي اعترضت مسيرتك في التجريب والعبث والسخرية من الحياة.

ذهول عظيم يصيبني من نفسي ومن لغز ألغاز الحياة.بالله كيف ينتهي كل شيء بهذه البساطة وقد تلاقت الأرواح من قبل وامتزجت الأجساد وعبقـــت الدنـــيا بـــرائحة النشـــوة وغردت العصافير الملونة أناشيد الخلد.أهكذا أصبحت حنان بعجزي وهكذا أمسيت انا بدونها أم هكذا طبع الحياة الخئون؟!..انتهى دور ماجده بعد موت مؤمن ولست براغب

فى أن افســر الارتــباط بين النهايتين خاصة وأننى لا أعرفه..وأين على الأرض تلك المرأة التى يمكن أن أعشقها وأفنى فيها دون تغير أو ملل أو زوال أو خوف أو اختناق؟.انها ليست امرأة بعينها أشتهى سكر التمرغ بوجهى بين ثدييها أو أذوب شوقا الى اعتصار رحيق شفتيها والانصهار فى أتونهـا ..كـل ذلك راح بموت مؤمن ولم يبق فى الوجدان إلا روح لاتعــرف المــادة ولاتسكن الأرض.آه.خيال شارد.صورة شفافة.طيف بديــع.نســمة عطرة لاتلمس ولاتعانق بالجسد.ألا يكفى موت مؤمن منصور لنسيان أدهم جبريل والكف عن الضياع فى شبكة الانترنت بلا هدف والذهاب الى الحائط والتوهان فى "الشيء الآخر"وأوهام السطل وقد فقدت الوظيفة الحلم والإبن البكر والزوجة المحبة.آه..مهمتك الآن أن تؤصل هويتك الصفرية قبل أن تتخذ قرارك بارتباط بالجماعة.قناعتك الآن كافــية لأن تلتقى بهؤلاء الناس الذين لايملون الاتصال بك فأنت بحاجة الى العون والإنقاذ،وكونك صفريا هو أمر فى صالح الارتباط بهم لأنك قد تبدأ الحركة من جديد وعلى بياض.

قربــت المأســاة بــينى وبــين حــنان.اعتصــرها الحزن وداهمها المرض.أصبحت أعد الطعام وأغسل الأطباق وبداخلى نشوة خفية بهذه الأعمــال التى أمارسها لأول مرة.صرت أجلس الساعات الطوال مع إيمان أستمع اليها وتستمع الى ونحاول معا تلهية حنان بأى شيء.امتصت

وظيفتها الجديدة قسطا وافرا من تعاستها.لكن شيئا جوهريا فى كيانها قد تبدل وكأنها أصبحت كائنا آخر غير حنان التى أعرفها.

****

فكــرت أن أتوســل الى طاهــر بك أن يعيدنى الى عملى الممل معه ويــبعدنى عن وباء القطاع التجارى وامتحاناته الكريهة التى لن تتوقف يومــا.طردت الفكرة من رأسى حتى لا أبدو صغيرا أمام من يحاول أن يجعل منى كبيرا،ولأننى أحببت ان أجرب-ولأول مرة- لذة التمرد على رغــبتى الأزلــية فى الهروب.يراودنى عشق حميم لأن أقبض بيدى على جوهر هويتى الحقيقى انطلاقا من هذه الصفرية التى تجمد عندها الماضى كلــه ولم يعد له مجال أن يستبد بحاضرى يصول فيه ويجول.كفاك جلدا لذاتــك بصوت الماضى وسوطه،وليكن المستقبل مقصدك فلا مفر من تغيير الواقع المهين.لقد تجاوز الغلاء كل الحدود حتى أصبحت كرامتك مهددة انت ومن هم على شاكلتك من حملة المؤهلات أو بروليتاريا هذا الزمان على حد تعبير كاتب كبير..لم يمح من ذاكرتى حتى اليوم مشهد تلــك المرأة التى رأيتها صباح يوم وهى تنبش فى صندوق القمامة باحثة عــن بقايــا طعام.كان بجوارها كلب أجرب يؤدى نفس العمل.أولئك ظهــرها فى حــياء حتى لاترى وجهها.أنت ايضا تظاهرت بعدم رؤيتها احــتراما لكــيانها الانسانى.لم يكن ملبسها يوحى بالتشرد بقدر ماكان يوحــى بالفقــر.ورغم ذلك فقد لمحت فى عينيها تلك النظرة الكسيرة

المنهزمة المسحوقة.آه..اني أفكر في نشر إعلان مدفوع بمثابة نداء أقول فيه:أيها الأربعون-على أكثر تقدير-ارحمونا وكفاكم عبثاً بمقدراتنا واستخفافا بعقولنا.ارحلوا يرحمكم ويرحمنا الله لنأت بغيركم فهذا أكرم لكم ولنا من أن يتولى النبي بوش وأتباعه ترحيلكم ثم يدوس على أعناقنا بعد ذلك بدباباته ومجنزراته وعرباته المدرعة،أو كما قال "شاويش"سابق:احلقوا رؤوسكم بأنفسكم قبل أن يحلقها لكم غيركم.[واجه.كاشف.أصرخ.افعل.غيّر.استكشف.تحرك ثر.انجز.فكر.تكلم.أكتب.أمكر. تحايل.أصبر.]..

من هؤلاء الناس الذين يطلبون مني كل هذه الأفعال الصعبة المرهقة؟..انهم يتعقبون دقائق حياتي فكيف يتاح لهم ذلك؟.أتبلغ قوتهم التنظيمية والتخطيطية هذا الحد؟.ألديهم القدرة على التغلغل في ضميري وسريرتي وقدس أقداسي بهذه الدقة؟.ولكن متى أراهم وأعرفهم وأتكلم معهم وجها لوجه؟..

[نحن نعتذر لك عن وصفك بالجبن كما وعدناك من قبل،إذ أثبتّ لنا شجاعتك بالفعل.لقد نجحت في انتشال نفسك من أدران ماضيك المتمثل في الضياع والتشرذم والندم والحزن والتشتت والهروب الى ملذات وقتية تافهة دون جدارتك بما تستحق،بغض النظر عن كونها مشروعة أو غير مشروعة،ولنترك الآن الحديث عن النفس ونتكلم بمفردات الجماعة.من الآن لا"أنا"ولا"هم"بل"نحن"..لقد آن الأوان

لتعرفـــنا وتـــتحقق من هويتنا.اذهب الى مقهى اللؤلؤة الزرقاء غدا فى السابعة مساء.ستجد رجلا طويلا عريضا فى سن الخمسين يرتدى معطفا رمادى اللون.على مائدته بضع كتب وجرائد.قدم نفسك له وسيقدمنا لك..ولنا لقاء آخر.]..

دق قلـــبى بعـــنف لامثـــيل لـــه.هاهو الخيط الأول الذى يقود الى الخــلاص.أمسك به ولاتتراجع.تسلح بالأمل وكن واثقا من قدرة الله عـــلى أن يقـــول للشيء كن فيكون،وفى قدرتك على أن تكون جديرا بخلافـــته على الأرض.لاتتخل عن عزمك على المساهمة فى التغيير الذى يؤدى الى الخلاص الفردى والجمعى،فالمسألة ليست لهوا.هناك مواطنون غـــيرك يشـــفقون على البلد من الانهيار ويعملون على انقاذه ويطلبون مساهمتك فى انقاذ نفسك وانقاذ الآخرين..الحق انهم اتبعوا أسلوبا غريبا للاقتراب منك ولكن لابأس.المهم أن يبدأ العمل.

****

ذهبت الى المقهى فى الموعد المضروب يلازمنى خوف أزلى من السلطة توارثـــته عن أجدادى منذ آلاف السنين.من يدريك أنه كمين تستدرج الـــيه لـــتقع فى سين وجيم وتواجه تهمة غير حقيقية بمحاولة تغيير نظام الحكم بالقوة وأنت العاجز عن تغيير نظام النفس،ثم يلقى بك فى غياهب الســـجون و المعـــتقلات فلا تطول ماضيا ولا حاضرا ولا مستقبلا.خذ الحـــذر ولكـــن لاتـــتراجع.لقد اكتشفت الآن انى لا أفكر اطلاقا فى

التراجع.انى مقدم على الفعل وليكن مايكون.الآن أستطيع أن أستنشق الأكسجين النقى،فيتحول الاصفرار الى خضرة والظلم الى عدل وأنتزع وظـيفتى ممـن اغتصـبها منى ولا أعانى للحصول على عدة أرغفة من الخـبز.يا الله ما أعذب نسمات الحرية.انها نفس النسمات التى هفهفت على روحى يوم صمودى أمام محمد العالم ويوم جمدت الماضى فى الصفر.

رحـت أتجـول بـين الحاضـرين فى المقهى حتى عثرت على الرجل المقصـود.كانـت ملامحـه المصرية الصميمة تفيض بالبشر والسماحة والهدوء وتجلب الى القلب السكينة.تفحصت مائدته فلم أجد عليها كتابا واحدا.كانت هناك جريدة أو جريدتان على الأكثر.تفحصت بقية الموائد بعـناية فلم أجد جرائد الا على هذه المائدة.كان المقهى مزدحما والنادل منشـغلا بتوصيل الطلبات فرحت أبحث عن مقعد خال.تنبه الرجل الى فدعانى بابتسامة وإشارة للجلوس على المقعد الخالى بجواره:

-تفضل.اجلس

جلسـت متشككا فى أمره وأمرى.هل هو الرجل المقصود وهل أنا من ينتظره؟..بعد فترة صمت تخللتها نظرات استطلاعية متبادلة سألنى:

-أتبحث عن صديق؟

قلت له دون تفكير

-نعم

-لاتقلق..قد يأتى بعد قليل

الرجل يرتدى معطفا رماديا بالفعل،لكنه لم يقدم لى علامة واحدة موحية يفصح بها عن نفسه.راودنى هاجس قوى بأن أعود أدراجى الى منزلى وأن أعنى بشئونى الخاصة وهمومى الشخصية وحياتى العائلية الجريحة،وأن أبحث عن عمل اضافى أحسن به دخلى ،وأن أدع الملك للمالك فهو صاحبه يفعل به مايشاء،وأنفض عن كاهلى ما أحمله به من أثقال وطنية وقومية وعالمية تنوء بحملها الشياطين المردة.

فى نفس اللحظات مرت عربة فارهة أمام المقهى يجلس على مقعد قيادتها شاب غليظ القسمات أنيق الملبس وبجواره فتاة حسناء والاثنان يضحكان فى سعادة وحبور.تسمرت عيناى على هذا المشهد،فلم يكن ذلك الشاب سوى أدهم جبريل سارق حياتى.هاهو يرتع سعيدا بسرقته وفتاته وعربته ودنياه وآخرته واحساسه بالطمأنينة لانتمائه الى الأربعين على أكثر تقدير.حينئذ ألح على الهاجس من مركز قوة فشدنى من جديد الى الماضى الذى كان قد تجمد فى صفريتى..نظرت الى صاحب المعطف الرمادى فإذا به ينظر الى نظرات ذات مغزى أعطتنى انطباعا بأنه الرجل المقصود.

ما أن تخلصت بعزم شديد من سطوة الماضى حتى لمحت عيناى احدى الجريدتين مفتوحة على صفحة يتصدرها مقال لكاتب شهيرعنوانه"من نحن"،وكنت قد قرأت المقال صباح اليوم وأعجبنى مضمونه الذى ينفى عن مصر صفة أو هوية بعينها كالعربية أو الفرعونية أو الأفريقية أو

البحر أوسطية ،وإنما هى فى رأيه مزيج لاينفصل من هذه المكونات تأصل عبر تاريخ مصر الطويل.

انتهزت الفرصة القدرية وقد سنحت أمامى فسألته:

–هل قرأت هذا المقال؟

–نعم قرأته جيدا

وجدت أنه المدخل الوحيد لأعرف هويتهم التى وعدونى بكشفها فى هذا اللقاء فسألته بجرأة:

–إذن من أنتم؟

نظر الى فى دهشة متسائلا:

–أفندم؟!

–أسألك من أنتم

أجاب وعلى فمه ابتسامة غامضة وقد بدا عليه الارتباك:

–أنـــا أمـــيل الى الاعتقاد بأننا كمصريين نمثل الفكر الذى طرحه الشاعر

اجابـــته توحـــى بالكثير،فإما أنه لم يفهم مقصدى ،وإما أنه ليس الرجل المقصـــود،وإما أنه الرجل ولكنه لم يستوثق منى حتى الآن.كنت فى غنى يامنصور عن وجع الرأس والقلب فكفى بك أوجاعك الأخرى.

–كيف؟

-ان مجـــانين الحزب الجديد يطالبون بإعادة تدريس اللغة المصرية القديمـــة وكـــأنهم يريدون العودة بمصر الى القرون الماضية..هذا شيء مستحيل بكل المقاييس.

بدأت أتوتر ووجدت نفسي أسأله في حيرة مقتحما صلب الموضوع حتى يستوثق مني:

-والخطابات؟؟؟

-أية خطابات؟!

-التي أرسلتموها الى تباعا

-أنا شخصيا لم أرسل اليك شيئا فأنا لاأعرف من أنت

-أنا لاأقصدك لشخصك بل أقصد أولئك الذين يقولون"نحن"

-معذرة..أنا لاأفهم ماذا تعني نهائيا

تبادلـــنا الارتـــباك فاعتذرت له وانصرفت متخاذلا الى بيتي عائدا بخفي حنين،وقد ازدادت حيرتي وتبلبلت أفكاري.هل هو ملعوب من صديق ســـخيف يـــريد أن يتســـلى بي،أم أن الرجل المقصود لم يحضر لعذر ألم به؟..من المؤكد أن الرسالة القادمة ستوضح كل شيء.

****

لامـــرآة تـــنفع معـــي غـــير صـــفحة البحر حين أحتاج الى أن أرى نفسي.لست أدري كيف تستطيع الأمواج المتدافعة أن ترفع لي الحجب وتكشـــف الأســـرار وتجلـــب الى روحي الطمأنينة والسكينة ولو إلى

حــين.تأتيني تهويمات غامضة من أزمنة وأمكنة قريبة وبعيدة.تمنيت من زمــان أن أعمــل بائعــا لــلجرائد.أحمــل تحــت إبطــي مجموعــة مــن"كراكيــب"البيت وأظل رائحا غاديا أنادى مروجا لبيع بضاعتي صائحا:

-بعروكه وحمار مصرى

هــذه ذكريات أبي،وإن كنت قد نسبتها لنفسي فلأنني أنسى أحيانا من أنا،فــتارة أصبح أبي وتارة أصبح جلالة الملك،وتارة أصبح لأجد نفسي قد تاهت وربما اختفت في غياهب المجهول.

ويــنفجر أبــواي في الضحك لمحاولتي تقليد بائع الجرائد الذي يمر أمام منزلنا مناديا:

-بعكوكه أخبار مصرى

ولــما كبرت أدمنت الجرائد والمجلات والكتب وكنت أتعجب لماذا نحن فقــراء وأتطلع الى اليوم الذي أصبح فيه أستاذا كبيرا يعلم طلبته معنى الطمــوح والرفعة والتقدم والارتقاء الى الأعالي ونبذ الفقر والدونية.في المساء أستمع الى موسيقا الغرب وأعيش تارة مع الفراعنة وتارة مع الجن وأحيانا مع حور الجنة العين وتتراءى لي أشباح غامضة أحدثها في طلاقة عن أحلامي وعن حيرتي في أمر أبي الذي يتمتع بثقة هائلة في نفسه رغم أنــه لايملك من حطام الدنيا شيئا..وقلت لأبي انني سوف أصبح رئيسا للوزراء فقال لي ان أحدا لايعرف كيف يصبح صباح اليوم التالي فسألته

من الذى يعرف فقال الله فأمضيت عمرى باحثا عنه متعرفا عليه لاجئا اليه فى كل شدة وكرب ورأيته فى كل شيء حتى فى رذاذ الموج الذى داعب وجنتى فشعرت بانتعاش ونشوة ولم أفكر فى شيء.

فجأة وجدت مؤمن واقفا أمامى بلحمه و شحمه ، و اذا به يضحك من فزعي قائلا :

- *انك تعذب نفسك يا أبي بلا طائل . يحرق دين السياسة على دماغ أصحابها .*

تعجبت لسوء أدبه فما هكذا ربيته، و سألته و أنا ما زلت مذهولا لوجوده :

- *كيف ؟*
- *لماذا لا تفعل مثلي فتموت و ترتاح؟*
- *أهذا هو الحل الوحيد فى رأيك ؟*
- *نعم ، فقضيتك خاسرة تماما.*
- *لماذا ؟*
- *لأنك ستظل فى هذا العذاب حتى تموت طبيعيا — او مريضا مقهورا على الأرجح — و لو بعد مائة عام، بينما سيبقى الأربعون فى أماكنهم من بعدك.*

و كما ظهر فجأة فإنه اختفى فجأة و تركنى هائما فى برزخ ضبابي يصل الحياة بالموت مثلما يفصل بينهما.

••••

لم يكـــن هـــناك بد من الذهاب الى الحائط وإفشاء السر لمصطفى الـــزوربا حتى أستريح،فقد مضى على لقاء اللؤلؤة الزرقاء مايقرب من شهر ولم تصلنى "منهم"رسالة جديدة،والحال على ماهو عليه.كل شيء تجمـــد عـــند الصـــفر. معظـــم الأربعين المهيمنين على مقاعد السياسة والاقتصـــاد لم يتغيروا منذ عشرات السنين ولم يغيروا فى واقعى المتردى شـــيئا بالإيجـــاب.كل تغيير يحدثونه لايكون فى صالحى كمواطن عادى يتقاضـــى راتـــبا معلوما،وكأن المقاعد التى يجلسون عليها عاشقة للغباء والفشـــل والعفـــن.أسماهم كاتب ناصرى جرىء "بفرقة العميان الذين فقـــدوا نعمة البصر واستكانوا لضلال البصيرة ، فلا هم يرون مسلسل الانتحار فقرا ولاهم يـــــرون مسلســـــل هروب الشباب المتعلم الى المـــوت فى قيعان البحر المتوسط فرارا من دوامـــات الإحباط وجحيم اليأس العام.انزاح الغطاء عن آبار غضب تغلـــى وتفور فى الشارع.انه الانـــزلاق الأخـــير الى القاع..ثلاثون سنة نهبت فيهـــا مصر كما لم يحـــدث فى تاريخهـــا الألفـــى.وصـــل بهم الاستهتار الى حـــد سرقة ملـــيارات المعاشـــات والتأمـــينات لتغطـــية عـــورات الفشـــل الأســـطورى"..ويرى الكاتب الناصرى-ولست أنا الجبان الرعديد-أن الحـــل هـــو"أن يرحل الحكم اختيارا قبل أن يطفح الكيل انفجارا،فإما التغيير العاجل وإما القيامة المعجلة،وتذكروا ان كنتم تذكرون طرفا من

خبر التاريخ أن الشعب المصرى يصبر كالجمل ويثور كالإعصار"..وفى نفس الصحيفة ونفس العدد صرح رئيس وزراء سابق بأن الفساد"يشفط"مصر فى عهد حكومة"ماليش دعوه" وأن المبالغ المهربة الى الخارج بلغت٢٠٠مليار جنيه.

الأمل الذى داعبنى فى محاولة التغيير اختفى منذ انقطاع الرسائل.ربما كانت الجماعة تنظيما سياسيا سريا غير مشروع يتخفى وراء شعارات كاذبة،وعليه فمن المحتمل أن تكون قد وقعت فى قبضة أمن الدولة التى لاتعرف الرحمة.ربنا يستر ولايكون إسمى مدونا فى سجلاتهم فأنا غلبان لاأحتمل نومة"البورش" ومسخرة السجون.الجلوس هنا فى حمى الحائط وفى حضن بيوت الاسكان الصناعى تحت سقف الأغصان الخضراء المتشابكة يساوى الدنيا وما عليها،ويكفينى أن أقول آه..أما لو كانت الجماعة مشروعة ومعلنة فربما اختلف الأمر معى وأصبحت أكثر قدرة على الانصهار فيها.

البيوت تطل من واجهتها القبلية على نادى سموحه الاجتماعى الرياضى الذى ارتفعت قيمة عضويته الى خمسين ألف جنيه.النوافذ صغيرة تشيع أضواؤها الخافتة فى المساء شعورا بالدفء والسكينة والبساطة والرضا والتسليم للقدر..ولابأس من الجلوس فى البيت ومشاهدة برامج التلفزيون الاسلامية التى تتحدث عن خوارق اولياء الله الصالحين وتسخير الجان لتحقيق المنافع،وعن الدجاجة التى تضع بيضا

مكتوب عليه لفظ الجلالة والشهادتين،وعن الشجرة التى تنمو فروعها على هيئة لااله الا اللـــــه،والجاموسة التى يشفى لبنها مرضى السكر.

تماديـــت فى الثرثرة مع مصطفى وتمادى هو فى الاستماع الذى يجيده بفطـــرة أصيلة.معظم السكان إما موظفين وإما عمال.اشتروا مساكنهم بالتقســـيط خصـــما من رواتبهم الشهرية عن طريق جمعيات الاسكان بشـــركاتهم.حياتهم جميعا متشابهة.غالبا مالا يتعدى الراتب بضعة مئات قلائـــل مـــن الجنـــيهات.على كل أسرة أن تدبر احتياجاتها فى حدود راتبها.فى العقود السابقة كانت عشرة جنيهات تكفى لإعالة أسرة كاملة على مدى الشهر.يتندر صهرى وهو يشير الى صورة زفافه الفوتوغرافية بأن ثمن مايرتديه فى تلك الصورة ابتداء من الطربوش مرورا بالبدلة ذات القمـــاش الصـــوفى الانجليزى وانتهاء بالحذاء المصنوع يدويا لم يتجاوز جنيهات ثلاثة.نحن ننتمى بلا فخر الى موظفى وعمال الحكومة وشركات القطـــاع العـــام الذين يمثلون الشريحة الوحيدة من شرائح المجتمع التى تســـدد ضرائبها كاملة بالخصم من رواتبهم.لا الحرفى ولا الصانع ولا الفـــلاح ولا صاحب الأرض ولا أصحاب المصانع ولا التجار يتذوقون تلك المرارة التى نتذوقها مع مطلع شمس كل يوم مهما قلت دخولهم،فهم قـــادرون عـــلى الأقـــل عـــلى شراء اللحوم والفواكه فى غير المواسم والأعياد.رغم ذلك فأنا أقتطع من قوتى لأقرأ وإلا مت كمدا.

شيء كريه أن تنحصر الحياة فى هذه الحفرة الضيقة فكيف السبيل الى الخروج منها يامنصور ولماذا تقول هذا الكلام السخيف المعاد لمصطفى وهـــو يعـــرفه كما يعرفه أصغر طفل فى مصر؟..تقوله لنفسك إذن!فما الفائدة ياخفيف!..خذ بعضك وانزل سموحه خلف النادى وتفرج على المجـــتمع الجديد..محلات مكدونالدز ومقاهى الانترنت وسوبر ماركت كـــارفور وزهران ووسط المدينة وهيلتون الجديد وجرين بلازا ومقاهى الشيشة والبالجو ومطاعم التيك اواى ومهرجان العربات الفارهة ودور الســـينيما ذات الطوابق المتعددة وشباب الجيل وفتيات البودى اللاتى يدخـــن السجائر والشيشة ويركبن الدراجات البخارية التى لايقل ثمن الواحـــدة منها عن ربع مليون جنيه،وأما عن العرى فحدث ولاحرج، وأمـــا جرائم الاغتصاب والتشاجر بالسيوف وتحطيم المحلات والسكر والـــبلطجة فقد أضحت كلها أمور عادية يمكن أن تحدث فى أى يوم أو كل يوم.

لكن من الأفضل أن تنأى عن هذا كله وما عليك الا أن تواصل اجترار آلامـــك وترديد آهاتك ،فمن الحتم أن يأتى يوم تستطيع أن تتنفس فيه بحرية..والآن اعط ظهرك لهذا كله واستند فى طمأنينة الى حائطك المحبب واسمع مصطفى وهو يتنهد قائلا:

–إيييه..ملك منظمه صاحبه ومالنا فيه شيء

–والى متى نظل راضين بالظلم يامصطفى؟

-لاظلم ولا يحزنون.عش على قدك تعرف راحة البال

-والطموح؟!

-يعنى ايه؟..وآخرته ايه؟

-يعنى أفكر فى حياة أكثر انسانية

-فكـــر على كيفك ولكن لا شأن لك بغيرك.دع الملك للمالك وابعد عن المقارنة تسلم من ظلمة القلب.

انى أحسده على هذه الدرجة العالية من الرضا وسكينة النفس رغم جهلـــه،فهو لم يقـــرأ كـــتابا واحـــدا فى حياته من مئات الكتب التى قرأتها.."عش على قدك".. فلسفة للخنوع والرضا بالمقسوم.."ابعد عن المقارنة"..علمنى أبى أن الباب الذى تدفعه ريح المقارنة لاينفتح الا على جحيم.فماذا لو قارنت حالى بحال ذلك اللص الذى سرق منى الوظيفة والفـــتاة والغـــربة والضحكات والطمأنينة والانطلاق؟..لو عدت الى الماضـــى ضاعت صفريتك التى تتكيء عليها وتحتمى بها..وأين رسائلكم ياجماعة أنا فى عرض النبى!..

-هذا الموضوع لايمكن أن يدخل دماغى

قالها مصطفى بثقة وهو يشرب الشاى الثقيل كوبا وراء كوب،فقد تمرد عليه الرجل الذى يمده بالحشيش ورفع السعر كثيرا،معتقدا أن مصطفى سيتوسل اليه لشدة احتياجه.لم يحدث شيئا من ذلك،فمصطفى لايعرف العبودية للصنف أو المال أو النساء أو أى شيء على الأرض.

-بناقص الحشيش به نعيش ومن غيره نعيش.على الطلاق بالثلاثة ما انا طالبه

شــهيقه حــرية وزفيره حرية وهو لايدرى بهذا النعيم الذى يرفل فيه وأحســده علــيه.يذكــرنى بــزوربا اليونانى وصديقه المثقف المتردد الحيران..وسألته كأنى أسأل عالما أو حكيما:

-لماذا لايدخل دماغك يادرش؟

-هو ملعوب لا أكثر

-قلبى يقول بغير ذلك

-لأن هذا ما تتمناه

-فما العائد عليهم من هذه الرسائل المتتالية؟

-أفٍّ!..ألم تقل انها انقطعت؟

-أنا واثق أنها ستعود

-وبعدين..بلا مغص يارجل.انت غاوى وجع قلب؟خلك فى حالك

-الحياه حلوه يادرش ولكننا لاننعم بها."هم"فقط الذين ينعمون

-كــل واحــد حســب دماغــه.انــت حر.ستظل شاكيا طول عمرك.لاشأن لك بهم

-انت سعيد إذن بحياتك هذه

باس يده وجها وظهر وقال بعفوية فائقة:

-الحمـــد لله آكـــل واشـــرب والـــبس أنا وعيالى وانام مرتاح البال.لاشأن لى بغيرى.تولع الحكومه والحراميه والعرب والأمريكان بجاز وســـخ.أنـــا أشعر الآن فى مقهاى الذى أملكه تحت هذه الأشجار التى زرعتها بيدى وأمامى هذا الكوب من الشاى أننى قاعد فى الجنة.

لم أصدقه..

-تقسم بالله العظيم انك تقول الحق ولاتريد أن تخفف عنى؟

-حتى لو أقسمت فلن تصدقنى.قلبك ياحبيبى محتاج لعمرة صيانة جامدة

اخـــتلط على الأمر فلم أعد أدرى من منا حامل ليسانس الفلسفة ومـــن الأمى صاحب المقهى..هذا الرجل الأسطورة لايدرى أنه يسكن قصـــرا مسحورا بنى فى وسط جبانة للأموات،فكيف يتاح له النظر من شرفاته بهذه السهولة دون أن تقتله الرجفة؟!..مغناطيس الصدق القراح فى دمـــه هـــو الذى يجذبنى اليه دائما.لذا أتألم بشدة لحظة أن أشك فى صـــدق مايقوله أحيانا.ذلك اننى أشعر بتناقض بين حريته المنعكسة على طمأنينـــته النفســـية الراســـخة وبين عبوديته لعشق المرأة فهو مزواج كبير.كل عدة أعوام يتزوج امرأة يعيش معها فترة ثم يطلقها ويسرحها بمعـــروف بعـــد أن يجزل لها العطاء فى صمت ودون ضجيج.معظمهن يصغرنه بسنين عديدة ويقعن فى عشقه بسهولة..يبدو أن المسألة ليست عبودية وإنما شىء آخر يغمض على إدراكى.زوجته ترهبه وتخشى بطشه

وعنفوانه ولكنها تتمرد عليه من حين الى آخر كلما علمت بزيجة جديدة فتذهب الى بيت أهلها غاضبة ويتركها حتى تعود من تلقاء نفسها وقتما تشـــاء أو بعد ضغط الأبناء عليها للعودة.هى الوحيدة التى أبقى عليها دون طلاق.لاأحد من أولاده يجرؤ على مراجعته فيما يفعل،وأجده حنونا عليهم كأم رؤوم.قال:

–خـــذنى معـــك الـــيهم فى لقائك القادم وأنا أفتش لك عن سر الملعوب.

..تـــنهمر دموعى فجأة وبلا مقدمة حزنا على فراق مؤمن الذى فاجأنى كضربة قاصمة على الظهر.انى لا أفهم شيئا مما يحدث فى هذه الحياة.

–ماذا حصل؟مالك يا استاذ منصور؟

–لاشىء..لاشىء

..عرف سر بكائى.

–لااله الا الله.انا لله وانا اليه راجعون.وحد الله يارجل

–لااله الا الله

–لاتحـــزن.لوكنـــت تجـــد فى هذه الجماعة تسرية عن همك فأنا أحضرهم لك من تحت طقاطيق الأرض

–تعيش يادرش

جففت دموعى ونسيت ماحدث كطفل وعاد عقلى الى الجماعة.

****

مــرات عديـــدة أقرأ فى الجرائد عن جماعات ذات مسميات مختلفة تم القبض على أفرادها ومحاكمتهم بتهمة معاداة النظام.يبدو أن الجماعة قد ماتـــت مـــن قبل أن تولد.لكن ما شأنها بالنظام و رسائلهم لاتحث على معاداتــه أو محاولـــة تغييره بالقوة.مافهمته انهم يحاولون تغيير الحياة الى الأفضـــل ،وتغيير أربعين شخص على أكثر تقدير يحقق هذا الهدف.رغم ذلـــك فانضمامك لهذه الجماعة ماهو إلا اعلان برفع راية العصيان على نظـــام الحكم ،وهذا عمل سياسى عليك بتحمل تبعاته لو شئت الخوض فيه.لقد حارب غاندى امبراطورية كبرى وانتصر عليها بسلاح المقاومة السلمى وصار مثلا يحتذى به.هذه الجماعة فى اعتقادى تحذو حذوه وإن كانت تتحرك فى سرية وحذر،بينماكانت حركة غاندى معلنة على العالم بأسره..وليت الجماعة تكشف لنا يوما عن غاندى مصرى جديد،فالأمة الـــتى لاتشعر بآلام الاستبداد لاتستحق الحرية،وقبل مقاومة الاستبداد لابد من تهيئة ماذا يستبدل به"فلو كان آلاستبداد رجلا أراد أن يحتسب وينتســـب لقال أنا الشر وأبى الظلم وأمى الإساءة وأخى الغدر وأختى المســـكنة وعمـــى الضر وخالى الذل وابنى الفقر وبنتى البطالة ووطنى الخراب وعشيرتى الجهالة".

رجل غبى راح يتعقبنى فى أى مكان أذهب اليه.لست أدرى ان كان مـــن الجماعـــة أم مـــن اخواننا الذين تسميهم الجماعة:"هم"..وهؤلاء أعرفهم جيدا فالجرائد تنشر صورهم كل يوم لتصيبنى عن عمد بالتقزز

لرؤيتهم والرغبة فى القىء..يرسلون رجلا ليتجسس على ويتعقب حركاتى.لو أعرف مقرا للجماعة لذهبت اليه طائعا مختارا وليكن مايكون،فالذى يهدف الى المستحيل هو وحده الذى يستطيع بلوغ الممكن.لو أعرف أحدا من الجماعة لالتقيت به بمحض ارادتى راضيا بكل ماقد يحدث لى،حتى لو سجنت فسوف يكون ذلك مجرد حلم،لأن ثقتى فى ابن سيرين شديدة لاتهتز إذ يقول ان الحبس فى السجن يدل على نيل ملك ،ولهذا فسوف أنام فى السجن وأضرط على مدد تلك الشقة،فقد قال ان من رأى أنه بين قوم قد خرجت منه ضرطة من غير ارادة فإنه يأتيه فرج من غم وعسر،أما اذا خرج من دبره طاووس فإنه يرزق بابنة حسناء وهذا ما أستبعده لأن زوجتى تستخدم مانعا للحمل استجابة لنداءات رئيس الجمهورية المتكررة بضرورة تحديد النسل.

من المؤكد أيضا أن تليفونى مراقب مادام الأمر كذلك،فمنذ عدة أيام صببت جام غضبى على رئيس الوزراء الذى خسف بالجنيه المصرى الأرض فأصبح سعر كيلو الأرز ثلاثة جنيهات والعدس خمسة جنيهات وهما غذاء الفقراء،وأصبح حامل ليسانس الفلسفة وصاحب الأسرة المحدودة العدد يفتقد الجرأة على السؤال عن سعر كيلو اللحم بعد أن خرج عن دائرة امكانياته الشرائية.شاركنى صديقى من موقعه على الهاتف الغضب على رئيس الوزراء لكنه أبدى تشككه فى انه المسئول الحقيقى عن قرار تخفيض الجنيه،سألته فى دهشة:

-من هو المستول؟

-يقولون انه شخص آخر نجمه آخذ فى الصعود

-من هو؟!

فوجئت به يغلق الخط!

فى ذلك اليوم اقترضت من مصطفى الزوربا خمسين جنيها لأكمل بهم الشـــهر..ولقد أردت أن أسرى عنه بنكتة فقد كان مغموما،فرويت له خمـــس قصص من التاريخ،الأولى عن مبايعة الخليفة العباسى الأمين ابن الرشيد بولاية العهد لابنه موسى ولقبه بالناطق الحق وهو إذ ذاك طفل رضـــيع.والثانـــية عن عبد الملك ابن مروان حين ورث الحكم الى ابنه الولـــيد ثم مـــن بعـــده ابـــنه الـــثانى ســـليمان فجعلهما وليى عهد المســـلمين.والثالثة عن عقد الوليد ابن يزيد لابنيه الحكم وعثمان البيعة من بعده وجعلهما وليى عهده أحدهما بعد الآخر وكانا غلامين صغيرين لم يبلغا سن الحلم.والرابعة عن الخليفة العزيز بالله الفاطمى الذى أوصى قبل وفاته بثلاث سنوات بالخلافة لابنه الحاكم بأمر الله الذى منع أكل الثوم والملوخية ،وقد تولى الخلافة وهو فى سن الحادية عشرة.والخامسة عـــن أحمـــد ابن طولون حين ولى ابنه خمارويه إمرة مصر والشام وبرقة وكان عمره خمس عشرة سنة..وقبل نهاية النكتة الخامسة كان مصطفى يغط وهو جالس فى نوم عميق.

****

هل أنت مستعد يا منصور يابن عبد الرازق أن تلقى بنفسك فى هذه الدوامة القاتلة أم من الأفضل أن تذكر الآية الكريمة التى تقول"ألم تكن أرض الله واســعة فتهاجروا فيها".؟.وتأخذ عيالك وتتوكل على الله الى بلــد عربى تبحث فيها عن عتبة رزق جديدة،فمن سعى رعى ومن لزم المنام رأى الأحلام.ولكن أين هو البلد العربى الذى تستطيع أن تعيش فيه الآن آمــنا ثم تعود منه آمنا؟..لقد جفت ينابيع الخير فى هذه البلاد منذ حــربى الخليج وعاصفة الصحراء وغزو العراق ولم يعد المصرى موضع ترحيــب لديهــم بــل صــاروا يفضــلون عليه الباكستانى والهندى والفلبــينى.أموالهــم اســتقرت مــنذ زمــن طويــل فى بنوك أوروبا وأمريكا،وأراضى شعوبهم أصبحت مرتعا لجنود أمريكا وبريطانيا وايطاليا وأســبانيا واليابان ومرتزقة الكتلة الشرقية.الوضع تغير كثيرا يا منصور فــانس تماما أن هناك قومية عربية مجدها يوما جمال عبد الناصر وحاول إعلاءهــا فقتلوه،وليس من الحكمة أن تترك بيتك خربا وتنشغل بتزيين الطريق اليه.لست أدرى لماذا يكرهون المصريين الى هذه الدرجة؟..

عقــب حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل،وفى احتفالية بالمركز الــثقافى الفرنسى بالاسكندرية ألقى الكاتب الجزائرى الطاهر بن جلون كــلمة بهذه المناسبة.أنا لست أذكر تفاصيل ما قاله وسمعته بأذنى ورأيته بعــينى،ولكن الذى لايمكن ان أنساه هو شدة كثافة جرعة السم الحاقد الذى كان يقطر من بين حروف المتكلم،محاولا بغيرته القاتلة إفساد فرحة.

الحاضــرين بهــذا الحدث الجليل وكأن الفائز غير مستحق للفوز وكأن مصر غير جديرة به.بعد ذلك بعام واحد وعقب مباراة فى كرة القدم بين مصــر والجزائر فى تصفيات كأس العالم،حين هزم الفريق الجزائرى،قام اللاعــب الجزائــرى الأخضر بلومى بفقء عين طبيب مصرى بوحشية متناهــية داخل احد الفنادق وانصرف عائدا فى أمان الله الى بلاده دون أدنى حســاب أو عقاب من مصر المتسامحة دائما فى حقوق أبنائها.ومنذ سنوات قريبة تعاقب وصول المئات من الجثث المصرية واردة العراق.أما فى هذه الأيام فالمصريون يقتلون هناك بالجملة من العراقيين والأمريكان والــبريطانيين ، بيــنما تتوالى عبارات السب والاهانة لمصر على لسان مرتزقة القنوات الفضائية من كل جنس عربى،حتى أمين الجامعة العربية المصــرى لم يســلم من ألسنتهم،ومنذ سنوات أرسلنا جنودنا لمساندة الكويت ضد الغزو العراقى ومن قبلها لمساندة ثورة اليمن السعيد..ومنذ طفولــتى وأنــا أعــيش عذاب مصر فى خدمة القضية الفلسطينية حتى شــهدت بعــينى أحذية الفلسطينيين وهى تلقى فى وجه وزير الخارجية المصرى وفوق رأسه.

ان كان لهذه الكراهية العربية لمصر سر فهو يكمن فى الغيرة النابعة من العجز والشعور بالدونية وفقدان المبادرة..ومن العجز العربى الى العجز المنصورى ياقلب لاتحزن.

استدرت فجأة وأنا فى طريقى الى الحائط وتراجعت بضع خطوات الى الخلف وسألته وقد كتمت انفعالاتى:

–لماذا تتعقبنى؟

–أنا؟!

–نعم أنت بالطبع..وهل فى هذا الطريق المقفر سوانا؟

–ولماذا أتعقبك؟

–لاتسألنى.أنا الذى أسألك

–انى فى طريقى الى المقهى

–وأمس وأمس الأول؟..إسمع.لاداعى للمناورة.من الأكرم لك ولى ولنا كلنا أن تتعقب أدهم جبريل بدلا منى

–ســيدى أنا لاأتعقب أحدا ولست أعرفك ولا أعرف من ادهم جبريل هذا

–أدهم هو الذى سرقنى وسرقك

راح يردد فى غضب:

–لااله الا الله ولاحول ولاقوة الا بالله

عند عودتى الى المنزل سألت حنان:

–ألا تلاحظين شيئا على التليفون هذه الأيام؟

–نعم أحيانا تتداخل الخطوط

–وماذا أيضا؟

-أكثر من مرة يتصل بنا من يسأل ان كان هذا منزل الأستاذ منصور،وبعد أن أجيبه بنعم يغلق الخط

-هذا ما كنت أحسب حسابه

-ما الذى حدث؟

-لاشىء.ألم يصلنى خطاب فى البريد؟

-كيف لى أن أعرف ومفتاح الصندوق معك؟

كثيرون صاروا يتعقبوننى فى كل مكان حتى صرت ألتفت من حولى أينما مشيت.فى النهاية قررت ألا أعبأ بشىء،فليمشوا ورائى كيفما يريدون،فمنذ أكثر من مائتى عام صرخ فولتير قائلا:"اسحقوا الخزى"!..

أصبح همى الدائم وشغلى الشاغل هو انتظار الرسالةالتالية.تحملت بصبر صدمتى فى ابنى وتقلصت حلولى الهروبية المتعددة..يرهقنى صمتهم فماذا يريدون منى أن أفعل حتى أنفى عن نفسى صفة الجبن فيعاودون الاتصال بى..لكنك جبان حقا مادمت تترك سارقك ينعم بوظيفتك وتستمرىء أن تبكى ضعفك وعجزك وفقرك أمام حائط.تذكر كلماتهم القاصفة:[لم تحرك.أصرخ.افعل شيئا.]..وتحركت صارخا ثائرا لأول مرة منذ عهد بعيد.

****

قال لى عميد الكلية:

-لكنها مشكلة قديمة.لماذا تثيرها الآن بعد مضى هذه السنوات؟

-أريد حقى

-فلماذا لم تصر على المطالبة به فى حينه؟

-كنت عاجزا

-فاذهب الآن بقوتك الجديدة الى مدير الجامعة

-لم أشأ أن أتخطى سيادتك

-المسألة ليست بيدى

رفــض مديــر الجامعــة مقابلتى دون مبرر.لم يبق لى الا أدهم جبريل نفسه.سأثبت للجماعة انى قادر على انتزاع حقى مساهما بقدر طاقتى فى اصلاح الخلل.الله عدل وأنا مظلوم،فمن المؤكد أنه سينصرنى لو أخذت بالأســباب فالمثل الانجليزى يقول:GOD NEEDS HELP وأنا أساعده حتى يساعدنى.ليس هناك من سبب أخلاقى أوقانونى يمنعنى من مواجهة الوغد السارق وإصلاح الخلل.سأذيقه من كئوس الذل والهوان التى طالما تجرعتها حتى الثمالة،ولو اقتضى الأمر فسوف أقتله.أنا لم أمسك طبنجة فى حياتى ولكنى سأحصل عليها بوسيلة أو بأخرى.

كــان حفــل زفافه أسطوريا حضره العميد ومدير الجامعة ونشرت أخــباره فى الجرائد.سأحرمه من زوجته الحسناء.سأحرق عربته وأنسفها نسفا.والله يا أخى أنت"هجاص"كبير ولن تفعل شيئا من هذا كله،لأنك لاتســتطيع أن تؤذى ذبابة،فكيف تفكر بالقتل والنسف والخطف وأين المقاومة السلمية التى كنت تشيد بها منذ قليل؟..ثم ماذا تفعل معه حين

تواجهه؟هل تتوسل اليه أن يترك لك وظيفته التى ترقى فيها وحصل على درجـــة مدرس وأصبح على وشك الحصول على درجة أستاذ مساعد وأنت مازلت"بوسطجيا"فى شركة؟..أم من الأفضل أن تحمد الله على ما أنــت فيه،فالمصـــحات العقلـــية أصبحت عامرة بالمرضى من الشباب العـــاطلين..ومعظـــم"جارســـونات"نـــادى سموحه من حملة الليسانس والـــبكالوريوس ،وصـــديقك هـــانى الناصـــح مـــازال يعمل بمصنع "المايوهـــات"بعـــد حصـــوله عـــلى بكالوريوس التجارة شعبة العلوم السياسية.أم أنه مكتوب عليك أن تظل حتى الممات أسيرا لحوار السيد والعبد البابليين دستورا لحياتك:

"–أنصت ياعبدى أنصت

–هأنذا ياسيدى هأنذا

–سأعشق امرأة ياعبدى

–اعشق ياسيدى إعشق

فالعاشق ينسى الحزن ويطرد خوفه

–لاياعبدى لن أعشق امرأة لن أعشق

–لاتعشق ياسيدى لاتعشق

فالمرأة جحر أو حفرة..هاوية..فخ..مصيدة

المرأة خنجر حديدى مسنون يقطع رقبة الرجل

–أيها العبد أنصت الى

-هأنذا ياسيدى هأنذا
-سأقدم خدمة عامة الى بلدى
-قدم ياسيدى قدم
فالرجل الذى يخدم بلده توضع أعماله فى حلقة مردوخ
-لاياعبدى لن أقدم على الاطلاق خدمة لبلدى
-لاتقدم ياسيدى لاتقدم
اصعد فوق أكوام الخرائب القديمة وتمش هناك
انظر فى جماجم الأعلين والأسفلين
هل تتبين من كان المحسن فيهم ومن المسىء؟؟؟"

و قال لى مؤمن إنه لم يعد متعاطفا معي مبررا ذلك بأن العبيد يستمرئون العبودية و يتلذذون بتعذيب أسيادهم لهم ، بل و يميلون الى تقليدهم فى حياتهم الخاصة لأنهم يتمنون فى أعماقهم أن يكونوا فى مكانهم رغم ادعائهم بغير ذلك ، و سألته فى حيرة :

- هل أنت ميت أم حى ؟

أجابنى بنبرة هازلة :

- أنا الذى أسألك . هل أنت ميت أم حى .

****

الوظيفة تعلم الموظف أن يمشى بجوار الحائط وأن يتسلى فى البيت بمشـــاهدة الـــتلفزيون والثرثرة مع أسرته،وخارج البيت بالجلوس على المقهى مع أصحابه لتبادل الشكوى والتذمر من الحياة،وحين يأتى الليل ينام مستسلما لقدره..يحدث هذا كله فى انتظار دائم لأول الشهر حيث يـــتم توزيـــع الراتب على الاحتياجات ويسفر ذلك فى النهاية عن غصة فى الحلق تتولد من عدم الشعور بالاكتفاء والطمأنينة.

ولأنـــنى لم أستسلم لهذه الثوابت رغم كونى موظفا فإننى-فضلا عن وجود الغصة-أعانى من افكار وهواجس وأحلام ورؤى تعصف بذهنى وتجعلنى فى حالة قلق دائم لايزول الا بتعاطى مهدىء تختلف طبيعته من ظرف لآخر.

بعـــد موت مؤمن المفاجىء وتحولى الى صفر كبير بعد أن كنت صفرا صغيرا،كنت واثقا أن تلك الأفكار والرؤى والهواجس ستتوارى ثم تصير الى فناء على أثر إدراكى لعبثية الحياة والموت معا.لم يكن لدى عزيز بعد مؤمـــن أبكـــيه أو هكذا افترضت.لكن بمرور الزمن وتعاقب الأحداث وجـــدت نفســـى أعـــود بالـــتدريج الى طـــبعى القديم وكأن شيئا لم يحدث.عدت الى اهتماماتى بالوطن والأمة والكون رغم قسوة التجربة الـــتى تهـــون أمامها أى تجربة أخرى وتفرض على النفس زهدا فى كل الاهـــتمامات،فأنا لم أفهـــم لمـــاذا مـــات مؤمن بهذه الكيفية وهو بين

يدى.التابق الشك فى مسلمات كثيرة فجعلت أعيد النظر فى طمأنينة المشـــكوك فى أمرها و راودت خاطرى مقولة "ديكارت" الشهيرة:"أنا أفكـــر إذن أنا موجود"..وقد أزاد هذا الشك من قلقى الدائم حتى بت ألعن وجودى المعذب.

انعكســـت تلـــك الشـــكوك على كل شيء فى حياتى وقد شاءت الظـــروف أن تنطلق بداياتها من مقر عمل حنان الجديد،فرغم انهيارها الشديد عقب الصدمة المروعة الا انى لاحظت عليها تحولات غريبة،فقد بدأت تضحك كثيرا فيما يشبه البلاهة وهى السيدة العاقلة الوقور،كما راحـــت تهـــتم بزينـــتها اهتماما لم ألحظه من قبل،إذ استبدلت بملابسها المحتشـــمة ملابس أخرى تكاد تقترب من أن تكون فاضحة..وكثيرا ما كنت أفاجأ بامتناعها عن اعداد الطعام للبيت وقيامها بشراء طعام جاهز مـــن الخـــارج عن طريق التليفون.وكدت أنفجر يوما فى الضحك حين سمعتها تخاطب المتعهد بعد ذكر عنوان البيت قائلة:"شقة منصور بك عبد الرازق"،فكانت بذلك أول مخلوق يمنحنى الباكوية فى غيابى.ثم فوجئت بعد ذلك بلفافات ضخمة تصل بيتى بين الحين والآخر من محلات كبرى فتتســـلمها حـــنان وتمنح حاملها "بقشيشا"كبيرا وتفتحها بفرحة طاغية لـــتخرج منها ملابس خارجية وداخلية ترتديها وتظل تروح وتجيء بها أمـــامى كفتاة فى الخامسة عشر معبرة عن اعجابها الشديد بذوق وسيم بك الرفيع وحسن اختياره.تخاطبنى كما لو كنت صديقة لها تريد كيدها

متغافلة عن وجودى اللعين مرتين،الأولى كزوج والثانية كرجل.فى بداية الأمــر كنــت أشــفق عليها معتبرا أنها مازالت تعانى من آثار الصدمة وتوابعها التى فاقت تحملها،حتى أننى هيأت نفسى للتعامل معها كحالة،أو كمـــا لو كانت مختلة عقليا.ومع تصاعد حدة الخلل تغاضيت عن أشياء كثيرة كانت تصعقنى بين الحين والحين،لكنه كان لابد من الوقوف بحسم وقوة أمام ظاهرة وسيم بك حين صاحت متهللة:

-عاوز فلوس يامنصور؟

صحت فيها مستنكرا فى غضب:

-نعم؟..

-معى فلوس كثيرة وعندى ملابس شيك ومرتبى كبير وخير ربنا كثير

ظللت أتأملها فى مزيج من الحيرة والغضب المكتوم فواصلت:

-انتهى عهد الفقر ولنستمتع بحياتنا كما نريد

تمالكت نفسى وقلت لها بهدوء يخفى ثورتى:

-عليك بإعادة هدايا وسيم بك اليه.الآن.وفورا

وفى حضـــن حائط المبكى لم أعد أبكى على نفسى فحسب، وإنما رحت أبكى مدينتى الضائعة..بحثت عن سبب بعيد للبكاء ينسينى بكائى على مـــا آلـــت اليه حالى..انفصلت عن حنان وعن نفسى وغصت فى لجة

مدينــق فهي الأخرى على وشك الضياع مني..هي حنان أخرى أقف أمامها عاجزا وهي تضيع.

****

حارتــنا لاتبعد عن قصر الملك برأس التين أكثر من بضعة مئات من الأمــتار.سمعــت من أبي حكايات أسطورية عن روعة حارات بحرى في الخمسينيات.كانت عربات"البلدية"تغسلها بالماء كل صباح.كل الأزقة- مهمــا تواضــع شأنها- تخلو من القمامة الملقاة على الطريق.يذهب أبي ورفاقــه مــن الصــبيان سيرا على الأقدام في دقائق معدودة الى ساحة رخامية مستديرة بحديقة القصر صباح كل يوم جمعة ليستمعوا الى فرقة موســيقا الجــيش التي يرتدى أفرادها من العازفين ملابس ملونة جميلة ويقومــون بعــزف الأغاني والألحان الشهيرة لعبد الوهاب وأم كلثوم وغيرهما.بلدية المدينة والتي تعرف اليوم باسم"الحكم المحلي"لاتسمح أبدا بمخالفة قانون المباني بحيث تكون البيوت الواطئة في مواجهة البحر يليها البــيوت الأكثر ارتفاعا وهكذا،بحيث يستمتع كل سكان الاسكندرية تقريــبا بــرؤية شاطئها الجميل مهما بعد موقعهم عنه.الباعة الجائلون يتغنون عن بضائعهم بأصوات جميلة ذات ايقاعات لحنية تميز أحدهم عن الآخر.عدد السكان قليل فلا تعرف المركبات العامة الزحام،وان امتلأت العــربة فــإن الصغير يقوم للكبير والرجل يقوم للمرأة..ويقول أبي انه وأقرانه كانوا يتعلمون تلك السلوكيات في المدرسة قبل أن يتعلموها من

البيت،فالمدرس قدوة مهابة تفتحت من خلالها عقولهم على منابع الفكر وأجسادهم على حب الرياضة وأرواحهم على عشق الفنون:يعلمونهم كيف يحبون القراءة والرسم والموسيقا والمسرح .الأستاذ شنوانى المشرف على فريق الكشافة يصحب أبي بيده الى محطة الترام ويعطيه قرشين حتى يصل الى حمام الجامعة ليمثل مدرسته فى مسابقة سباحة المسافات القصيرة.الأستاذ الوليلى مدرس الرياضيات يقول لهم:

-اذا خطرت ببال أحدكم فكرة ايجابية جيدة فليسع الى تحقيقها على الفور دون تأجيل قبل أن تموت منه!

ويجتر أبي ماضيه السعيد وهو المدرس السابق:

"هناك وثيقة غير مرئية ولكنها موقعة من طرفين هما الوطن والمواطن.تلك هى وثيقة الانتماء.كنت كشاب أشعر بانتمائى لأسرتى ولحيى ثم لمدينتى ثم لوطنى ثم لقوميتى ثم الى الكون العظيم وخالقه الأعظم.التعليم مجانى.المدرسون يتفانون فى أداء رسالتهم.خريج المدارس المتوسطة والمعاهد والجامعات يجد عملا ويؤجر شقة بسهولة ليتزوج ويعيش حياة سوية.الأسعار فى مستوى الدخول.رب البيت يجد وقتا كافيا لتربية أبنائه إذ يعمل من اليوم فترة واحدة فيجد وقتا آخر للاستمتاع بمشاهدة أفلام"الأبيض والأسود"الراقية الشكل والمضمون،أو للاستماع الى قمم الطرب العربي الذين جعلوا الصبية قادرين على ترديد قصائدهم بالعربية الفصحى.

كـــان مفهـــوم الدين بسيطا جميلا انسانيا راقيا،إذ لم تكن الحضارة الـــبدوية الوافـــدة بغبائها وتخلفها قد اقتربت منه بعد.كل مايتعلق بعالم الملك فهو نسبي قابل للتغير أو الزوال،وكل ما يتعلق بعالم الملكوت فهو مطلـــق لايجـــوز خلطه بما هو نسبي.ذلك الخلط الذى أدى الى ظهور الـــبلطجة الدينية،والذى أدى -فيما بعد-الى اشتعال تناقضات وهمية وصـــراعات متأججة بين ثنائيات متعددة وصل الأمر الى أن يكفر أحد طرفـــيها الطـــرف الآخر كالأصالة أم المعاصرة،والأصولية أم الليبرالية، والديـــن أم الدولة،والفرعونـــية أم الـــبحر أوسطية،والمصـــرية أم العربية،وغيرها من ثنائيات أقام أصحابها الصراع بينها على التفاضل لا على الانتقاء والتكامل.

حين تقع حادثة اختلاس بسيطة فإن المجتمع يهتز لها بعنف،ويتعجب لحدوثهـــا الناس .كان القطاع العام -بحسناته وسيئاته-مصدر طمأنينة للفردوالمجـــتمع ومصبا عظيما لروافد الانتماء المتعددة ومدرسة كبرى لتخريج الخبراء والعلماء من أبناء الطبقة المتوسطة.صحيح أن الرأسمالية كانـــت محاصرة ولكنى لو كنت أعلم ماذا ستفعل بنا لفضلت أن تبقى تحت الحصار الى الأبد".

هأنـــا أجتر الماضى مع أبي -رغم صفريق الجديدة-فكل الذين كانوا يعـــزفون فى الساحة الرخامية قد ماتوا ومات معهم من كانوا يأمرونهم بالعـــزف و كذلك الاستاذ شنوان و الاستاذ الوليلى و مدير البلدية ،

ولذا شعرت أنه من الواجب على أن أحتفل بالضياع والموت وقد صارا أكثر جدارة بذلك من الحياة.

تركت نفسي هائما فى شوارع المدينة..أدهشنى أنها قد خلت من القمامة منذ تولت شركة فرنسية تنظيفها وتنظيفنا.كنت أنظر الى مدينتى بعين سائح محب..المركبات العامة مكتظة بالركاب حتى السلم.الباعة الجائلون ينادون على بضائعهم باستخدام مكبرات صوت عالية جدا.قادتنى قدماى بالفطرة -انسياقا وراء رغبة طاغية مفاجئة فى السكر- الى محل أنيق يقدم المشروبات الروحية ، وتنساب فى جنباته موسيقا خفيفة هادئة كنت فى أشد الحاجة الى سماعها.لو لم أغب عن الوعى ولو لساعات محدودة أفرغ فيها محتويات عقلى المنضغطة المتناقضة المتزاحمة لتتطاير مع الكحول ودخان السجائر،فقد أصاب بنزيف فى المخ وأرقد فى البيت عاجزا ذليلا يضيق بمرضى أقرب الأقربين.مع الكأس الأولى تبخر تقرير الجهاز المركزى للتعبئة والاحصاء الذى يشير الى ارتفاع نسبة العنوسة إذ بلغت تسعة ملايين شاب وفتاة تجاوزوا الخامسة والثلاثين بلا زواج،وتبخر معه قلقى الشديد تجاه إيمان التى أكاد أجزم -عن بعد حرصى على الاهتمام بشئونها- أنها تعيش قصة حب تخفيها عنى،فقد تحولت الى انسانة حالمة محلقة تعيش فى السحاب..مع الكأس الثانية تبخرت قراءاتى الأخيرة

عن سرطان الفساد فى بلادى مــن عينـة:"ضـابط شـرطة يختلـس السلاح الأميرى ويبيعه علنـا فى ميـدان روكسـى"و"رئيـس قسـم جراحة القلب بمستشفى الحسـين الجـامعى يجـرى عمليـات وهميـة للفقراء لبيع دعامات القلب للأغنيـاء"و"أحدهـم يغسـل أموالـه فى سويسره بعد أن اشترى نصف شارع من العمـارات هنـاك"و"أكـثر من نصف قيادات البنوك فى السجن أو فى طريقـهم اليـه"و"رئيـس لجنة هامة بمجلس الشعب يدان فى قضايا فسـاد ورشـوة".

مع الكأس الثالثة،وفى التفاتة تلقائيـة مـنى تحـت سـالم وإيلـين يجلسان معا فى ركن بعيد.ياه!!.مازال يحبها ومازالت تحبـه منـذ أيـام الجامعة رغم أن كلا منهما قد تزوج وأنجـب..ومـع الكحـول طـار وتبخر الخطاب الدينى الرجعى وطـار معـه نقيضـه اللـبرالى غـير المسـتند الى دعامـات ديموقراطيـة،وصحبـهما التيـار الثورى"الهجاص" الذى لايملك الا الكلمـات الرنانـة الـتى تطيـش فى الهواء بغير أثر،أما الذى بقى عندى فى هـذه اللحظـة فـهو حـبى القديم لسالم،لا لأنه كان صديقا مقربا فحسـب،ولكـن لأنـه كـان يكره أدهم جبريل ويصفه دائما بالأنانيـة والانتهازيـة.

كنت مطمئنا وأنا اطلـب الكـأس الرابعـة بثقـة مواطـن غـير مهدود الدخل،فقد كانت حـافظتى منتفخـة علـى غـير العـادة،إذ منحت منذ ساعات مكافأة استثنائية تعادل نصف راتـب شـهر.

وهو يودع إيلين تخفى فاندفع نحوى متـــهللا بفرحـــة بريئـــة وتعانقنـــا وجلس بجوارى وشرب معى وانطلقنـــا فى حديـــث الذكريـــات.قـــال انه لايتصور معنى للحياة فى غياب إيلـــين.أمعنـــت فى أســـئلة تخنفـــر للسكران فأجاب بنبرات صادقـــة:

-اطمئن.لم ولن يحدث بيننا شيئا مما يدور بذهنـــك.لقـــد اضطرنـــا العجز عن الارتباط الشرعى الى السمو بحبنا حتى اعتدنـــا ذلـــك.

أخشى ماكنت أخشاه أن يذكـــرنى بـــأدهم جـــبريل فـــأفيق مـــن جديد وأعود الى صفر الضياع والمـــوت ويصبـــح مـــا أنفقتـــه مـــن المكافأة مالا ضائعا فى غير موضعه.رغـــم ذلـــك فقـــد ســـألته بغبـــاء ودون وعـــى:

-هل تلتقى بأدهم جـــبريل؟

أجابنى فى اقتضاب أسعدنى:

-لم أره منذ التخرج ولست أريد ان أراه

قلت له كطفل على وشك البكاء:

-لقد سرقنى ياسالم

-لاتحزن ياصديقى فكلنا مسروقين

تناسيت عد الكؤوس فما جدواه فى وحدتى مع اللاشىء وقد انصرف سالم الى شأنه وتركنى أواصل عملية التفريغ،فما أروع"تكبير الدماغ" كأسلوب حياة انتهجه بعض المثقفين ممن استأجروا أنفسهم للسلطة سعيا

وراء مغانم خاصة،ومنهم من امتنع عن الفعل الثقافى والغمس –من باب اليأس–فى هموم حياته الخاصة تاركا الملك للمالك،ولم يبق فى النهاية الا القلة القليلة المناضلة التى تحفر فى الصخر فتقوم بالفعل لذاته لأنها لم تعد تملـــك غـــير ذلك،وسلام على بوذا وكونفوشيوس وسقراط وعيسى ومحمد،ولاجـــدوى مـــن البكاء على مدينتك فأنت أولى بالبكاء على حصـــنك الحصين داخل جدران بيتك الأربعة،إذ تحولت الهدايا العينية المعلنة الى هدايا خفية ثمينة،فمرة ألحظ بإصبعها خاتما ذهبيا ومرة سلسلة فضية ومرة "بروش"للصدر ومرة عقد لاأعرف مادته فسألتها:

–من أين لك بهذه الأشياء؟

–من راتبى ومكافآتى

بل إن الرجل يمهد الطريق لعضوه الذى يعرف طريقه جيدا الى أنصاف الحرائر..

–أنت تكذبين

قالت بثقة شديدة وبحرقة أشد:

–والله ما رأيت فى حياتى أكذب منك

لم أشـــعر بنفسى حين صفعتها على وجهها لأول مرة.كان ألمى شديدا وكـــان رد فعلها سلبيا أذهلتنى غرابته.واقع الأمر أننى لم أصفعها وإنما تخيلـــت ذلـــك بقوة تقترب فى شدتها من الفعل ذاته،حتى أستطيع أن أحـــتفظ بـــتوازنى الداخـــلى.المـــرأة فقـــدت عقلها بعد موت ابنها

ولاشك.نسيت طهارة الحب وحقوق الزوجية واحترام الذات والشعور بالكرامة وخضعت فجأة وبسرعة البرق لإغراء رجل عابث يملك الثروة والسلطة وتعميه شهواته عن حرمة الاعتداء على حرمات الآخرين.ان منبتها طيب فكيف تفعل ذلك ولماذا تحاسبها ولاتحاسب نفسك حين كنت تنام على فراش ماجده بلا ثروة أو سلطة؟..هاهى زوجتك ياحصيف تخطو خطوات حثيثة نحو السقوط فى بئر الرذيلة وأنت جالس تتفرج وتفكر ولاتفعل شيئا.

****

جلست وجها لوجه أمام رئيس الجمهورية وشكوت له حالى فربت على كتفى ووعدنى بحل مشاكلى ومشاكل أسرتى ومدينتى وطبقتى ووطنى ثم صافحنى بمودة قائلا:

-مع السلامه يامنصور

خرجت من عنده الى مطار القاهرة ثم الى مطار دمشق حيث تجولت فى سوق الحميدية بصحبة صديقى المرحوم الدكتور"موعد"واشترينا الأقماع المسكرة المطعمة بالفستق والتى يسمونها هناك"بتاع الوالى".احتفظت بواحد وعدت به الى مصر لأدفعه فى مؤخرة وسيم بك الجبان،ولم تستغرق الرحلة من قصر الرئاسة بالقاهرة الى سوق الحميدية ثم العودة أكثر من ثوان معدودة،رغم أنه لم يكن بحوزتى براق.

****

فوجئـــت بمحمد العالم يدخل مكتبى.حين مددت يدى لأصافحه جذبنى نحـــوه بشـــدة واحتضننى بحرارة أحسست فيها بشىء من المبالغة.أناقته تفوق الوصف وعطره الخلاب يغمرنى وهو يقبلنى فى محبة مدهشة.لم أطل من فترة الاستغراب وتركت العنان لمشاعرى فبادلته المحبة بابتسامة من القلـــب وضـــاعفت من ترحيبى به.الغريب فى الأمر أن موقفى الرافض لرشـــوته لم يحضرنى فى تلك اللحظة على الاطلاق،ولو كان قد حضرنى فهذا أمر طبيعى لأن العالم يمثل نقطة كشف وتحول هامة فى حياتى.العالم هـــو الحقيقة الناصعة التى كشفت لى عن طبيعتى الحقيقية التى تميل الى الأمانـــة وتـــنحاز اليها.صحيح أننى لم أكن أمينا فى مرات سابقة حين خضت تجربة الخيانة المهنى مع عميل آخر ولمرة واحدة فى حياتى،والخيانة لزوجتى مع ماجده لمرات عديدة وكان من الممكن أن أستمرىء السباحة فى الوحل،لكن الله عصمنى فلم أقدر على الاستمرار..ومن العصمة ألا تقدر.

قدم له الساعى القهوة وسألته عن مطلبه ففاجأنى بقوله:

-أنا لم أحضر اليوم بخصوص العمل

انتابتنى الدهشة ولم أعلق فقال:

-لماذا لاتسألنى عن سبب الزيارة؟

واصلت صمتى غارقا فى دهشتى..

-لقد جئت لزيارتك أنت خصيصا

-أهلا بك ومرحبا.هذا شرف كبير لى

-الشرف لى أنا يامنصور.اننى بحاجة اليك

..مـــا الذى يقوله هذا الرجل الشبيه وجهه بوجه السيد المسيح؟..وما الـــذى يجعله يقول ذلك مالم يكن يرى فى شيئا غير عادى؟..ربما كنت كمـــا يعـــتقد لولا شدة جلدى لذاتى وتهوينى من شأن نفسى.ان الذى أعـــرفه عن رجال الأعمال أنهم لايصرفون قرشا فى غير محله ولايقولون كـــلمة فى غـــير موضـــعها،وأنا لست خبيرا فى شئون تجارته أو تجارة غـــيره.كـــل مـــا أعرفه هو الفلسفة.صحيح اننى أعشق فنون الأدب والموسيقا والمسرح،لكن انغماسى فى قضية الخلل أصاب عشقى بالفتور وقضى على تألقه وتوهجه..لقد أحببت هذا الرجل بسرعة البرق!.

-وأنا تحت أمرك

-هل تقبل أن تعمل معى؟

-يسعدنى ذلك بلا شك،لكنك تعلم أننى موظف هنا

-ثق أنك لن تندم لو تركت وظيفتك

-هذا قرار صعب

-سأسهله عليك

-كيف؟

-خـذ اجازة لمدة عام بدون أجر وإن أعجبك العمل معي فعليك بالاستقالة

-الاستقالة؟!!

-أنا واثق أن هذا ماستفعله

-ألا تتركني أفكر قليلا؟

-لاتفكر.العمل سيعجبك وأنت أهل له،والتقدير المادى لن يخطر ببالك

حـتى حلم تغيير حياتي الى الأفضل يتحقق بمفاجأة قدرية لايد لى فيها ودون فعـل من جانبي.ربما قرر الحظ أن يبتسم لى وربما كان هذا قدرا مكتوبا وربما كان هو الرزق الذى يعرف صاحبه ويطارده كالموت تماما حين يأتى وقته..كل همى فى سنواتى المنصرمة كان منحصرا فى هذا الحلم الضـائع:حياة أفضل.كل سخطى على الحكام والمسئولين كان نابعا من عجـزى عـن تحقـيق الحلم سواء كانت الأسباب من داخلى أم من خارجي..والآن تأتى الى الحياة الأفضل طائعة مختارة على طبق من فضة من حيث لا أدرى ولا أحتسب!.

تحـرقنى القـاتل الى رسـالة جديـدة عـن الجماعة أصابه الجمود والوهن.حياتي ستكون سهلة ميسرة كريمة تعرف الاكتفاء والرضا وتخلو

من المعاناة والألم والشعور بالدونية فلماذا البحث عن المتاعب؟؟..ويقول مصطفى الزوربا بعد أن راجت أحوال المقهى وتذوق طعم الشبع:

-تولع الحكومه والحراميه والعرب والأمريكان بجاز وسخ..لاشأن لى بغيرى

ويقول طاهر بك:

-فلسف المسائل بحيث تستريح

هكـــذا وبضـــربة قدرية-كمولدى تماما- سأصبح قادرا بغير حاجة الى فلسفة تبرر العجز أو تحث على مقاومته.لاأسخط على المحظوظين بحق أو بغـــير حـــق،ولا أفكـــر فى فلسطين حيث يقتلع جنود اسرائيل أشجار الزيتون الفلسطينية من جذورها بالجرافات و يقطعون فروعها بالمناشير الكهربائـــية ، أو فى العـــراق حيث يقتل جنود أمريكا المصلين بالقنابل داخل المساجد بالفلوجة ،وقال مصطفى:

-ابعد عن المقارنة تسلم من ظلمةالقلب

وقـــال الرسول الأمى: "أنظروا الى من أسفل منكم ولا تنظروا الى من فوقكم فهذا أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم".

انـــتقل من بحرى الى سموحه.شقة تمليك.أدفع خمسين ألفا واشترك فى عضوية النادى الكبير.مالك أنت بالاسكندرية حتى تبكى على تدهورها وانحدارهـــا.إبك على مؤمن لو كان من الضرورى أن تبكى.لماذا يارب حرمتنى منه هكذا؟..مالك أنت بممثلك الحرامى فى مجلس الشعب وما

شــأنك بــالذى خفــض ســعر الجنــيه سواء كان رئيس الوزراء أو غيره؟..وإذا كان عبد الحميد شتا قد ألقى بنفسه فى النيل لأنه"غير لائق اجتماعيا"فما فعله يعد حماقة وكفرا لأنه استسلم لشيطان اليأس بسرعة متخليا عن إيمانه بشرف النضال لانتزاع حقه.

وإذا أمســكوا بالشــاب الذى يريد أن يركن عربته فى الشارع الذى يســكن بــه رئيس مجلس نواب الشعب وألقوا به فى مستشفى المجانين فــتلك مســئوليته لأن الله يقــول فى كتابه العزيز:"نحن قسمنا بينهم معيشــتهم فى الحــياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا"،ومشكلته انه لم يلتفت الى تلك الآية الكريمة.

مالك أنت برجل تافه يسمونه رجل أعمال يقترض الملايين من البنوك لينفقها على فروج النساء ثم يقوم بمذبحة جماعية قبل أن ينتحر؟..ألا تراه أكثر رجولة من صدام حسين الذى قتل أمة بأسرها ثم استسلم فى خسة وحقارة لأنه لم يجرؤ على اطلاق الرصاص على نفسه؟..

ثم هــذا المهــندس الذى يلوث الحوائط والجدران بعبارات تعبر عن رفضــه لتوريــث الحكــم فى مصر..هل طالبه أحد بإثبات رأيه على الحوائط؟..ثم انه لايحق له أن يفرض رأيه على الآخرين بهذه الكيفية فربما كان هؤلاء الآخرون يؤيدون فكرة التوريث،وعلى سبيل المثال فقد غير الســوريون دستورهم خصيصا لكى يتولى بشار الأسد وراثة حكم أبيه

لشــدة إيمانهم بالتوريث،ولماذا لم يعترض هذا المهندس المغوار على تولى بوش الإبن حكم أمريكا خلفا لأبيه..لماذا يحرم هذا ويحلل ذاك؟.

وإذا كان بعض الناس لايصمدون أمام التعذيب الجهنمى على أيدى رجال المباحث فى أقسام الشرطة والمعتقلات فيضطرون الى الاعتراف–كذبا–بجرائم لم يرتكبوها فيزجون فى السجون ظلما وعدوانا،فهذا يرجع الى ضــعفهم وتخاذلهم وعجزهم.لو كانوا قد صمدوا للتعذيب وأصروا على براءتهم ولم يعترفوا على أنفسهم بالباطل لما كان هذا مصيرهم.

وهــؤلاء الذيــن لايشبعون من الرشاوى والعمولات فيستوردون الأسمـــدة المســـرطنة ويجدون المساندة والدعم من بعض كبار الأربعين إيــاهم..ألا يجــوز انهم يعملون بهمة وحماس للقضاء على مشكلة مصر الأزلــية التى يــرددها رئيس الجمهورية دائما فى معظم خطاباته:مشكلة زيادة السكان؟!..

فليفعلوا مايشاءون وحسابهم عند الله فى الآخرة ومن أخطأ فله أجر ومــن أصاب فله أجران.من الذى جعل منك نبيا يحاول اصلاح الخلل الــذى حــدث فى الــناس والشــارع والمديــنة والوطــن والأمــة والكون؟.يكفيك أن تصلح الخلل الكائن فى نفسك ولو نجحت فى ذلك فلتمــت راضيا مطمئنا...أشترى عربة أتفسح بها مع حنان وإيمان فى أقاليم مصر الجميلة ويموت وسيم بك بالسكتة القلبية واللعنة على أدهم جــبريل.نــزور أسوان فى الشتاء وشرم الشيخ فى الربيع والغردقة فى

الخريف.ولماذا لانسافر الى اوروبا؟ أنا أحب أسبانيا لأنها تجمع بين سحر الشـــرق وجمال الغرب وآه يا أندلس!..انني بحاجة ماسة الى التغيير من الداخل فأنا معجون برحيق الشرق العاطفى الفنان الذى تنبع نظرته من الــذات والـــذى لايبحث يقينه عن برهان.أنا حدسى تركيبى متوحد تحـــركنى بصيرتى،ومعظم فكرى باطن محله القلب وعشقى للفن يطغى عـــلى تطلعى للعلم.فلماذا لا أجرب النظرة التى تصب على الموضوع والتشكك الذى لايستريح الابالبرهان.لماذلاأكون تجريبيا تحليليا منفصلا أثــق فى بصرى قبل بصيرتى وأجرب الفكر الظاهر الذى محله الجوارح وأتطلـــع الى العلم والمعرفة؟..حين أجمع بين النقيضين ستزول عنى عقدة الكراهـــية المتــبادلة بينى وبين الغرب الذى استمد حضارته من ينابيع الفلســـفة مـــن اليونان والدين من فلسطين والعلم من مصر..ليس هذا كلامى وانما هو كلام شاهد من أهلها يدعى"وايتهيد"..آه يامنصور يابن عبد الرازق..لو خلق الله للمنافقين أذنابا لما وجد المؤمنون أرضا يمشون عليها،فهاهو ابن هانىء الأندلسى يمتدح الخليفة المعز لدين الله الفاطمى بقوله:

ماشئت لاماشاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار
وكأنما أنت النبى محمد وكأنما انصارك الأنصار

وهاهو الخليفة الأموى يزيد بن عبد الملك يأتى بأربعين شيخا-من عينة الأربعـــين إيـــاهم- ليشهدوا له بأن ليس على الخلفاء من حساب فى

الآخـــرة ولاعـــذاب..وأخيرا يضعون أحدهم على مقعد مدير جامعة الاســـكندرية العريقة فيبدأ ممارسة مهام وظيفته بترشيح رئيس الوزراء للحصـــول على أكبر جائزة تقديرية فى مصر ،وذلك بعد أن ترسخ فى ضمير سيادته النقى أن هذا الرجل هو أبدع المبدعين فى مصر،وقد أبدى حضرته دهشة وتعجبا عندما فوجىء بزمرة من كتاب الشعب الشرفاء يهاجمونـــه فى الجرائد لأنه لم يكن ديموقراطيا بما فيه الكفاية إذ لم يعرض على الشعب حيثيات ترشيحه لرئيس الوزراء التى تتمثل فى رفع الأسعار الـــذى صاحبه رفع درجة الاكتئاب بين أفراد الشعب حتى صار معظم الـــناس يكلمون أنفسهم فى الطريق،وفى عجز الحكومة عن توفير سيولة سنوية لخدمة الدين العام الذى تجاوزت قيمته ميزانية الدولة،وفى التبشير ببـــيع بعض أصول الدولة مقابل الدين بغض النظر عما يترتب عليه من تهديد لمصير أصحاب المعاشات،وفى ارتفاع نسبة البطالة التى أسفرت عن خلق فئة جديدة من العاطلين المحرومين من الأمل فى الحياة والناقمين على الدنيا ومن فيها وعن ارتفاع نسبة الانحراف والتطرف وزيادة معدلات الجريمة،وفى تراجع الاستثمار فى مصر،وفى ابتكار المزيد من قوانين الجباية التى تنهب ماتبقى من موارد المواطن مقتول الدخل،وفى النجاح الساحق فى زرع الكنـــتالوب الماسخ والفراولة عديمة الطعم واستغلال العائد فى شـــراء القمح من سوريه الفقيرة التى تؤكد الخريطة على أن نهر النيل لايجرى فى أراضيها،وأخيرا فى تزايد حوادث الانتحار وتعذيب المواطنين

فى أقسام الشرطة فى عهده الرائع..غير أن دهشة مدير الجامعة وتعجبه كان مرجعهما القوى هو اكتشاف أن هناك شيئا اسمه الشعب.

لــو لم يتخذ مصطفى الزوربه قراره الخطير بالامتناع عن الحشيش لما حــدوث حذوه فانت لم تبادر قبله باتخاذ نفس القرار.أستطيع اليوم أن أشــترى أوقــية كاملــة كلما أردت،ولكنى لن أريد،فلماذا أبحث عن الغيــبوبة فى حاضر ملؤه البهجة والسعادة.سنتناول العشاء كل ليلة فى أفخــم مطاعم وفنادق الاسكندرية.أخصص غرفة مكتب لى فى البيت تحيط أرفف الكتب واسطوانات الكلاسيكيات بجدرانها الأربعة فى ديكور جمــيل.أجهــزة صــوتية من أحدث الطرز.تكييف مركزى.بكل غرفة تلفزيون كبير بشاشة مسطحة.ولماذا شقة تمليك؟لم لاتكون فيلا فى أرقى احياء المدينة؟ولكن مالى أشعر بالتخمة والملل ورتابة الحياة بعد كل هذا العــز الذى هبط على من السماء؟لابأس اذن من التجديد.هاهى قصة حــب جديدة رائعة تحوم فى أفق الخيال فامرأتى رغم عيوبها سيدة عاقلة وأنــا أصــبو الآن الى امــرأة مجنونة تقتلع من روحى جذور الحكمة والفلسفة،و من عقلى جليد الفكر والمعرفة.أريد امرأة ترتعش أنفاسى فى انفاســها وحــين أحتويها بين ذراعى لاينطق أحدنا حرفا واحدا حيث تضيق الكلمات عن التعبير عن أعلى درجات النشوة.أريد أن أتخلى عن وقــارى المضــحك فقد صرت بعجزى غير جدير به وصار غير جدير بى.إختصــر الزمان واتبع الشرع وتزوجها فى الحلال يامنصور،ولتجر

دمـــاء جديـــدة فى عروقك وتذوق لذة الدهشة والانبهار واللعنة على الماضـــى بكـــل مـــا فـــيه ومـــن فـــيه..أرتدى الملابس الأنيقة على أحـــدث"موضـــه".أغير كل يوم بدلتين.واحدة فى الصباح والأخرى فى المساء.وأنا على هذه الحال سيأتينى رجال محترمون يتبارون فى طلب يد ايمـــان رغم أنف تقرير الجهاز المركزى للتعبئة والاحصاء.ستكون لدى حرية الاختيار ولإيمان حرية القبول والرفض.هذه هى الديموقراطية التى لايعرفها الحكام العرب ولا حكام العالم الثالث.

هأنا أرى الدنيا تبسم فى وجهى ترى عيناى الجمال فى كل شىء وفى كـــل انسان مهما بلغت بشاعة قبحه.هاهو عشقى للجمال يتفجر من مكمـــنه القديم فى صدرى فأغترف من فيضه كيفما أشاء.الطبيعة كلها ملكى والنجوم والقمر والبحار والأنهار والنساء والطيور والفن والجبال والسماء والأرض..والله لن يغضب منى أبدا وإلا لما قال الشاعر:

خلقت الجمال لنا فتنة وقلت عبادى لا فاتقون
وأنت جميل تحب الجمال فكيف عبادك لايعشقون

وســـواء أكـــان وجودى فكرة حقيقية لأنها نافعة ومفيدة،أو كان فكرة نافعة ومفيدة لأنها حقيقية،أو كان شيئا سخيفا لافائدة منه ولا منفعة،أو كان شيئا لايضر ولاينفع،وحتى لو كان وهما أو حلما جمع بين أبى وأمى فى ليل أو نهار،فهذا الأمر لم يعد يعنينى فى شىء أبدا.

****

كنــت فى إجــازة طلبتها خصيصا لأختلى بكتاب مترجم عنوانه"العالم الثالث وتحديات البقاء".فى الظهيرة فوجئت بها تفتح باب الشقة وتندفع الى صـــدرى باكــية منهارة فى مشهد سينمائى مصرى متكرر..راحت تقــبل يدى وجبينى وشفتى فى عصبية وانكسار يغمرها ندم عظيم وهى تردد:

-سامحنى يامنصور.سامحنى يامنصور

قمــت بدورى المرسوم فى المشهد،إذ تجمدت بكل ما أملك من صفرية مستنجدا بالشىء الآخر،*فأخرجت الطبنجة من جيبى وأطلقت وابلا من الرصـــاص على وسيم بك الجبان الذى أغوى زوجتى فقتلته كما قتلت ادهـــم جبريل من قبل*.المشكلة الكبرى أنه لم يكن متواجدا،أما المشكلة الأكـــبر فهى رغبتى الجنونية فى معرفة ان كانت العلاقة بينهما قد بلغت حدها الأقصى أم أن ضميرها قد أفاق قبل وقوع المحظور.سألتها بحروف مرتعشة:

-ماذا حدث؟

-والله العظيم لم يحدث شىء

-فلماذا هذا البكاء؟

-كنت فى غيبوبة

...وأنت أيضا فى غيبوبة!

-قولى لى بصراحة ماذا فعل بك هذا الرجل

-لم يفعل شيئا.أنا التى نزلت الى أسفل سافلين

...وأنت أيضا نزلت!

-اهدئى واحكى لى ماذا حدث

-هل تثق بى أم لا؟

-كيف لاأثق بحبيبتى وأم ابنى وشريكتى فى الحياة؟!

راحت تقبلنى فى هستيرية وهى تردد:

-الحمد لله..الحمد لله

-لاتخافى ياحنان.أنا لا اتصور مهما حدث منك أن تتنكرى لأصلك الطيب.

خبرتى فى عقارات الغيبوبة والبهجة أسفرت عن نجاحى فى تهدئتها.اعترفت لى بأنه نجح فى إقناعها بزيارته فى فيلته بالشاطىء الشمالى بعد أن ارتضت بقبول مبرراته.كانت تروى وقائع تجربتها بصدق وفى استرسال لاينقطع.كنت أشعر أنها تغتسل من خارجها وداخلها وهى تخلط-بفعل العقاقيرالمركبة-بين الماضى والحاضر والمستقبل بنبرات متهدجة متقطعة وكأنها منومة مغناطيسيا،سابحة فى بحار اللاوعى البعيد:

"طوال الطريق الى الشاطىء الشمالى كان أبى يصاحبنى.ذلك المغامر المستجدد الملىء بالحيوية والذى عشت معه عصره الذهبى وعرفت على يديه متعة التنعم بالحياة،ثم عشت معه عصر إفلاس تجارته فعرفت الفقر

والحاجة.لست أدرى من أين جاء ولماذا أصر على ملازمتى طول الطريق حتى قطعت أكثر من ثلثيه.لم ينصحنى أو يعظنى ولم يذكرنى بالقرآن ولم يحذرنى من الخيانة وكأنه كان واثقا أننى لن أكمل ثلث الطريق لأعود الى نفسى واليك وإلى إيمان.انه نقيضك يامنصور فأنت تفتقد حب المغامرة والتغـــيير.سلبى ميت.لاتغازلنى.لاتداعبنى.كان أبى يعاملنى كما لو كنت عشيقته المدللة.كان قادرا على أن يفعل أى شيء لإسعادى وإسعاد من حوـــله.لم يعـــرف الشعور بالعجز لحظة واحدة فى حياته..النقيض منك تمامـــا.حتى بعد أن أفلس ظل يقتحم العديد من مجالات العمل واثقا أنه ســـيقف على قدميه من جديد لكنه مات.أنت متقلب الأطوار ساعة فى المســـجد وســـاعة فى "غرزة"وساعة فى خمارة وحصيلة ذلك كله صفر كبير.أبى كان يستمد من الدين قوة روحية هائلة تعينه على اقتحام الحياة بجـــرأة وجســـارة دون أن يعـــبأ بالنـــتائج.أنـــت منشغل بكل ماهو ســـاكن.الكتـــب.الانترنـــت.شئون الوطن والعالم..روحك خاوية.لماذا لاتـــتحدى الفقر والحاجة والعجز وتفعل شيئا؟.يخيل اليك أنك ازددت اقترابا منى بعد موت مؤمن ولكن الحقيقة أنك ازددت ابتعادا دون أن تدرى.

كلما اقترب الطريق من نهايته أدركت أننى ماضية فى خيانة أبى وأننى مخيبة آماله فى.لقد وعدنى أن يزوجنى من مجنون مثله-هكذا كان يطلق عـــلى نفسه فى سرور-لكنى تزوجتك فتجمدت فى صقيع عقلك الذى

يمتص الفكر ويحلله ولكن لايفرزه.وحين أفقت وتراجعت ورجعت قبل أن أكمـــل الطريق ودعنى أبى وكانت سعادته بى فوق الوصف،وعدت الــيك يامنصـــور فافعل شيئا يجعلنى أشعر بالحياة فى كنفك.ان عجزك الجسدى الطارىء لايؤرقنى أبدا فأنا واثقة من زواله ولو بعد حين ،أما عجزك الآخر فهو الذى يعذبنى..تخلص منه يا منصور وافعل شيئا.."

..انتهى اعترافها يادانتى!

ثم عاودنى مؤمن مرة أخرى ليواصل تهجمه الاستفزازى على قائلا :

- *لقد عجزت فى كل شئ بحياتك و لم تفلح الا فى شئ واحد.*
- *ما هو ؟*
- *قتلى*
- *يابنى هذا قضاء الله*
- *لا تتماحك فى الاله فأنت لا تعرفه الا حين تريد.*

****

على غير توقع منى جاءتنى الرسالة الآتية:

[معـــذرة لتأخرنا فى الاتصال بك.لقد حدث سوء فهم غير مقصود بخصوص لقاء اللؤلؤة الزرقاء.الرجل الذى كان قادما اليك فى تلك الليلة دهمته عربة طائشة يقودها شاب مخمور بصحبته مجموعة صاخبة من الفتية والفتيات.قال بعضـــنا انه قتل عن قصد وأن الشباب المخمورين مجرد تمثيلية متقنة لاستبعاد أى شـــبهة فى القتل العمد.إن هناك من يتقصى أسرارنا رغم حرصنا الشديد عـــلى الســـرية حمايـــة لأرواح أتباعنا ومريدينا.عموما هذا أمر متوقع سلفا ومعمول حسابه.المهم المستفيدون من الوضع الراهن والذين يتمنون أن يبقى الحـــال على ماهو عليه وإلا كانت نهايتهم.سوف يجد جديد فى حياتك وربما تنقلب رأسا على عقب.وطد علاقتك به وتعاون معه قدر استطاعتك فهو منا ونحـــن مـــنه،وإياك أن تظن بنا الفقـــر فنحن أغنياء بالكثير من الأفـــراد والقـــيم والأفكـــار.نـــريد أن نعمل سلمـــيا لإلغاء قانون الطوارىء ونظام انـــتخاب رئيس الجمهورية عن طريق الاستفتـــاء على فرد واحد،كما أننـــا نعمـــل سلميا على تجديد دماء الحكـــومة والأحزاب وعلى وجود أكثر من نائـــب للرئـــيس.هـــناك مئات من الكتـــــاب والمفكرين المخلصين يتبنون آراءنـــــا ومـــبادءنا وينشـــرونها فى الجـــرائد ويتحدثون عنها فى المنتديات المخـــتلفة.كمـــــا أنـــنا نراسل كبار المسئولين مثلمـــا نراسلك فنبعث لهم بأمانيـــنـــا ومشاريعنا لإصلاح أحوال البلاد مكتوبة بوضوح لايحتمل سوء

الفهم،وجميع رسائلنا موقعة كالمعتاد باسم جماعتنا،ونحن فى النهاية واثقين من توفيق الله ورعايته..العبرة بموقفك منا بعد ظهور الرجل الجديد والوضع الجديد،فقد تنصرف عنا الى شأنك الخاص بعد أن تعاطفت معنا بفكرك وقلبك،وهذا مالا نتوقعه منك على الأرجح فأنت-بكل أخطائك وسلبياتك-السان نبيل.]

قرأت الرسالة بنهم شديد.أعدت قراءتها عدة مرات يغمرنى مزيج متناقض من الفرحة والدهشة والقلق والحماس والبرود والشك والتصديق.

الجماعة تصفنى بالنبل من بعد جبن،ومحمد العالم يرى فى شيئا غير عادى ويقول انه يشرف بى،ومصطفى الزوربا يقول ان قلبى بحاجة الى عمرة صيانة شاملة،أما أنا فلا أعرف مصيرى مع هذا الوجه الجديد الذى يطل على حياتى بملامحه الهادئة العذبة الشاردة المشعة بهالة غامضة من نور.تقول الرسالة فى وضوح:[هو منا ونحن منه]،فلابد أنه مبعوثهم الجديد الى بغير جدال.

-ياسيد منصور أنت نموذج مثالى لمن يطلق عليهم"ظالمى أنفسهم".

ما من كلمة يقولها هذا الرجل إلا وتشد انتباهى وتستثير يقظتى التامة.

-كيف؟

-انك تدعى الجهل وأنت تعرف

-أنا لاأعرف ماذا تقصد تماما

-لقد أثبت نجاحا فائقا فى عملك التجارى رغم اختلاف تخصصك،وأثبت عفـــة رائعة فى نفسك رغم احتياجك،ووعيا شديدا بهموم وطنك رغم أنك لاتعمل بالسياسة.

..تساقطت كلماته على روحى كقطرات من نور ذهبى تغسل أدران القلب وتضىء النفس بإشراقات الأمل.

-ولكن كيف توصلت الى هذا كله؟

لم يجب عن سؤالى وإنما واصل حديثه

-لاينقصـــك شيء يدعوك الى الاعتزاز بنفسك والكف عن إنزالها دون قدرها

-وكيف عرفت هذا أيضا؟

-انى قارىء أعين وقلوب

-نعم؟!

..دخلـــنا فى الخرافات والهواجس ولاعجب فنحن شرق!..لكن هذا الفكر الحدســـى يتـــناقض مـــع فكـــر الجماعة المتطور كما فهمته واستوعبته من رسائلهم،فضلا عن تناقضه مع منطق رجال الأعمال وطبيعة شخوصهم.

-أنت انسان شديد الذكاء والحساسية فلابد أن تفهم ماذا أعنى

-كلامك هذا لايستوعبه الا متصوف وأنا أبعد ما أكون عن ذلك

—بـل ان هـناك قوة كاسحة تكمن فى روحك يمكنها أن تحتوى ما فوق ذلك،لكـن المشـكلة أنك تقمعها،ولهذا أقول انك ظالم نفسك فقد قرأت عينيك وقلبك..

أى قـوة تلك التى يتحدث عنها ذلك "العالم"ذو الوجه الشبيه بوجه السيد المسيح؟!..انه مسكين.فليسأل عنها حنان حتى تنبؤه بأن تلك القوة تستحيل على الفراش الى عدم.

—الحق انى لاأجد فى نفسى كل هذه الصفات الخارقة

—هنا مكمن أزمتك ،ولابد لها من حل

دعـانى الى منزلـه.قـدم لى أفخـم الطعـام والشـراب.البيت أشبه بجنة صـغيرة.صومعة عاشق للحياة لاقصر رجل أعمال.جياة تخيم عليها الطمأنينة ويسـودها الحب وتظللها المودة ورقة الطباع.لاولد له ولابنت.استبعدت أن تكون محبته نوعا من التبنى فعمرنا متقارب الى حد ما..عود جميل قابع فى ركن مـن الأركان محلى بالصدف،يقول انه يعزف عليه حين تجوع روحه.أعجبنى تعبيره.لكن لماذا هذا كله وهل وضعت الجماعة هذا الرجل فى طريقى لأبدأ معهم المسيرة أم وضعه الله؟!..

—ستسافر معى فى جولة كبيرة بعدة دول أوروبية لمعاينة بعض المصانع.

..تهزنى الفرحة من أعماقى..لم هذا كله ومن أنا؟؟..

—وما هو دورى فى هذا الشأن على وجه التحديد؟

-بلغة"البزنس"ستكون مدير أعمالى وباللغة التى أحبها ستكون فال الخير الذى أستبشر به.

..أردت أن تكون الأمور واضحة منذ البداية.قلت له بصدق شديد:

-اسمع ياعالم بك.يبدو أنك فهمتنى خطأ.يجب أن أنبهك منذ البداية

-بماذا تريد أن تنبهنى؟

-ان صـــلتى بالله ليست بتلك القوة التى تجعلك تستبشر بى..أنا انسان مشتت الفكر ضعيف الإيمان.

قال بانفعال:

-لاتقل هذا.انه يحبك كثيرا ولكنك فى غفلة عن نعمته

-سأظل أسألك كيف عرفت هذا

-قلت لك انى قارىء أعين وقلوب

قدم لى علبة مغلفة وقال لى:

-لاتفتحها الا فى بيتك ووسط أسرتك

****

فتحت حنان فمها على اتساعه وصاحت وهى تشهق ضاربة صدرها بيدها

-ماهذا كله؟!

العلبة محلاة بالصدف صنعت فى سورية.بداخلها حزمتين سميكتين من الأوراق المالية.احداها من فئة المائة جنيه والأخرى من فئة العشر دولارات.

-من أين جئت بهذه الأموال يا منصور؟

-لاتسأليني كثيرا فذهني معذب بالمجاهيل تائه فى كثرتها

-ولكن لابد لى أن أعرف

-سأحكى لك كل شىء أعرفه أو أظن أننى أعرفه

قال لى انها مجرد بضعة آلاف لا أكثر وأن الله قد أفاض عليه بخير يفوق طاقة تحملـــه وحـــده، وما هذه الآلاف الا دفعة مقدمة بمناسبة ضرورة الاستعداد للسفر،أما مرتبى فسيكون خمسة آلاف جنيه فى الشهر..وقالت حنان:

-تستطيع الآن أن تزور أشهر الأطباء فى مصر أو فى الخارج عندما تسافر.

تعجبــت لأن هذا الأمر كان أول شىء يخطر ببالها بعد الانقلاب الخطير غير المـــبرر فى حياتـــنا،وكأن كل ماعداه من أمور أخرى قد تضاءلت أهميتها أو انعدمت..لكنى قلت لها فى حسم:

-ضعى العلبة بجانب الفراش وتعالى

... وكانت تأوهاتها ممتزجة بصرخات وشهقات وهى فى ذروة النشوة صائحة فى شبق:

-غير معقول ياحبيبى..غير معقول يامنصور..كيف حدث ذلك؟

...سأظل أردد هذه العبارة ماحييت:اننى لاأفهم هذه الحياة!

هل من المعقول أن يزول العجز لمجرد توافر بضعة أوراق لدى العاجز بعضها جنـــيهات وبعضها دولارات؟!..هذا العجز إذن شخصى بحت ولا علاقة له بالعجـــز العام.لو صح هذا الاستنتاج فإنى أستحق لقب أكبر نذل على أرض

الوطن عن جدارة واستحقاق..ولو صح هذا الاستنتاج لانعدمت جدارتي بأن أكون عضوا فى الجماعة.

ليس هناك سبب لموت مؤمن غير انها مشيئة من خلقه واسترده.أما الجماعة فربما كانت حلما ب"الشيء الآخر"الذى لم ينقطع مدده حتى الآن..وأما أدهم جبريل..آه!

سألته وأنا جالس بجواره فى الطائرة المتوجهة الى ميونيخ:

–ألا تريحنى ياعالم بك وتبرد على قلبى بإفشاء السر؟

–أى سر يامنصور؟

–الجماعة..الجماعة التى تنتمى اليها

–وكيف عرفت ذلك؟

–هم الذين أخبرونى

–عجيبه!.ألك اتصال بالصوفية وتدعى بغير ذلك؟

–صوفية؟؟!!..

–نعم،وإلا فكيف عرفت بانتمائى الى جماعة الشاذلية؟

دارت الدنـيا برأسـي وعاودنى الشعور بالتوهان والتشتت.ان كان صوفيا فكيف سهل عليه أن يغرينى يوما بتقديم رشوة لى؟

–أنا لا اقصد هذه الجماعة

قال ضاحكا:

–ألم أقل لك انك ظالم نفسك؟

أمام ارتباكى وترددى رأيت أن أغير موضوع الحديث بصفة وقتية حتى أعثر على مدخل جديد مع هذا الرجل غريب الأطوار الذى يظننى وليا من أولياء الله. سألته:

–هل قرأت جرائد اليوم؟

–نعم ولا جديد كالمعتاد

–بل ان هناك جديدا وهاما

–ماهو؟

–لقـــد صـــرح رئيس الجمهورية فى حديثه لرئيس الاذاعة بأنه لاتوريث للحكم فى مصر ولو حدث فى بلاد أخرى

–أحسن صنعا فقد أبرأ ذمته أمام الشعب

–ليته يحسم أمورا أخرى مثل تغيير الحكومة الفاشلة وتعديل نظام انتخاب رئيس الجمهورية

–وليته يلغى قانون الطوارىء ويعين نائبا للرئيس ويكتفى بأن يكون حكما بين الأحزاب،وبذلك يدخل التاريخ من أوسع أبوابه.

..أصابتنى دهشة فائقة وأنا أسمعه يردد نفس أمنياتى وأمنيات كل مصرى،بل انه يكاد يردد حرفيا نفس مبادىء الجماعة التى جاءت فى رسالتهم الأخيرة.

تشـــجع يامنصور وادخل فقد فتح لك الباب على مصراعيه.انه لايريد أن يعلن عن نفسه الآن..ربما أراد ذلك فى وقت لاحق.لكن يجب أن أعلمه بأنى متفهم لنواياه تفهما تاما.

–لقد فهمت الآن كل شيء

–ماذا فهمت يامنصور؟

أمام دهشته الشديدة تراجعت فى تأدب كاذب قائلا:

–أقصد انى فهمت مبادئك الوطنية

–الحمد لله انك فهمت..دعنا نتحدث الآن فى العمل.

و قال لى مؤمن إنه يقضى وقتا ممتعا فى البرزخ بصحبة الشيخ أحمد ياسين شهيد المقاومة الفلسطينية و القسّ عبدالحميد شتا شهيد وزارة الخارجية المصرية و الرئيس اسحاق رابين قتيل العنصرية الصهيونية ، و أنهم يتسامرون بأرواحهم فى محبة و وداعة ، و كان ما حدث لهم فى الدنيا و ما احدثوه فيها لم يكن شيئا مذكورا ، أو انه كان حلما عبثيا لا معنى له ، و من ثم فإنه نصحنى فى وقار أكبر من سنّه بان احترم نفسى ، فتعجبت مرة أخرى لتطاوله علىّ بهذه السهولة – و هو الذى كان فى غاية الأدب و الرقة قبل موته – و قلت له تأدب يا ولد فانفجر فى الضحك و اختفى.

****

أخيرا نجحت فى فعل شىء إيجابى عن يمين الصفر، فبعد استتباب الأمن الجنسى مــع حنان بسبب علبة صدفية تحوى أوراقا مالية هبطت من السماء بمحض صــدفة،وطدت صــداقتى بإيمان فأفصحت لها عما تساءلت عنه من أسباب شــرودى وغمــوض نظــراتى وصــمتى الطويل، ليس من باب الصداقة فحسب،وإنما بدافع قوى من حب استطلاع لوجهة نظر الشباب فيما يجرى من حولهم،وسألتها يوما:

-مارأيك يا إيمان فى حال البلد؟

-من أى ناحية يا أبى؟

-أريد أن أطلع على رؤيتك العامة كدارسة للقانون

-الحالــة غير مطمئنة بالمرة.دخل قومى لايكفى.اقتراض وديون متراكمة داخلــية وخارجــية.نظام سياسى متهالك.انتخابات مزورة.أعضاء حكومة ونــواب شــعب فاسدون.رجال أعمال يهربون مئات المليارات من أموال الشــعب الى الخارج.قيود على الصحف والأحزاب والحريات والمظاهرات ،ولاداعى للمزيد فأنت تعرفه،أما عن ارتفاع الأسعار فاسأل أمى.

-أهذا رأيك الشخصى؟

-انه رأى الغالبية العظمى من شباب الجامعة،فنحن لانتحدث كل يوم الا عن هذه المصائب حتى أصبحنا نرى المستقبل أمامنا سوادا فى سواد.

رغـــم انتباهي لكل ما قالته الا انى توقفت طويلا أمام المظاهرات.تذكرت يومـــا كنت أشاهد فيه نشرة الأخبار فى قناة فضائية عربية وأنا جالس على فراشي مسترخ تماما وأمامى فنجان قهوة وبيدى سيجارة،وإذا بمشهد يصفعنى فى عينى..أربعة من الضباط والمخبرين ينهالون جميعا بالعصى الغليظة والأيدى والأقـــدام فى قســـوة بالغـــة على شاب بعينه حتى سقط محطما على الأرض والدمـــاء تنزف منه.كانت مظاهرة سلمية تعارض نية الأمريكان لاستخدام القـــوة ضد العراق.فوجئت بالمذيعة تعلن أن هذه الاشتباكات تدور الآن بين البولـــيس وشباب جامعة الاسكندرية.أنا أجلس مسترخيا فى بيتى ولا أدرى شيئا عما يدور حولى من دنس إلا من قناة فضائية غير مصرية.عدت بالمؤشر الى القنوات المصرية الأولى والثانية والخامسة لأشاهد نشرة الأخبار وأعرف حقيقة مايحدث ولكن لاحس ولاخبر،وكان هذه الأحداث التى تبعد عن بيتى بمقـــدار ثلث ساعة بالسيارة تقع فى كوالالمبور.المثير للضحك أن مذيعة هذه الدولـــة الصـــغيرة ذات الحكم القبلى المتخلف والشعب الذى لاصوت له تستجلب متحدثا عربيا ليتحسر على انعدام الحرية فى مصر.آه ياغجر!..لكن الحق معكم فنحن بحاجة مؤسفة الى الارتداد قرنا من الزمان الى الخلف لنسمع من يقول:"ما أشبه المستبد فى نسبته الى رعيته بالوصى الخائن القوى على أيتام أغنياء،يتصـــرف فى أموالهـــم وأنفسهم كما يهوى ماداموا قاصرين،فكما أنه ليس من صالح الوصى أن يبلغ الأيتام رشدهم،كذلك ليس من صالح المستبد أن تتـــنور الرعية بالعلم،ولايخفى على المستبد أن لا استعباد مالم تكن الرعية

حمقاء تتخبط فى ظلمات جهل وتيه وعماء"..عبد الناصر يامسكين كنت تريد أن تتوحد مع هؤلاء الناس فقتلوك،وحين تجاهلهم خليفتك البراجماتى الداهية اتهموه بالخيانة والعمالة وصاحوا فى ميكروفوناتهم"شلت يداك ياسادات"..أما حـين جـاءت البوارج وحاملات الطائرات والمدافع والقنابل المحرمة دوليا والصواريخ والدبابات الأمريكية والبريطانية،فإنهم قدموا لها قواعدهم طواعية ليضربوا منها العراق ويدكوها دكا ثم يحتلونها ويذلون شعبها.

سألتها بصراحة:

-ما رأيك فى الجماعات الاسلامية؟

-انها غابة من المتناقضات المتشابكة

-كيف؟

-منهم مـن يكفـر الدنيا بأسرها ويرون فى أنفسهم أصحاب الحقيقة الواحـدة المطلقة،ومنهم السلفيين المتحجرين،ومنهم المسالمين الوسطيين،غير انهـم جميعا يربطون الدين بالدولة ويرفعون شعار"الاسلام هو الحل"دون أن يوضـحوا لـنا كيفـية هذا الحل،وأشهد أنهم ذوو قدرة هائلة على التنظيم والتخطيط.

-أراك تصلحين جيدا للعمل بالسلك الديبلوماسى يا إيمان

ثم سألتها فى اندفاع صبيانى:

-ماذا تفعلين لو كنت مكانى؟

-فيم أفعل؟

–فى الواقع الذى نحياه

–افعل مااستطيع أن افعله كمساهمة منى فى تغييره

–أنا لم أستطع أن أغير واقعى منذ سرق أدهم جبريل وظيفتى فكيف أغير الواقع العام؟

–لو غير كل انسان واقعه الى الأفضل لتغير واقع المجتمع كله

..يقول الكتبة والفريسيون المعاصرون فى أحاديثهم ومقالاتهم ان شباب اليوم تافـــه ضحل مفرغ من الثقافة،وما سمعته يقول بغير ذلك..فكر منطقى مرتب لايخلو من جراة ودعوة صادقة للتغيير،واتخذت قرارا بكتابة شكوى الى السيد رئيس الجمهورية *الذى يخيل الى انى التقيت به من قبل*.أحالها مكتبه الى مدير الجامعة.على أية حال شكرا لاهتمامهم،لكنى عدت الى الدائرة الجهنمية بين مديـــر الجامعة وعميد الكلية *فلم يبق أمامى الا ان اقتل أدهم جبريل الذى ســـبق أن قتلته ب"الشىء الآخر" من قبل كما قتلت وسيم بك*..وحتى هذه لاتفيد أيضا بشىء.هكذا حين تدق ساعة الفعل أقف أمام نفسى عاريا أرتجف فى رعـــب.أشـــرب نزيف قلبى ولا أفعل شيئا،فكلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة ولامفر من تجاوز مختنق الفردية الى المحنة العامة ولا طريق الى ذلك غير طريق الجماعة،ولكن حتى هذا الطريق أراه مسدودا أحيانا متشعبا ملتويا يلفه الضباب والغموض أحيانا أخرى.

****

-١٤-

كلفنى العالم بمهام إدارية متعددة انجزتها بشغف ونجاح حتى حان موعد السفر.مصطفى الزوربا يرفض الخمر تماما ويلعن شاربها وحاملها وساقيها.محمد العالم يتفق معى فى أن كأسين من النبيذ أو الويسكى قد يصلحان المعدة ويوسعان الشرايين ويجلبان شيئا من البهجة دون الإضرار بأحد أو بالنفس.

كان منظر القاهرة من السماء كئيبا مقفرا..مجموعة من المبانى محاطة بصحراء صفراء جرداء مات فيها اللون الأخضر ودفن..ولاعزاء للنفس أو الزقاق أو المدينة أو كوكب المريخ.

فى الطائرة رأيت الأرض من السماء صغيرة ضئيلة،أما البشر فلا وجود لهم.أمام هذه الرؤية انكمشت همومى وتضاءلت وأيقنت أن نهاية العالم لن تكون بسبب جريمة أدهم أو عجزى عن التوصل الى الجماعة أو ازدحام الأرض بأذناب المنافقين أو حلم محمد العالم بأن يكون طلعت حرب مصر الجديد.

مع أول كأس تجرعتها فى الطائرة انسابت الطمأنينة فى كيانى واسترخت أعصابى فشعرت براحة وسعادة.تذكرت الصندوق المصدف والراتب الكبير ثم صياح حنان فى شبق وهى فى ذروة نشوتها فاكتملت دائرة سعادتى

بالطمأنيـــنة والسكينة والرضا وراحة البال وقلت انى لم أعد أريد شيئا من هذه الحياة أكثر مما أصبت منها.

راحـــت المضـــيفة تشـــرح للركاب كيفية استخدام طوق النجاة فى حالة حـــدوث طـــارىء لاقدر الله..أى نجاة أيتها الحسناء لو شاء القدر لعلبتك المعدنـــية الجميلة أن تسقط لخلل طارىء!.الخلل وثيق الارتباط بالسقوط.أين ذلك الكائن الخرافى الجبار الذى سيمكنه وعيه وتسعفه أعصابه ويطيعه عقله حينـــئذ عـــلى اتباع تعليماتك الساذجة بشد تلك السترة وفتح ذلك الزر والنفخ فى هذا الشىء؟!..

ياالله ..إن هى الا قطرة ضئيلة من محيط كونك العظيم تبدو لعينى المنبهرتين بشوارع لامعة وسماء ممطرة ووجوه بيضاء ومبان رائعة الشكل والتنسيق،أما الورود التى تزين الشرفات فما أبدعها،وما أبعد الفارق الشعورى الوهمى بين كون الإنسان افريقيا وكونه أوروبيا.

هاهى خطواتى الأولى أدوس بها على أرض الحضارة السائدة والمنتصرة فى هذا الـــزمان.أنا فى شوق شديد لرؤية هؤلاء الناس الذين نادى مفكرهم"برتراند رســـل"بفكرة إنشاء حكومة عالمية لها سلطة فعالة تجعل الحرب مستحيلة فى المستقبل،والذين قال مؤرخهم"آرنولد توينبى"بأن أى مشروع لدستور عالمى قـــد يـــبدو اكـــثر جمـــالا مـــن الواقـــع مـــالم نتشـــبث بالســـيادة القومـــية،ومفكرهم"ســـوندارى"التى أسست مذهب الجوهرية والتى تنادى بالتخـــلى عـــن طقـــوس العـــبادات الـــثلاثة مـــادام جوهـــر الأديـــان

واحدا..واخيرا"هنتنجتون" الذى تساءل فى غل وتعصب قائلا:"كيف يمكننا أن نحـــب مـــاهو نحن مالم نكره ما ليس نحن؟."هؤلاء الناس الذين اخترعوا الكمبـــيوتر والانترنت يثيرون حسدى وإعجابى فى آن واحد،فنظامهم العام لايعرف الخلل أو العجز أو العبودية.

****

فى احدى القـــرى الصناعية بالسويد كان لابد أن أتوجه الى قسم الشرطة لإنهـــاء إجـــراءات تخص إقامتى هناك لبضعة أيام ريثما ينتهى محمد العالم من معاينة بعض المصانع الكيمائية التى ينوى شراء واحد منها.

توجهت الى العنوان المكتوب ووقفت حائرا مشتتا إذ لم تلمح عيناى فى هذا المكـــان غير مجموعة من "الفيلات" الجميلة المحاطة بالزهور والحدائق.لم أجد احـــدا يدلنى على القسم فالشوارع خالية من المارة المترجلين.غير معقول أن يكـــون القسم بداخل احدى هذه "الفيلات".كان من الطبيعى أن أرى على بابـــه جنديا واحدا على الأقل واقفا بالسلاح،وبالداخل نظيرا أنيقا للصول "مرســـى"المساعد بقسم الجمرك،وبالداخل ضابطا نوبتجيا يتعامل مع الناس بـــرقى وتحضـــر ودون استعلاء.دخلت المبنى متشككا طبقا للرقم المكتوب بالعـــنوان.اســـتقبلتنى فـــتاة جمـــيلة ترتدى زيا مدنيا.كانت بيدى سيجارة مشتعلة،وكانت موسيقا هادئة تنساب فى أرجاء المكان.سألتها فى دهشة:

-هل هذا هو قسم الشرطة؟

أجابت بابتسامة عذبة

-نعم..هو

ثم أشارت الى منفضة سجائر وقالت بأدب جم:

-من فضلك..التدخين ممنوع هنا

أطفأت السيجارة وسألتها عن الضابط المسئول فشكرتني على اطفاء السيجارة وقالت:

-أية خدمة أقدمها لك

أوضحت لها مطلبي المتعلق بالإقامة فأخذت جواز السفر وفتحت درجا استخرجت منه"كارتة"صغيرة،ألقت عليها بنظرة فاحصة ثم اطلعت على جواز السفر،وفي أقل من دقيقتين وضعت خاتم القسم عليه وقالت لي:

-أهلا بك في السويد

توقفت قليلا في حيرة إذ لم أستوعب أن الأمر قد انتهى وأن على أن أغادر المكان،فابتسمت لي من جديد وقالت بلطف ساحر:

-انتهى موضوعك..هل تريد أن تشرب قهوة؟

شكرتها وانصرفت.تعال وتفرج ياحضرة الصول مرسى فقد اكتشفت أن دائرة سعادتي المكتملة وهم كبير،وأنه قد آن الأوان لقارىء الأعين والقلوب أن يكشف لي عن نفسه فأطلق العنان لأمنياتي التي أرغب في البوح بها للجماعة ومطالبتهم بتبنيها والعمل على تحقيقها.على رأس هذه الأماني تأتي مسألة احترام المواطن ومعاملته إنسانيا في كل موقع،خاصة بأقسام الشرطة..تلك المسألة التي تأججت في صدري كرغبة ملحة لحظة زيارتي

لقصـــر الملك والملكة فى ضاحية "سلسن"بالمدينة القديمة فى استوكهولم.نحى ضابط-أو جندى-جميل الشكل والملبس،إذ لايمكن التمييز بسهولة بين هيئتى الضابط والجندى هناك،فأدى لى تحية عسكرية كاملة ظننت أنه يؤديها لرتبة أكـــبر مـــنه تأتى من خلفى،لكنى حين نظرت من حولى لم أجد أحدا غيرى فسألته عن سبب هذه التحية.قال لى:

-ان ملامحك تؤكد أنك أجنبى قادم لزيارتنا،ووظيفتى هنا كخادم للشعب أن أسألك هل من خدمة أؤديها اليك؟

أخبرته بمقصدى فقادنى الى مدخل القصر وسلمنى للمسئول وحيانى مرة ثانية ثم ســـألنى فى حـــياء شديد عن موقع مصر على خريطة العالم لأنه لم يسمع عـــنها.أخرج من جيبه خريطة قديمة. أشرت له على موقع"أم الدنيا"من العالم فشكرنى وانصرف..والله أنا لاأطالب بأن يعظم الجندى أو الضابط المواطنين فى مصـــر.أطالـــبه فقـــط باحترامهم لأنه لايتميز عنهم الا بكونه خادما لهم يتقاضى راتبه من الضرائب المستقطعة من رواتبهم،ولأنه لامبرر على الاطلاق لأن يتســـلط عليهم متوهما أنه الأعلى وهم الأدنى..هذا ما سأطلبه من العالم بعـــد أن يشترى مصانعه لينقله الى الجماعة لحين أن ألتقى بهم.لكن الى متى سأنتظر ومفاوضات البيع والشراء تطول.لم لا أطرق الحديد وهو ساخن؟..

ونحـــن نتناول الغداء فى مطعم دنماركى شاهدت منظرا غريبا،آخر ماخطر بـــبالى أنـــه مظاهرة!!..نقابات العمال أصدرت أمرا بالتظاهر ضد أصحاب العمـــل الذيـــن رفضوا رفع الأجور.العمال يرفعون اللافتات ويسيرون فى

مجموعات متراصة يحرسهم البوليس من الجانبين ويتبادل أفراده معهم الحديث والابتســامات.كل هذا جميل ورائع،لكن أكثر ما فى المشهد من إثارة هو أن تصـــحب الموســيقا المظاهرة،فقد كانت مجموعة من المتظاهرين تدق الطبول وتنفخ فى المزامير ولاحول ولا قوة الا بالله.

لم أستطع أن أمسك بنفسى فسألته مباشرة وقد فاض بى الكيل من صمته:

-هل سمعت عن جماعة مكافحة العجز والدنس؟

-نعم

أخيرا تحقق الحلم..

-هل لك علاقة بها؟

-انها على علاقة وثيقة بقطاعات كبيرة من الشعب

-كيف؟

-من خلال رسائلهم الى الناس

-هل وصلتك منهم رسائل؟

-العديد

-وهل عرفتهم؟وهل التقيت بهم؟

-لم أفكر فى ذلك فوقتى لايسمح،فضلا عن أنهم لايكشفون عن أنفسهم

-فلنفترض أنهم دعوك للقائهم..هل تقبل؟

-ياحبيبى أنا أعمل فى "البزنس"لا فى السياسة.

خلال مفاوضاته مع أصحاب المصانع كنت أرى فيه شخصية أخرى غير تلك التى عرفتها عنه،فهو هنا عقلانى دقيق حصيف مادى شكاك متوجس دؤوب حتى يحصل على مبتغاه.

-ولكن ألا يهمك تغيير الواقع المتردى الذى نعيشه؟

-يهمنى بالطبع ولكن كل ميسر لما خلق له،وأنا لم أخلق لتأدية هذا الدور فى الحياة.

..هاهو يتملص منى من جديد..ولكن لم لايكون صادقا فيما يقول؟..لو كان الأمر كذلك فإن هذه الجماعة تتلاعب بى وتسخر من شخصى وقدراتى.لماذا يتهربون من مواجهتى وعندى الكثير لأقوله لهم وألفت أنظارهم الى خطورته ماداموا يتشدقون بمقاومتهم للعجز والدنس!

****

يتـــنقل العالم من بلد أوروبى الى آخر بسهولة انتقالى من مسكنى الى مسكن مجاور.حلمه الوطنى بمصر الصناعية هو الوهم الذى يجلب له السعادة ويبذل مـــن أجلـــه الغالى والرخيص.مفهومه للنهضة قائم على تفضيل العلم على ماعداه.سمعته مرة يلعن الحكومة لأنها أهملت مشروع الدكتور زويل للتنمية العلمـــية فى مصر،حيث اكتفى رئيس الوزراء بوضع حجر أساس المشروع وهـــو يبتسم ابتسامته الشهيرة لسبب أو لغير ما سبب،ثم انتهى الأمر على ذلـــك حتى التهمت المشروع من مصر دولة عربية أخرى شرعت فى تنفيذه على الفور.

منتجاته الصناعية فى مصر تتمتع بسمعة قوية غير أن مايعيبها فى السوق هو ارتفـــاع أســـعارها،لكنه لايعبأ بذلك إذ يبرره بارتفاع جودتها وتفوقها على نظيرها المستورد مالم تتساوى معه،لهذا فهو يضن ببيعها لغير من يقدرها حق التقدير مهما بلغت ضآلة ربحيته.لقد تأكدت تماما-رغم براعته فى المفاوضات الماليــة كما لو كان يهوديا-أن المال عنده لايعنى شيئا بالمرة!..ولقد ضاعف هـــذا مـــن حيرتى فى فهم طبيعة شخصه الغنية بالمتغيرات..هذا الرجل الذى لايـــرى المجـــد الانسانى إلا فى ازدهار الصناعة أوضح لى أنه لم يدفع رشوة لموظف فى حياته.تعجبت كيف يكذب على بهذه الجراة وهو الذى كشف لى عن نفسى حين رفضت رشوته.فاتحته عن بعد فى هذا الأمر.فهم مرماى على الفـــور وكان تفسيره أن مايدفعه لموظفى الحكومة والقطاع العام إن هو الا صدقة محسوبة بكسر الجنيه كنسبة عامة من مجمل أرباحه،وذلك لشدة تعاطفه معهـــم وإشـــفاقه عليهم وإحساسه العميق بمعاناتهم المؤلمة..وأخيرا صرح لى بوضوح:

-أما أنت بصفة خاصة فقد كنت أختبرك

-لماذا؟

-لأنى كنت واثقا من رفضك

-ومادليلك؟

-يقينى من أن وساختك من خارجك فقط،أما الداخل فناصع البياض

****

مدينـــة"بــافوس" القبرصية لها سحر خاص وشعبها معجون بفن اجتذاب السـيـاح.حــين فهم سائق التاكسى من حوارى العابر مع العالم –رغمَ أنه لايعـــرف العربية–ان اليوم هو عيد ميلادى،فوجئت به فى المساء وبعد انتهاء دورة عملــه يحضـــر الى فندق"سيبراماريس"الذى أقيم به ليقدم لى باقة من الورد.

فى المطـــاعم يجلس معنا صاحب المطعم وزوجته واولاده يتحدثون فى أمور الدنــيا ويطمئـــنون على جودة الطعام الذى أعدوه لنا،بينما يتناوبون على خدمتـــنا بحب كبير يجعلنا نشعر أنهم أقاربنا وأبناء عمومة حضارتنا وأن هناك صلةدم تربط بيننا وبينهم.

فى عشـــاء عمل مع مجموعة من أصحاب الأعمال ذوى الجنسيات المختلفة لاحظـــت أن محمد العالم يلقى من الجميع توقيرا ملحوظا لم أتبين أسبابه حتى الآن، اللهم الا اذا كان السبب أنه يصر على دفع الحساب فى كل مرة مهما كـــان باهظا..والحق أننى قررت فى تلك الليلة أن أريح ذهنى المكدود من أية محاولـــة لفهـــم أى شىء،فقد كانت موسيقا زوربا اليونانى تجلجل فى المكان وكان القبارصة يرقصون بنشوة وحب وقوة وفرح مجنون.غير أن أكثر ما أثار دهشـــق وانتباهى وفضولى هو مشهد تكسير الأطباق الصينية..ذلك التقليد الذى سمعت عنه ولكنى أراه أمام عينى لأول مرة.

الـــيوم أشعر بالبهجة الخالصة وأفرح بشدة لوجودى على قيد الحياة حتى أرى مـــا أرى وأسمــــع ما أسمع..لو كانت حنان معى لفقدت وقارها وقامت لترقص معهم على زوربا ونصف.

إذن فهـــناك حـــياة أخـــرى لا أعرفها ولايعرفها ملايين غيرى من القتلى الأحـــياء.حـــياة لاتسمح بالتفكير فى العجز لأنها مشحونة بالقدرة والحيوية والبهجة.

بعد أن انفض السامر قلت للعالم:

-لابد أن هناك تنظيما معينا يقود هذه الجماعة.

فاجأنى بقوله:

-لماذا تلف وتدور دائما حول هذا الموضوع؟!

-لأنه أصبح شغلى الشاغل

-عندما تندمج معنا فى العمل ستنسى هذه الخزعبلات.

..يبدو أن ظنه فى محله فخلايا جسدى يشكلها كيان انتهازى يرفض السلطة ويـــنحاز الى الجماهير،لكـــنه يـــرفض فى الوقت نفسه أن يكون شهيدا لهذه السلطة بأن ينام على"البورش" فى سجن حقير،أو أن يعذب بالنفخ والصعق وانتهاك العرض.لكنه يقبل أن يهادن السلطة ويسعى فى الوقت ذاته الى ممالأة الجمـــاهير. تـــأكدت من صحة تصنيفى لنفسى حين حضرت اجتماعا ثقافيا إعلاميا كبيرا عقد مؤخرا بالقاهرة قسم فيه أحد المتحدثين المثقفين العرب الى ثمانية أنواع:

المثقف الحاذق الذى يتعيش على رضا الناس والسلطة معا،والانتلجنسى الناقد المنخرط فى مشروع جمعى،والنرجسى الذى يدعى فى كل وقت أنه قال ذلك،والخبير الذى يقتصر دوره على تقديم المشورة أو الرأى فى حدود ما يطلب منه،والمدرسى الذى يروى دائما عن غيره،والإشكالى بمعنى اللوكاتشى الذى يبحث عن تجاوز يعرف مسبقا أنه لن يطله،ناهينا عن الأرزقى الذى يكرس همه فى الإفادة من الامتيازات الداعمة لمصلحته،والعولمى المرتبط بالكومبرادور والشركات الكونية عابرة القارات.

فى ذلك اليوم انتهت اجازتى التى طلبتها من الشركة وكان لابد أن أعود الى وظيفتى.فاتحت العالم فى الأمر.الاستقالة فعل إيجابى.أريده ولا أجرؤ عليه.حاولت أن أقمع كل هاجس ألم بى عن خطورة ترك الوظيفة وما يترتب عليها من معاش فى المستقبل وضمان فى الحاضر يحققه راتب ثابت مهما بلغ هزاله. عبودية الوظيفة تقتل الطموح والرغبة فى المغامرة والتجديد.هذا ما كانت تقوله حنان قبل أن تستقيل من شركة وسيم بك الجبان.الوظيفة قيد يقيدنى بسلاسل من تراث طويل عريض عميق متراكم من القهر الفردى والجمعى والفكر الموروث،تكاتف الزمن والموقع والدين والحكام والتاريخ على تكبيلى به،فيقتلنى التردد بين الإقدام والاحجام ويعذبنى الخوف ويستبد بى العجز عن اتخاذ قرار فأشعر بالضآلة والدونية، وبأننى لا أختلف كثيرا عن حمار بوريدان لعجزه عن اتخاذ قرار بالاختيار بين حزمتين متماثلتين من

البرسيم موضوعتين على مسافتين متساويتين ،فظل يتردد بينهما غارقا فى عجزه حتى مات من شدة الجوع.قال لى العالم:

"قبل أن أترك وظيفتى السابقة ترددت مثلك،وفى ليلة دعانى لتناول العشاء معه صديق يمتلك مطبعة صغيرة،وقد أصبح مليونيرا فيما بعد..فى تلك الليلة التى لا أنساها لم يكن بجيبى سوى ثلاثة جنيهات رغم تأنقى الظاهرى.كانت المرة الأولى التى تطأ فيها قدماى فندق كبير،وكان العشاء لحما مشويا ومأكولات أخرى لم أسمع عنها من قبل.

انصب موضوع السهرة على تردده فى الاستقالة من وظيفته بالقطاع العام والتفرغ لمطبعته. قال لى ان المجتمع يتعامل معه الآن كمهندس ولكنه حين يستقيل سيعامل ك"مطبعجى"أو مجرد صاحب مطبعة.الفارق يؤرقه.قال انه يحسدنى على راحة بالى فأنا -من وجهة نظره-أقسم راتبى على الشهر ثم أنام فى الليل نوما عميقا وأستطيع أن أشخر فى أمان دون أن يؤرقنى شيك مرتد أو عميل نصاب أو نفاد رصيد أو مرتبات عمال تأخرت..وبعد أن قال ما عنده سألنى فى غير تردد أو حياء:

-لقد دعوتك خصيصا لأسألك سؤالا محددا..هل أستقيل أم أستمر فى الجمع بين العملين؟

قلت له بلا تردد:

-بالطبع تستقيل

نظر الى فى دهشة لسرعة ردى فذكرته بالحريق الذى حدث فى مطبعته منذ فترة أثناء تواجده بالشركة وأكدت له انه لو كان متواجدا يباشر عمله الخاص بنفسه لما وقع الحريق.

كنت أشعر أثناء إبداء رأيي أنه لو لم يكن بحاجة الى الاستماع اليه لما أنفق على ثمن عشائي.فى تلك الليلة قررت الاستقالة أنا الآخر رغم أننى لم أشر اليه بذلك،ولم أكن أملك مطبعة أومزرعة.ان العمل الحر هو روح الحياة الحرة،وصفات التخلف البشرى لاتكمن فى العقل وانما فى الروح.."

قلت له على الفور: ومن أين لى بطمأنينة الاستمرار معك بعد الاستقالة؟

-ومن أين لأحد بالطمأنينة على بقائه قيد الحياة لدقيقة واحدة؟

رغم أنه يشرب النبيذ الا اننى أتلمس فيه حسا صوفيا فريدا من نوعه،يجذبنى اليه بشدة ويشعرنى أنه لايمكن أن يخذلنى يوما..وقررت الاستقالة من العمل. علمت بعد ذلك أن مستثمرا إشترى الشركة فألغى نظام الحوافز و طرد عددا كبيرا من عمالها على رأسهم طاهر بك. توالت جولاتنا فى اوروبا لمعاينة المصانع التى يريد شراءها.

فى ألمانيا الغربية شاهدت الألمان وهم يدلون بأصواتهم فى اللجان الانتخابية.خجلت من نفسى أمام نظام الحرية وحرية النظام.لم أكتف بالخجل فأنا غير مسئول عنه-الى حد كبير-لكنى شعرت بحسد شديد تجاه هؤلاء القوم الذين يختارون حكامهم بكل سهولة ودون منغصات.وأدركت أن التخلف الحضارى للأمم يؤثر بقوة على ارادة شعوبها،مثلما يؤثر التخلف

الاقتصادى على صحة عواطفهم الانسانية واستوائها.نحن نردد فى ببغاوية عن هؤلاء الناس الهم يعانون من خواء روحى وأن كثرة حوادث الانتحار عندهم تؤكــد ذلك،ولكــن لــو قارنــا انــتحارهم بانتحارنا لكانت المقارنة فى صالحهم،فالانتحار لسبب ميتافيزيقى أرحم بكثير من الانتحار بسبب الجوع والظلم..وكان أرسطو قد أرسل الى تلميذه الاسكندر الأكبر رسالة ينصحه فيها بمعاملة اليونانيين كقائد،وأن يعامل الشرقيين معاملة السيد لأنهم بطبيعتهم عبــيد..وقــال لــه أيضــا:"ان الــرجل الحر لايستطيع أن يتحمل حكم الطاغــية،ولهذا فــإن الرجل اليونانى لايطيق الطغيان بل ينفر منه،أما الرجل الشرقى فإنه يجده أمرا طبيعيا، فهو نفسه طاغية فى بيته،يعامل زوجته معاملة العبيد،ولهذا لايدهشه أن يعامله الحاكم هو نفسه معاملة العبيد".

أخيرا كانت أمريكا..آخر مكان على وجه الأرض كان يمكن أن أتصور أن تطأه قدماى ولو فى المنام..منذ أشهر ليست بالبعيدة كنت أشكو عجزى عن شــراء الــلحم واضــعا نفســى عــن جــدارة فى مصــاف الفقراء من المتعلمين..كالمفجوع ألتهم اليوم مايقرب من نصف كيلو جرام من "الجريلد لامب" فى الغداء و"الفرايد تشيكن"فى المساء،وقليلا ماكان يخطر ببالى أولئك الذين يكدحون هناك طيلة النهار-ويضطرون كثيرا للكذب والنفاق-ليوفروا ثمن طبق من الفول وبضعة أرغفة من الخبز ويتفرجون فى الشارع كالبلهاء-ولكن فى حقد-على موكب محافظ المدينة الذى يتعطل لأجله المرور.

رأيـــت رئيس الولايات المتحدة الامريكية وهو ينزل من عربته فى موكب بســيط بشارع والستريت-وهو شارع رئيسى فى نيويورك-ليحضر مؤتمرا صـــحيا.قلـــيل من الحرس من حوله،وعنى مدخل الشارع يقف فى استقباله حصـــانان جمـــيلان يجلس عليهما جنديا مزركشان والحياة تسير فى الشارع سيرها العادى..ثم شاهدته فى التلفزيون وهو يتحدث فى هذا المؤتمر عن جهود الحكومة فى مكافحة مرض الإيدز الذى انتشر فى البلاد،وفى المؤتمر الصحافى قـــال ان معظم شعوب الشرق الأوسط محرومة من الديموقراطية وتعانى من اســـتبداد حكامها الدكتاتوريين،وأن على أمريكا أن تنقذ هذه الشعوب من محنتها لتنعم بالحياة الحرة الكريمة.

هـــذا الـــرجل لايقـــول الحقـــيقة،فلن يستطيع أن ينقذ هذه الشعوب الا أنفســـها،وأى انســـان مهما بلغت سذاجته يعلم جيدا أن الحرية لاتمنح.إنى أحســـد المواطن الأمريكى الحر المعزز المكرم المنعم فى وطنه وخارج وطنه،لا لأن رئيســـه قد منحه الحرية-فهذا غير صحيح- وإنما لأنه هو الذى اختار الرئـــيس.هـــنا خطرت ببالى فكرة أن أمارس الحرية كمواطن غير حر لكنه يـــتواجد الآن عـــلى أرض حـــرة حيث يقع التمثال الشهير وسط جزيرته فانطلقت فى لمح البصر الى الشىء الآخر:*واجهت الرئيس الأمريكى بكل ما يعـــتمل فى صـــدرى تجاهه وصارحته برفضى لتعصبه ضد العرب والمسلمين وانحـــيازه الســـافر لإسرائيل،وإثارته للحروب،وبثه للكراهية العنصرية بين شعوب العالم..لم يمنعنى أحد من مخاطبته وجها لوجه أمام الآخرين.لم يتعرض لى*

حرسه الخاص.كان ذلك أمرا عجيبا.أما الأعجب فانه لم يثر ولم يأمر بترحيلى خارج البلاد وإنما قال لى بنبرة آسفة:

-كنت أتوقع منك الشكر على انى أسعى لتحريرك من عبوديتك ولكن يبدو أن مستوى فهمك دون ذلك بكثير!.

شعرت بالخجل أمامه رغم ثقتى من شدة تناقضه المفضوح وتمنيت أن يكون عشائى "طعميه" ،فركبت بساط الريح من نيويورك الى كاليفورنيا..

دخلت محل يهودى عراقى فى هوليوود بوليفار متخصص فى تقديم الطعمية.كان الفاجر يبيع الساندوتش الصغير بثلاثة دولارات وبداخله قرص واحد من الطعميه وعليه لحسة ضئيلة من الطحينة وقطعة خيار مملح شديدة الرقة والضآلة.

عندما عرفنى بهويته تحاورت معه معبرا عن دهشتى لشدة بخله وطلبت منه المزيد من قطع الخيار المملح.استجاب لى لكنه فاجأنى فى النهاية بإضافة ثمنها الى الفاتورة.قال لى اننا نحن العرب نسىء تربية أبنائنا ولاندربهم على الاستقلالية-كما يفعل الأمريكان-ولكننا نجعلهم يعتمدون علينا حتى بعد الزواج لأنهم لم يتعلموا كيف يتخذون بأنفسهم قرارات حياتهم المصيرية.وحين اتجه بنا الحديث الى أمل الوحدة العربية شخر من أنفه بشدة أفضل مما يشخر سكندرى قح تعبيرا عن السخرية والاعتراض.وأخيرا قال لى فى عفوية:

-سيصل رئيسكم هنا غدا لعقد مباحثات مع الحكومة الأمريكية.

نــزل عــلى الخبر كالصاعقة.هاهى فرصة العمر تسقط على أم رأسى من حيث لا أحتسب.لقد مللت طول انتظارى لفعل ايجابى واضح وقاطع وصريح من الجماعة.بل انى لم أتوصل اليها حتى الآن مما جعلنى أتصورها أحيانا كحلم مــن أحلام"الشىء الآخر" التى تتواتر على فى الليل والنهار والصحو والمنام والســكر والإفاقــة حتى تمتزج بشرايين واقعى و دمه و عصبه لتصير جزءا لايــتجزأ مــن الحقيقة.هذه ليست وسيلة ناجعة للتغيير والاصلاح يمكن أن تســفر عن استئصال الدنس الذى نغرق فيه ونعجز عن القضاء عليه،فمثل هــذه الغايــات النبــيلة لاتتحقق بالرسائل المجهولة والمواعيد المضروبة وإنما بالمواجهة الشجاعة.الجماعة لاتواجه، وتعلن أنها تنبذ المقاومة بالعنف ، لكنها لاتعلن عن نفسها مكتفية بادعائها أنها تنطلق من قاعدة الحرية.

الــتقط لى مواطن أمريكى صالح صورة فوتوغرافية أمام قاعدة تمثال الحرية الــتى أبحــث عنها مع الجماعة والوطن.ظهرت فى الصورة ضئيلا غير محدد الملامــح إذ احتلت القاعدة معظم حجم الصورة.."سيصل رئيسكم هنا غدا لعقد مباحثات مع الحكومة الأمريكية"..عظيم!!.نحن الآن على أرض يقولون انهــا أرض الحــرية.وهذا رئيس بلادى قادم اليها.وهأنذا موجود هنا،فلماذا لاألــتقى بــه *مثلما التقيت بالرئيس الأمريكى* فأكشف له عما بصدرى من معانــاة وضغط مكبوت منذ آلاف السنين؟..لماذا لاأكون أنا الجماعة نفسها بدلا من أن أكون بديلا عنها أو مجرد لسان حال لها؟.ثم أليس من المحتمل أن تكــون الجماعة قد خططت بإحكام لتضعنى فى هذا الموضع؟..الرئيس إنسان

مثـلى مـن دم ولحم واعصاب،لكن القدر حكم بأن يكون هو الرئيس وأنا المواطن الغلبان.ولو كنت أعرف أن مخلوقا بشريا قد استطاع من قبلى على مـدى تـاريخ البشرية أن يتحدى القدر ويعيش سليما لما ترددت أن أعاود كرته،فما المانع أن نلتقى ونتحاور فى أمان بعيدا عن أجلاف الأمن المركزى وجـبابرة مباحث أمن الدولة وعمالقة المخبرين ذوى الأكف الضخمة التى اعـتادت أن تنهال على أقفية المصريين بالضرب منذ عمر طويل؟!..*يخيل الى انه سبق لى ان التقيت به على أرض مصر* حين كنت المواطن البائس المعذب منصور عبد الرازق الذى كان جل همه أن راتبه من وظيفته لايكفيه حتى نهاية الثلث الأول من كل شهر فيضطر الى إراقة ماء وجهه أمام أمة خلقه.اليوم قد اختلف الأمر فأنا لا أستطيع أن أستورد لنفسى الشعور بالغلب دون أن أشعر انـنى غلبان بحق..ويؤلمنى أن يصبح حافزى للقاء الرئيس بحاجة هو نفسه الى حافز.أنا لاأستطيع ولا أريد أن أتصور نفسى محتاجا مرة ثانية بعد أن عرفت الاستغناء.ورغم ثقتى من أن هذا الاستغناء وقتى لاضمان فيه للديمومة،الا اننى أجده يكفينى للاستمتاع الجنونى بالطمأنينة التى لم أتذوق طعمها من قبل،ولو لزمن قادم مجهول مهما بلغت ضآلته..ثم ان اللقاء محفوف بالمخاطر على أية حال،فـنحن-أنـا والرئـيس-مصـريان رغـم أنـنا سنلتقى على أرض أمريكية.الأرض هنا قد لاتغير من واقع أحدنا شيئا.انما مجرد مكان يملكه الله أتـيح فـيه اللقـاء فحسب،وفى أغلب الأحوال ستتحول الى أرض مصرية ومشاعر مصرية وأوضاع مصرية لحظة اللقاء.سيكون هو الخليفة وأنا واحد

من الرعية.الأمر الوحيد المطمئن هو أن رجال المباحث المصريين لن يستطيعوا القـــبض على وترحيلى الى حيث لاأعرف، ولو فعلها الحرس الأمريكى فربما سيكونون أكثر رحمة بى ورأفة وانسانية والله أعلم.

عـــلى أنـــى تيقنـــت فى النهاية من بعد تردد أننى غير مطمئن لمحمد العالم ولمصيرى معه.هؤلاء الناس لاقلب لهم صدقنى يامنصور.لاتخدعك كلماته بأنه قـــارىء أعـــين وقلوب فربما يكون هو رئيس الجماعة،وأنا لا أعرف السبب الحقيقى لاستخدامه لى حتى الآن.سيزول هذا السبب يوما ما وأعود مرة ثانية منصور عبد الرازق الغلبان بعد أن تنفد مدخراتى عن فترة العز التى لاأعرف كم من الزمن ستدوم..وهكذا يستعيد الحافز توهجه من جديد لأصبح بحاجة ماســة الى انـــتهاز فرصة العمر لمقابلة الرئيس،لكنى أشعر برهبة عاتية حين أتصور نفسى جالسا أمامه، لا لأشكى له حالى هذه المرة، ولكن لأرجوه أن يستريح من عناء الحكم وعذاباته ويسلم الراية لوجه جديد ودم جديد وفكر جديــد.وإن أراد أن يستمر فى العمل السياسى،فلا بأس من أن يبقى رئيسا لـــلحزب الـــذى ينـــتمى الـــيه مكتســـبا بذلـــك حب الشعب ومباركته وتأييده..تنتابنى قشعريرة شديدة حين أتصور أننى أطالبه بأن يقدم خدمة العمر لشـــعبه قبل أن يستجيب لمطلبى بأن يعيد انتخاب مجلس شعب جديد نظيف يخلـــو من اللصوص والمرتزقة والفتوات والمرتشين،وأن يقوم بالفعل نفسه مع مجلـــس الشورى ومجلس الوزراء الذين ينفقون الملايين على تجديد مكاتبهم ويعجزون عن تجديد أدمغتهم وأفكارهم البالية التى تعفنت بطول البقاء على

مقـــاعدهم فـــوق قلـــوب الناس.أشعر بخوف عظيم وأنا أطالبه بإلغاء قانون الطـــوارىء وإطـــلاق حـــرية الأحزاب والصحف ومنع البوليس من قمع المظاهـــرات الســـلمية للمطالبة بالحقوق المدنية المشروعة..وكيف لا أشعر بالرهبة وتاريخ أجدادى كله-الحافل بالقهر-يؤكد أنه لن يسمح لى، بل وربما يقوم رجاله على الفور بمسح اسمى من الوجود ولو لم يأمرهم بذلك..ولسوف يكون هذا أمرا يسيرا عليهم فوجودى الحقيقى وجود هش تسهل ازالته.

غير أن الطمأنينة لعدالة الخالق ترأف بحالى وتحفظ لى توازنى،فهو الذى خلق الفراعـــنة والرعـــية وهـــو الكفيل بإرساء دعائم الحق والعدل بينهم على أرضه،فقد سبق له أن أغرق فرعون موسى حين طغى وتكبر وتجبر،متعمدا أن تطفو جثته على سطح البحر ليكون عبرة للعالمين، بينما هبطت جثث ملئه الى القاع والتهمتها الحيتان.

ما أن علم محمد العالم بنيق للقاء الرئيس حتى فوجئت به يسارع بإرسالى فى مهمـــة فوريـــة عاجلة الى القاهرة قال انها ذات صلة حيوية بعمله. حين استمع منى الى الفكرة رأيت فى عينيه التماعة فزع شديد سرعان ما استحالت الى علامات دهشة ثم الى سكون مستقر اتخذ من بعده القرار دون أن يناقشنى فيما سمع.قلت له:

-ألا يمكن تأجيل هذه المهمة لحين العودة الى مصر؟

أجاب بحدة قاطعة:

-اطلاقا..السفر فورا لشدة أهمية الموضوع

-والرئيس؟

-عـــندما تـــنهى المهمة وتعود الى بيتك تمهل قليلا وفكر كثيرا فى هذه المسألة

-لكن الفرصة تكون قد ضاعت

-كثيرا مايسعد الانسان بفرصه الضائعة

****

حلقـــت الطائرة فوق سماء القاهرة فى منتصف الليل وظهر نهر النيل العظيم تحتضـــنه غابـــة متلألئة من الأضواء الملونة البراقة التى توحى بدولة فاحشة الثراء،وصاح السياح بإعجاب وانبهار وفرحة:

-أوه..ريفر نايل

شعرت بزهو شديد.هذه المدينة الساحرة المضيئة الساهرة هى عاصمة بلادى التى لابد أن تكون عظيمة.

أدركت لأول وهلة بعد لقائى بالمسئولين الذين بعثنى اليهم العالم فى مصر أن الأمر لم يكن يستدعى قطع السفر والعودة،فما تم انجازه من خلالى كان يمكن أن يـــتم من خلال الفاكس أو الانترنت..وهكذا يصبح أمرا طبيعيا أن أشك فى نوايـــا العالم ومراميه،فلابد أن مصالحه تتعارض مع لقائى بالرئيس رغم أن الرئيس لايعرفه ولايعرفنى.*.صحيح انه قال لى مرة:*

-مع السلامه يامنصور

لكـــن لابّد أن مشاغله العديدة أنسته من يكون منصور هذا، والحق أن الحق معه،فأنا نفسى أنسى أحيانا من يكون منصور هذا،خاصة حين أشعر بالدنس يحـــيط بى مـــن كـــل جانـــب وأنا عاجز عن دفعه بعيدا عنى ولو بأضعف الإيمان،،،وكيف يقضى على الدنس فى وجود العجز؟!..

فى لحظـــة صفاء جمعت بينى و بين ايمان ، أفضت الى بمكنون قلبها. راعنى أن يكون الحبيب الذى خفق له قلبها شاب جامعى مهذب لكنه عاطل يقـــرض الشـــعر و يكتب القصة و يعيش على ميراثه من أبيه ، أما حلمه فى الحـــياه فينحصر فى أن يكون كاتبا كبيرا ينشر فكره الحر بين الناس. أصابنى رعـــب و هلع ، اذ سرعان ما تنبأت بمصيرها التراجيدى المؤلم الذى ينتظرها مـــع هذا الحالم التعس . حاولت اثناءها عن رغبتها الملحة فى الارتباط به ، لكنها أصرت على موقفها بقوة و عناد قائلة :

- أنا حرة فى اختيار مستقبلى

لم تكن قد فاتحت أمها فى هذا الشأن انتظارا لدعمى و تأييدى ، و لما صدمت بمعارضة أمها أيضا أعلنت ثورتها علينا معا. طلبت منها أن أطلع على نماذج مما يكتب هذا الشاب فقالت لى فى غضب :

- لن تفهموا حرفا مما يكتب
- لماذا ؟
- لأنكم الماضى الذى أسلمنا الى هذا الحاضر العفن ، و نحن المستقبل الذى سنصنعه كيفما نريد.

****

عــادت حنان الى التأقلم على الحياة كربة أسرة متفرغة بعد استقالتها عقب *مصـــرع كل من وسيم بك الجبان وادهم جبريل المجرم ومنصور عبد الرازق الضعيف.*

كان كل مايشغلنا بعد العودة أن نحصى معا مدخراتنا خلال الفترة الوجيزة الأخيرة التى انهال فيها الرزق علينا بغير حساب.سارعت بوضع المدخرات فى البنك والحصول على رقم حساب حفظته عن ظهر قلب وشعرت بشىء من الرضــا والزهو لسد بعض ثغرات الشعور بالدونية التى تثقب جدران نفسى وكنت واثقا أن الحلم اللعين المتكرر لن يعاودنى بعد اليوم.

لم تكن ثقتى فى محلها إذ حلمت فى نفس الليلة اننى أفاجأ بنفسى عاريا وسط القوم ولا أعرف كيف أستر نفسى،ويصف ابن سيرين صاحب هذا الحلم – كمــا قلــت من قبل – بأنه مفضوح ولاحول ولاقوة الا بالله..وللعرى فى أحلامى المتكررة سمات متفردة فتارة أنا عارى القدمين وتارة عار من سترتى عــدا ملابسى الداخلية وفى الحالتين أرى نفسى أهرول باحثا عن حذائى أو ســترتى..وتــارة أخــرى أكــون عاريــا تماما من أى شىء يستر جسدى وعورتى،ويصــبح همـــى كله منصبا على البحث عن مكان أختبىء فيه حتى لايرانى الناس..والعجيب أن هؤلاء الناس متواجدون دائما لحظة عريى وغالبا مايكونوا فى صورة جماهير متزاحمة متدافعة ونكون جميعا فى مكان عال أو فوق جسر يطل على نهر عظيم أو محيط شاسع.

ولما وجدت نفسى فى الصباح كاسيا قلت لها:

–فلننس هذه الوديعة ونعود الى مستوانا القديم

–لماذا؟

–لنشعر بشىء من الطمأنينة أمام مفاجآت الغيب المحتملة

–ومافائدتها اذن مالم ننفقها ونتمتع بها؟

–المتعة مؤجلة ياحنان..ذلك شىء مكتوب

–كيف نؤجلها وقد كنا نتشوق اليها ونحن نعانى مر الحرمان..

"أعـــيرونى أسماعكم لأخاطبكم عن موت الشعوب.ليست الحكومة الا أبرد مسخ بين المسوخ الباردة،فهى تكذب بكل رصانة إذ تقول:أنا الشعب،فإياكم أن تصدقوا ماتقول..لقد أوليت ظهرى للحكام عندما أدركت معنى الحكم فى هذه الأزمان وتأكدت أنه متاجرة بالقوة ومساومة الأوغاد عليها"..

–لأنـــنى أرى الأيام القادمة أكثر سوادا من هذه الأيام،فالحاضر المتدهور لابد أن يفضى الى مستقبل حالك.

..بشـــىء مـــن التأمل الحيادى يتبين لى أن الفقر ليس هو مشكلة حياتى الأزلـــية،وانما هـــو احدى دعاماتها القوية فحسب،فضلا عن أنه بشىء من التفكير المتعقل يمكن القول بأننى لست فقيرا فقد قال سيدنا محمد:"من بات آمـــنا فى ســـربه معـــافى فى بدنـــه ولديه قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها"،وأنا وعيالى تنطبق علينا الشروط الثلاثة،وبالتالى لانعد من الفقراء فى عـــرف سيد الخلق..وإذا كنت فقيرا يامنصور فبماذا تسمى ذلك المنتحر

الذى لم يجد ثمن "مريلة" لابنته وبماذا تسمى سكان المقابر والعشوائيات الذين يســجدون لله شــكرا حين ينجحوا فى تدبير ثمن وجبة واحدة؟!..إنما الفقر الحقــيقى هو فقر الفكر وفكر الفقر..عبارة مازالت تتردد فى سمعى منذ قالها يوســف ادريــس فى مطلع الثمانينات.حدث ذلك فى ندوة ثقافية انعقدت بالاســكندرية لــيلة أن أفرج حسنى مبارك عن كل المعتقلين الذين زج بهم السادات الى السجون فى٥سبتمبر١٩٨١ قبل اغتياله بشهر بالتمام والكمال. لــو كان شعورى بالفقر حقيقيا لقاتلت بحثا عن المال ولما بحثت عن الثراء فى نهــدى مــاجده وبــين فخذيها وعلى شبكة الانترنت وتحت حائط المبكى وتهويمات الشيء الآخر أو بين صفحات الكتب وجدران المساجد..بل وربما لاتكون المسألة من أساسها فقر فكر أو فكر فقر، بل فقر روح شاردة جائعة تتوق الى الشبع فتضرب على غير هدى فى كل اتجاه باحثة عن الخلاص.

****

الآن وقد عملت بنصيحة العالم وجلست فى بيتى أتمهل وأتفكر كما أمرنى فيما كنــت قد نويت أن أفعله.تملكنى شعور طاغ بفرحة النجاة من هلاك محقق كنــت عــلى وشك الالقاء بنفسى اليه.يبدو أننى فقدت عقلى على أرض الحرية–وقد اعتاد الاستعباد–بفعل الصدمة الحضارية،وتحولت الى حالم دون كيشوتى يصارع طواحين الهواء،فاللهم لك الحمد والشكر على نعمة العقل وقــد استردها لى محمد العالم بقراره الحكيم.أى معتوه أنت يابن العالم الثالث حــتى تفكــر بمصارحة رئيس دولتك بأمنياتك للوطن أو حتى بمجرد مقابلته

وجها لوجه؟..يستحيل على النملة أن تخاطب فيلا لأنه لن يراها ولن يسمعها ولـــن يشعر بوجودها حتى لو عاشت فوق ظهره عمرا،فوجودها عنده وهم كبير يعيش فى مخيلتها كوجودك تماما.وكلما طال أمد التعلق بالوهم ضاعت ســـنوات العمر سدى واستحال استرجاعها فالزمن الفائت أبدا لايعود ومن عـــاش مات ومن مات فات وكل ماهو آت آت،وهأنا أرى الحياة مستمرة رغـــم مـــوت مؤمن،وحتى الدنس الذى كان يحيط بها فى حياته لايختلف عن الدنـــس الـــذى مـــازال يحـــيط بها بعد مماته،وقد أموت أنا الآخر قبل أن يزول،فالعجـــز الأزلى الأبـــدى عـــن إزالته قد كتب عليه الخلود فى أرض مصـــر،ولهذا وصف المقريزى المصريين بأنهم"يتسمون بالدعة والجبن والقنوط وقلـــة الصبر(وفى هذه الأخيرة أختلف معه كثيرا) والرغبة فى العلم وسرعة الخوف والحسد النميمة والكذب والسعى الى السلطان"..فلا الدنس مسئول عـــن مـــوت مؤمن ولا رئيس الدولة ولا رئيس الوزراء وبطانته الفاشلة ولا ارتفاع الأسعار ولا الفقر ولا الجبن ولا العبودية ولا الاستكانة والاستسلام والـــتخاذل والخـــنوع، وإنما المسئول عنه واحد لاغيره،ومادام هو المسئول فليكن مسئولا إذن عما نحن فيه وليخلصنا منه بقوته وجبروته وقدرته على أن يقول للشيء كن فيكون،وإلا لماذا يسهل عليه أن يزيل روحا بريئة فى لحظة ولا يســـهل علـــيه أن يـــزيل الظلم عنا ويرفعه فى لحظة مماثلة!..أستغفر الله العظيم. ثم انى رغبت فى التأكد من وجود هذا العقل المستعبد وذلك بالعمل

على إلغائه بصفة تجريبية حتى أتأكد من مقاومته وقوة حضوره فقلت أعود الى ماجده وأرى ماسيحدث.

قالت لى فى سخرية:

-عاش من شافك

كانـــت تـــرتدى ملابس سوداء وقد بدا عليها الانكسار والهرم.سألتها عن السواد فقالت:

-مات

لم أشعر بشىء تجاه موت زوجها،بل على العكس راودنى شعور خفى بالراحة ورأيت نفسى جالسا مجلس كلينتون فى بيته الأبيض وهى راكعة بين فخذى فى مقام مونيكا،بينما أنا منشغل بتدخين سيجارة وسألتها عن غريمى الآخر:

-وزياد..ما اخباره؟

-زياد هو الذى مات

جف ريقى ومات مؤمن وتيقظ العقل وتوهج وتألق والتهب.

-زياد؟!

-نعم..زياد

توقعـــت أن تـــبكى بعـــد أن أثـــرت أشجانها،لكنها كانت صامدة كأقوى الـــرجال.نزل الجسد من علياء عرشه وتخلى عن أمجاد شهوته وقال للنشوة المحرمة وداعا فالكل الى زوال.طال الصمت بيننا فقالت:

-سأحج الى بيت الله الحرام بعد أشهر بمشيئة الله

ماحكايـــة الموت هذا ولم يلاحقني على هذا النحو كلما أردت أن أفعل شيئا وكأنه يقول لي:"أحبب من أحببت فإنك مفارقه وافعل ماشئت فإنك مجزى به وعـــش ماشـــئت فإنك ميت"..وإذا لم أفد اليوم والآن من الموت كي أنهى مشاكلي المعقدة مع الحياة فلن أفيد شيئا من هذا الوجود.

****

لم أكـــن شـــاردا بينما كنت أسير وسط الطريق،بل كنت في ذروة الصحو والتركـــيز،لكن العـــربة المندفعة المسرعة أصرت على أن تدهسني وتسحق عظامي .

في المستشفى قلت لحنان:

-انها محاولة حقيرة منهم لاغتيالي

-من هم؟

-الجماعة

أبدت تأففها من ظنوني وأوهامي،وفي الحالتين أنا ميت كمؤمن الذى حاكمني وزياد الذى أهانني،سواء فعلت شيئا لنفسي وللآخرين أو لم أفعل.

-ولكن لماذا يغتالونك؟

لأنـــني جبان.لأنني متخاذل.لأنني انتهازي.لأنني متمركز حول ذاتي وأدعي كذبا أنني احمل هموم القارات الست فوق كتفي.لأنني يجب أن أموت قبل أن أخطـــو خطوة واحدة نحو تنفيذ ما اعتزمت عليه بعد الحادث،فأنا لا أريد أن أتجـــرع الســـم وسط تلاميذي لقاء جرأتي على أن أكون حرا باسم الآب

والابن والروح القدس وايزيس واوزوريس وحورس آمين.انى أفضل الهروب مـــن الاســـكندرية مادام الاسكندر الأكبر قد مات وفقدت بموته حمايتى من المحاكمة والقتل..

" اهـــرب الى عزلـــتك فقد أورثك الصداع صخب الكبار وآلمتك وخزات الصغار.اهرب الى عزلتك فقد طالت اقامتك مع الصعاليك والأدنياء.لاتقف حيـــث يصيبك انتقامهم الدساس.*"ومن المؤكد أننى التقيت فى وضح النهار بسقراط وأرسطو وزرادشت وجوجان وخلعنا جميعا ملابسنا وألقينا بأنفسنا فى بحـــر الحـــرية المقدس،فخير للإنسان أن يسىء عملا من أن تستولى الخيبة والمســـكنة عـــلى تفكـــيره*.مـــن الأفضـــل أن أموت كرجل من أن أعيش كحشـــرة.لـــن أهرب وأترك أسرتى وبلادى نهبا للمجهول وأسافر الى آخر الدنـــيا لأعـــيش وحيدا بلا أسرة ولاوطن ولا عشيرة ولا أحلام ولاحائط مصرى أبكى على جداره.إن ماينقصنى كى أكون رجلا ماهو الا لهب يطهرنى وجـــنون يستولى على حتى أغدو كالبرق الساطع من الغيوم السوداء فأزيل الدنـــس وأكشف الحقيقة وأعريها ورزقى على الله..انتظرونى أيها المنهوكون مـــن حكامكم منذ أن سخركم خوفو لبناء هرمه والخديوى سعيد لحفر قناة الســـويس وأثخنكم العرب بالخراج والجزية والسلب والنهب وسرق محدثو النعمة ملايينكم وهربوا بها الى خارج البلاد واحتكر أبناء الواصلين الوظائف والأعمـــال وتركوا أبناءكم نهبا للبطالة والاكتئاب والضياع..انتظرونى فأنا قادم اليكم.

أمام فراشي بالبيت وبعد امتثالي للشفاء قالت لي ايمان بعفوية شديدة:

-لماذا لاتبلغ البوليس يا أبي؟

-بماذا؟

-بهؤلاء الذين حاولوا اغتيالك

انفجرت في الضحك ولم أعلق وكان مؤمن يؤكد في ثقة أقرب الى اليقين على أنـــه لن يكون موظفا مثلي في يوم من الأيام وأنه يخطط لكي يكون حرا فهل كـــان يعني بذلك أنه سيموت أم أن الحرية هي الموت؟..وهاهو محافظ المدينة يتبخـــتر بغـــباء في موكبه المهول دون أن يشعر بعذاب الناظرين الى موكبه ومرارة شكواهم ولو دامت لغيره ما آلت اليه ولاعجب في زهوه واختياله- حتى لو كان خائفا في أعماقه-فجده هو القائل في أقدس كتاب:"ما أريكم الا مـــا أرى وما أهديكم الا سبيل الرشاد" وهو العاجز عن الرؤية والقاصر عن الهداية والمهيمن على شهيقي وزفيري ومخرجات أمعائي المتوترة.

[أبشـــر يامنصـــور.نحـــن على وشك تحقيق المعجزة.كن معنا ولاتتخل عن شـــجاعتك،فنور الحرية قادم ليبدد الظلمات.ان الفراعنة يرتجفون من شدة الخوف فقد شعروا باقتراب نهايتهم.]

..كذب!!.انهم يهلوسون،فمن أين تأتي البشرى والظلام غارق في الظلام؟..

[لم يعد مهما أن تلتقي بنا أو أن نلتقي بك،فلقد انصهرنا في الشعب وتوحدنا معـــه وتوحد معنا وأصبحنا جميعا فراعنة يونانيين رومانيين مسيحيين مسلمين عربا بحر أوسطيين أفارقة آسيويين، في مصهور واحد لانظير له على كوكب

الأرض الدوار،فلا أقل من أن نكون قادرين على ازالة الدنس عن تلك البقعة الصغيرة التى ننتمى اليها والتى جاء ذكرها فى الكتب المقدسة دونا عن غيرها من البقاع.]

هـــاهم يتنصــــلون من وعدهم باللقاء والتعارف.أنا لم أعد أصدق أكاذيبهم المتراكمة،فلقد رفعت مصر الأقزام فوق الأعناق وتركت الكلاب تنهش فى لحمهـــا والذئاب تعوى فى صحرائها والعناكب تعشش فى أرجائها وأصبحت قلـــة من المصريين تلتهم معظم الدخل القومى وأسماهم مفكر مصرى بالنخبة الطافية،بيـــنما يحصـــل بقية الشعب على الفتات المتبقى من الدخل وأسماهم بالكـــتلة الغاطســـة..ســـيعيش على أرض مصر فى ثلاثينات القرن الحادى والعشرين مابين المائة والمائة وعشرين مليونا من البشر.سيبنى الكثيرون منهم مساكنهم على أرض وادى النيل الزراعية التى ستصبح نصف مساحتها على الأقل غابة من الأسمنت المزدحمة بالمبانى والطرق والمنشآت،وسينتقل الى المدن جزء كبير من سكان الريف وستصبح القاهرة الكبرى عاصمة يسكنها ثلاثون ملـــيونا من البشر يعيش الجزء الأكبر منهم مكدسين فى مناطق عشوائية على أطـــراف المديـــنة وفى مســـاكن ليســـت بهـــا دورات مـــياه أو صـــرف صحى،وسيهجرها القادرون الى خارج المدن لبناء واحات لسكناهم بعيدا عن الزحام والضوضاء. سيزداد اعتماد مصر على العالم الخارجى لتزويدها بالقمح ومختلف المواد الغذائية.

[الجماعـــة هى الشعب والشعب هو الجماعة.كلنا روح واحدة فى رباط الى يوم القيامة.]..

الى يوم القيامة؟!..لن أنتظر حتى يوم القيامة وإلا سيأتى يوم على مصر قبل هـــذا الـــتاريخ المجهول يصدر فيه لويس جديد أمرا يقول فيه:"بما أن جميع المصـــريين متهمون بالعيب فى ذاتى،وبما أننى أميرهم الوحيد المرسل بأمر الله القـــادر العظـــيم،فإننى بصفتى هذه آمر بشنقهم جميعا.ولكن برحمتنا العالية وبعطفنا الأبوى فإنى آمر بأن تسحب الأسماء بالقرعة،وكل فرد واحد من بين خمســة عشر فردا فقط هو الذى ينفذ فيه الحكم شنقا"..لن أنتظر هذا اليوم الـــذى تقـــول بشائره انه فى وقت قريب ستكون عملية خصخصة مصانع القطاع العام والبنوك قد انتهت بانتقال ملكيتها الى نخبة منتقاة من المصريين بالاشـــتراك مـــع الشركات العابرة للدول والمتعددة الجنسية.وسيتم اغلاق المصـــانع الـــتى لـــن يكـــون فى استطاعة ملاكها الجدد ادخالها فى السوق العالمى،وسيكون اغلاق المصانع-أو حتى تطويرها-سببا للاستغناء عن أعداد كـــبيرة مـــن العـــاملين فـــيها وعـــلى كـــل المستويات مما سيسبب آلاما كـــثيرة.وبدخول مصر منظمة التجارة العالمية فإن الكثير من مصانع القطاع الخـــاص-والتى تعيش اليوم على حساب الحماية الجمركية-ستغلق أبوابها أو ستضـــطر الى الدخول فى شراكة مع رأس المال الأجنبى...[أبشر يامنصور فـــنور الحـــرية قـــادم ليبدد الظلمات]..صدقتم يارجال فقد نشرت جريدة الأهرام خبرا بقدوم سيلفان شالوم وزير خارجية شارون لزيارة مصر خلال

أيـــام ،ولهذا فقد اطمأن قلبى وانفرجت أساريرى ولم تسعفى الفرحة ، واذا اســـتمر الدنس على ماهو عليه للثلاثين سنة القادمة فإن الفروق بين دخول الناس ستزيد وسيستمر تكريس انشطار المجتمع الى شطرين:فى طرف منه نخبة قليلة العدد واسعة الثراء"تأكلها والعة" وفى طرفه الآخر كتلة الشعب المصرى التى ستهمش تماما ويعيش الجزء الأكبر منها على الفتات،وستعيش النخبة فى أحياء جديدة خارج المدن محاطة بأسوار وذات حرس خاص وعام،وسترسل أبـــناءها الى مـــدارس وجامعات خاصة وسترفه عن نفسها فى أماكن بعينها، وســـتترك النخـــبة لعامة الناس المدارس والجامعات الحالية والتى لامناص أن يكون مصيرها مزيدا من الانحدار..والكلام مازال للمفكر المصرى..وسيزداد اهتمام النخبة بتعليم أبنائها اللغات الأجنبية وفنون الادارة والعلاقات العامة لإعدادهـــم لإدارة الشركات وبيوت المال والتجارة التى يملكونها،ولتمكينهم مـــن الحـــوار مع شركائهم من مسئولى الشركات متعددة الجنسية والذين ســـيكونون مسئولين عن تطوير العمل ونقل التكنولوجيا.وسيحتاج الحفاظ على مثل هذه التركيبة الاجتماعية الى استخدام القهر وقبول العيش فى ظل قوانـــين استثنائية وتحت حكم الطوارىء وإطلاق يد أجهزة الأمن لإخماد أى تذمـــر يمكـــن أن تقوم به الأكثرية الغاطسة ومنع أى تجمع لها أو القيام بأى مظهـــر من مظاهر التعبير عن آلامها وآمالها،فالفكر لايكون حرا دون البوح بـــه والإفضاء،وفى مثل هذا الجو لابد أن نتصور أن استخدام أجهزة الأمان

الالكترونى واستئجار الحرس الخاص وبناء الأسوار سيتزايد،وأغلب الظن أن الاقبال على الهجرة الى خارج البلاد سيستمر ان لم يزد عما هو عليه الآن.

****

كنت أود أن أهمس فى أذن المفكر الكبير إذ تنبأ بتهميش كتلة من الشعـــب مستقبـــلا لأطمئنـــه بأن الشعب كله مهمش بحمد الله من الآن، و يكفينى أن أذكره بيـــوم الخميس ١٩٩٥/١٢/٢٩ و الذى وصفه أهل الاسكندرية بيوم العار ، حين قدم حاكم عربى لزيارة المدينة فقام رجال الأمن و المخابرات و المرور الأفاضل بإغلاق جميع الطرق عدا الطريق الذى سيمر منه جلالته ، و توقفت حركة المدينة بعد أن أصيبت بالشلل التام من الظهر و حتى منتصف الليل ، فتعطلت مصالح المرضى و الأصحاء و الحوامل ، و عاد الأطفال المحبوسون إما فى فصولهم و إما بداخل عرباقم المدرسية فى ساعة متأخرة من الليـــــل و قد جاعـــوا و بكوا و تبرزوا و تبولوا على أنفسهم و أصيب أهاليهم بالفزع و الهلع حتى فك الرجال الأفاضل أسرهم بعد مغادرة الحاكم المدينة مشيعا بالدعاء عليه و اللعنات.

****

ضـــبطتها متلبسة بإلقاء المظروف فى صندوق بريدى بمدخل البيت.سارعت بفـــتحه أمامهـــا وتجـــاوزت الســـطور الى التوقـــيع الـــنهائى فكان باسم الجماعـــة.أصـــيبت بارتـــباك شديد وكانت تهتز كالبندول وهى عاجزة عن الوقـــوف أو الانصـــراف،إذ لم تكن فيما يبدو تتوقع ظهورى المفاجىء لحظة وضعها الرسالة.

تسميها حنان بالأرملة الفاضلة،فهى جارتنا التى قتل زوجها فى انتفاضة١٨و ١٩يـــناير التى أطلق عليها السادات"انتفاضة الحرامية".التزمت بتربية ابنتيها وتعلـــيمهما وتزويجهما ثم عاشت وحيدة ولم تتزوج.حياتها مثل طيب للجيرة الطيـــبة والالـــتزام بالعفة والطهارة وحسن السيرة، فلم تتقول عليها ألسنة النساء بكلمة واحدة ونادرا مايحدث ذلك فى عالم النساء الا بمعجزة.

ما الذى يدفع سيدة محترمة مثلها لأن تأتى بهذا الفعل مالم تكن تستعيض عن وحدتها القاتلة البغيضة بالانغماس فى عمل وطنى خطير كالذى ضبطتها تقوم به الآن؟..لماذا اختارتنى من بين بقية السكان وهل هى عضوة بتلك الجماعة الغامضة مكلفة بدس الرسائل فى صناديق البريد؟.لقد توارى غيظى منها أمام احـــترامى وتعظـــيمى لوطنيتها رغم أننى مللت أسلوب الجماعة ومناوراتها وتفاؤلها المستند الى لاشيء. ومع ذلك سألتها فى دهشة شديدة:

-أنت؟!..

لم تتكـــلم وإن كانت حركة شفتيها المرتعشتين قد أوحت بالرغبة فى الكلام والعجز عنه.

–لم تفعلين هذا؟!..

–الحقيقة...

قاطعت تلعثمها بلهفة:

–نعم..أريد الحقيقة أرجوك فقد طال انتظارى لها

–الحقيقة انى اخترتك من بين سكان البيت أجمعين

–ولماذا أنا ؟

–لأنى أعلم باهتماماتك السياسية والثقافية

أدركـــت أن الســـر قد انكشف أمامى وأن لديها كلاما كثيرا تود أن تبوح به،ومدخل المنزل لايسمح بذلك أمام الغادى والرائح.دعوتها الى تناول فنجان من القهوة فى شقتى فسألتنى فى حياء صادق:

–هل حنان موجودة؟

–نعم

دهشـــت حـــنان وأنا أدخل عليها مصطحبا الأرملة..فتحت فمها وعينيها ورفعت حاجبيها دون أن تتساءل عن معنى الذى تراه.لكن ترحيبها بالأرملة كان جميلا.

–اهلا وسهلا يامدام عزة..تفضلى

ذهبـــت تعد لها شرابا فلحقت بها الى المطبخ وهمست فى أذنيها بكلمات حتى تتركنا وحدنا فعقدت الدهشة لسانها.

قالت لى:

-منذ زمن طويل اعتدت على وجود مثل هذه الرسائل بصندوق بريدى

-لست أفهم.هل تتلقين الرسائل مثلى أم أنت التى توزعينها على الخلق

-فى الـــبداية كنـــت أقـــرأها ولكنى اعتقدت أنهم أخطأوا الطريق اليك فصرت أضعها عندك

-أى أن الرسائل كانت توضع فى صندوقك أصلا ،لافى صندوقى

-نعم..لا..أحيانا

ازداد ارتباكها وتلعثمها..

-لكن مافيها يؤكد أنها مرسلة لى بالإسم

-ربما قصدونى فى البداية ثم أهملونى لعدم استجابتى واتجهوا اليك

-أفهم من هذا أنك لاتعملين مع الجماعة

-أنا لاأعرفهم ولا أتعامل معهم لكنى متعاطفة معهم أشد التعاطف .

...ياله من شعب مازوكى يتلذذ بتعذيب نفسه.أنا مازلت لا افهم شيئا حتى الآن.بعد كل العذاب الذى عانيته مع نفسى لاأفهم شيئا.خاب أملى ومازال الســـر غائصـــا فى أعماق المجهول رافضا أن يكشف لى عن نفسه.[الجماعة والشعب روح واحدة فى رباط الى يوم القيامة] ورسائل هذه الروح تطاردنى

بأكاذيب اللؤلؤة الزرقاء ومحمد العالم والعربة التى دهستنى والرجال الذين يراقبوننى وأخيرا الأرملة الفاضلة.

بعد مغادرتها الشقة كنت على وشك الانهيار. نصحتنى حنان بأن أجمد تفكيرى فى هذه المسألة ولو بصفة وقتية حتى أعطى لأعصابى فرصة كافية للراحة على أن أعاود التفكير بعد حين طال أم قصر.

أسرنى إشفاقها على واهتمامها بأمرى فاستجبت لنصيحتها ورحت أمارس عملى مع محمد العالم الذى تجاهل هذه المسألة تماما كما لو كان قد اتفق مع حنان على ذلك.

****

ذات مساء فتحت بريدى الالكترونى لأجد الرسالة الآتية:

[نحن لانخاطب عامة الشعب فقط فنحن الشعب كله. اننا سوف نخاطب أيضا كل من يمتلك كمبيوتر ويتصل بالانترنت من خلال البريد الالكترونى والنصر لنا بإذن الله]..ولكن كيف توصلوا الى بريدى الالكترونى؟..[نحن نعلم أنك قرأت مستقبل الثقافة فى مصر،والإسلام وأصول الحكم،وطبائع الاستبداد..ألا تشعر بالخجل من نفسك يارجل لأنك-بعد كل هذه القراءات-لم تفعل شيئا حتى الآن؟!]..لم يبق الا أن يعلنونى بمعرفتهم لتواريخ الأيام التى ضاجعت فيها زوجتى فى السنوات الأخيرة!..[ننصحك بالدخول الى المواقع الآتية:

1-www........@yahoo.com
2-www.........@hotmail.com
3-www.........@...org.eg

وذلك لتعرف ماذا يحدث بمصر فلا تكون من الغافلين].

وحـــتى لاأكون من الغافلين فتحت المواقع المذكورة لأقرأ مايشيب له شعر رأسى ولا أكاد أصدقه،لأن بلدا تعانى من كل هذا الفساد لابد من فنائها عن قريب.

حاولت الاتصال بالعنوان البريدى الذى بعثوا منه رسالتهم ولكن الاتصال لم ينجح وهذا ماتوقعته.

ضـــاعت فرصـــة التأجـــيل والاســـتراحة واشتعلت القضية فى رأسى من جديد.فقدت صفريتى التى طالما تغنيت بها وانضممت الى قائمة السلبيين الذين استمرأوا السير فى الوحل والضرب على أقفيتهم دون مبالاة.عدت الى إدمان الانترنت من جديد ورحت ألقى بنفسى الى المواقع التى حددوها لى وأقرأ بها مالا يجرؤ أحد على نشره فى مصر.شعرت برغبة جارفة فى اللجوء الى حائط المبكى وتدخين السجائر الملفوفة والاستماع الى مصطفى الزوربا.

****

لامنى مصطفى على القطاعى الطويل عنه.كان يعانى من مرض بالكلى أقعده لفـــترة طويلـــة بمنزله.جلسنا تحت الحائط وأفضيت اليه بما فى صدرى دفعة

واحـــدة.كان يستمع الى فى صمت عظيم كعادته.عندما توقفت عن الكلام سألنى بتلقائيته الفطرية المعهودة:

–هل عندك المزيد؟

–لا

–والله يا أخى ما أضحكنى الا النساء وما أضحكك الا عقلك

–كيف؟

–أتسأل عن الأولى أم عن الثانية؟

–الثانية

–قلت لك ان قلبك بحاجة الى عمرة صيانة تنقذه من الظلمة لكنك أهملته

–لكنك تتكلم عن عقلى المنهك لا عن قلبى المظلم

–وهل تنتظر السلامة لعقل يعانى صاحبه من ظلمة قلبه؟!

–بالراحة على ياصاحبى..الرحمة

–أنت الذى لاتعرف كيف ترحم نفسك

–كيف؟

–لـــو كان حال البلد يعذبك ويزعجك الى هذه الدرجة،ولاتستطيع أن تتجاهل الأمر مثلما أفعل،فأمامك حلان لاثالث لهما

–ماهما؟

–ارحل الى بلدة أخرى واشتر دماغك

–وإذا لم أتمكن من ذلك؟

-خذ مدفعا رشاشا واقتل به من شئت وتحمل النتائج

-أنت مجنون

-أقطع ذراعى ان لم يكن الجنون آخرتك

-غير معقول

-قلــت لك مائة مرة تولع الحكومة والحرامية والعرب والأمريكان بجاز وسخ فلم تسمع كلامى.

استفزتنى عــبارته الــتى سبق أن حفظتها عن ظهر قلب لشدة رفضى لها وإعجابى بها فقلت له متشفيا:

-لكــن الحــريق الــناتج من هذا الجاز الوسخ قد يطول بيتك ومقهاك يادرش..

لم أفلح فى استفزازه اذ قال بثقة لاحد لها:

-هذا كلام مثقفين لاينفع بشىء ولايضر فى شىء أيضا.

لم أعلق فواصل حديثه ساخرا:

-تكلم كما شئت ولسوف أستمع اليك وأبدى اعجابى بما تقول ثم ينتهى الأمر على ذلك وكل واحد سيروح الى بيته وينكح امرأته وينام وخلاص.

...وقال جمال حمدان بكبرياء العالم"لايعرف تاريخ مصر من ينكر أن الطغيان والــبطش من جانب،والاستكانة أو الزلفى من الجانب الآخر هى من أعمق وأسوأ خطوط الحياة المصرية عبر العصور،فهى فى الحقيقة النغمة الحزينة الدالة فى تاريخ الدراما المصرى..ولاينبغى لنا أن نخجل أو أن تأخذنا العزة فنهرب

أو نكابــر فى هــذه الحقيقة،كما أنه من الخطأ أن ندعها تترسب فى نفوسنا كعقدة تاريخية،بل لابد أن نجابهها بالتحليل العلمى والتشريح الموضوعى لنرى الى أى حد هى ظاهرة ظرفية مؤقتة رغم طول ما أزمنت،أو الى أى مدى هى نــتاج طبيعى-كما يزعم البعض-للمركب البيئى،وبالتالى فهى جزء لايتجزأ من مركبنا الحضارى"..

...وقلت أنا بكبرياء المهزوم:

-هل سمعت يادرش عن رجل اسمه جمال حمدان؟

أنا أعرف بالطبع انه لايعرفه،لكنى استشعرت لذة سادية تؤكد لى ان علماء مصر وعمالقتها من الرجال الأفذاذ قد أنفقوا حياتهم سدى.

-هع!..أنا سمعت عن رجل ثان اسمه جمال عبد الناصر

-وهل أحببته؟

-رجل جدع..كان يحب الفقراء

-والسادات؟

-داهيه..ومع ذلك أودى بنا فى داهيه

-ومبارك؟

نظر الى فى تشكك لم ألحظه عليه من قبل،لكنه قال باسما بعينين تشعان ذكاء وحنكة:

-ربنا يخليه لنا

شعرت أنه يخاطبنى كما لو كنت ضابطا بالمباحث فعاودت مشاغبته:

-من قلبك يادرش؟

الفجر ضاحكا وهو يقول:

-لأ..من عينى ياصاحبى

ســـألته على استحياء عن سعر الصنف فضحك قائلا ان التاجر الانتهازى الطمـــاع قد عاد اليه ذليلا بعد أن كسر أنفه بالإضراب عن الحشيش لفترة طويلـــة فخفض له السعر كما شاء،وفوجئت به يخرج لى علبة من السجائر المحشوة قائلا:

-كانت فى انتظارك منذ أن اختفيت

أخرجـــت منها سيجارتين.قدمت له واحدة ليشعلها فرفض قائلا انه فى غير حاجة اليها الآن.أشعلت سيجارتى ودخنتها بنهم عميق ثم أعقبتها بثانية وثالثة وشـــعرت برغبة قوية فى الاختلاء بنفسى بعد أن انصرف عنى مصطفى الى أصحابه.

****

اســـتأجرت قاربا وجدفت بحماس حتى بعدت كثيرا عن الشاطىء فوضعت المجدافين على جانبى القارب ومددت جسدى مسترخيا فى هدوء.كان البحر ســـاكنا كالنوم وقد بهرتنى مياهه الخضراء الصافية وانتشيت بهسيسها وهى تلامـــس ضفتى القارب فى عناق مستديم.التهمت بقية العلبة،والنسيم العطر يرف على وجهى *فأشعر بنشوة عارمة وأنا أرى عرائس الماء ترقص من حولى وكنـــت بحاجة الى مؤانسة ومسامرة فأتيت بالأرملة الفاضلة ذات الخمسين*

ربيعا وجردتها من ملابسها وركت أنمل سلافة الحب من أعطافها والماء اللعوب يهز بنا القارب هزا وئيدا رئيقا . كانت الأرملة كائنا رقيقا كزنبقة على غصن رطيب فرحت أبلل فمي الظامىء من ثغرها الراوى بقبلات الحب المسكرة. قلت لها حدثيني عن السحر والجمال فتدفقت كلماتها كتدفق الخمر فى الكأس ولما توقفت عن الكلام رأيت فى صمتها حلما جميلا فى أجفان عاشقة يترقرق الجمال فى جسدها الظمآن للحب وتلتمع فى فمها المكتنز ثنايا من اللؤلؤ الرطب فأعتصرها وأستحلب رحيقها وأناجيها وأرتشف معها من كؤوس الهوى وقلت لها غنى لى فأنا محروم من أنغام الحرية فشدت لى كعندليب شف قلبه الصغير وصارت العصافير ترجع ألحانها من حولى لتثلج صدرى المكلوم وجاءنى ملك كريم وضع على رأسى تاج الملك العظيم فأصبحت حاكما للعالم بأسره أدير شئونه كيفما أشاء فقررت أن أجعل من الحرية دينا لشعوب الأرض واستخرت الله فيما قررت فأيدنى برحمته وحنانه ووضعت رأسى بين ذراعيها المرمريتين فوق صدرها الناهد وذبت فى جسدها الريان حين هبت أرواح الملكوت من سباتها تبارك ملكى وحكمى وحبى وعشقى وتحولت الى روح شفافة ترف فى زرقة السماء فلم أشعر بالشمس وهى تغرب ونحن معا فى القارب نستضىء بضوء البدر العاشق وينبض قلبانا بدماء العذارى الباعثة بأطيافها النورانية فى الأفق، وأصدرت أول أمر لى بالقبض على كل الحكام الدكتاتوريين فى العالم ووضعتهم جميعا فى جزيرة نائية وأمرت بإمدادهم بالطعام والشراب حتى الموت، وهكذا تحول

العالم بين يوم وليلة الى جنة عطرة تفوح بشذى الورد وعبق الرياحين وتتراقص فيها أعواد الزنبق وتغنى الطيور..وقالت لى:

-ألا ترتوى من العشق أبدا ياحبيبى؟

-نعم ، فدونه الموت

-انى لا أقوى على احتمال هذا النعيم.دعنى أتنفس وأستريح.

ولما غادرتنى ألقيت بنفسى عاريا فى الماء ورحت أسبح بين الأسماك وعرائس البحر حتى اكتفيت ثم عدت الى القارب وأنا فى كامل نضارتى وإشراقى وبهجتى وحيويتى وعشقى للحياة.شربت أربع علب من البيرة ونظرت الى السماء قائلا:

-يارب أنا خادمك المطيع وعبدك العاصى وعاشقك الصب الولهان،فاسبغ على رحمتك وغفرانك وادخلنى فى زمرة عبادك المخلصين.

عدت بالقارب الى الشاطىء هائما فى الملكوت وتوجهت الى المسجد.غصت فى لجة حلقة الذكر مرددا مع الذاكرين اسم الجلالة فى نشوة وخشوع وتمنيت أن أقبض على يوشع العصر شارون لأضمه الى المعتقلين من أعداء الحياة والحرية فى الجزيرة النائية وأمنع عنه وحده الطعام والشراب لكنى تذكرت انى لم أعد ملكا على العالم منذ لحظات فشعرت بذنوبى الصغيرة تحيط بى من كل جانب حتى أورثتنى خوفا شديدا فقال الرسول عليه الصلاة والسلام:"إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه"..وقلت انى هالك لامحالة فى الآخرة كما هلكت فى الدنيا،وقال جل

جلاله:"ياعبادى ان كنتم تعتقدون أنى لا أراكم فالخلل فى ايمانكم وإن كنتم تعتقدون أنى أراكم فلم جعلتمونى أهون الناظرين اليكم؟"..فقلت يارب العرش العظيم ياحنان يامنان يابديع السماوات والأرض يارفيع الدرجات ذو العرش ياذا الجلال والاكرام بارك فى ابنتى التى رفعت على راية العصيان و انتشلها من السراب الذى تركض بعمرها نحوه ، أنا غير معترض على قضائك بأخذ مؤمن الذى تمرد على بعد موته ، ولكن لم لا تأخذ معه كل من نعرفهم وتعرفهم من الأسافل والأدنياء الذين أفسدوا حياتنا ودنسوها وتترك لنا الأطهار والشرفاء؟..لم لاتأخذهم وتريحنا فقد عجزنا عن التخلص منهم منذ آلاف السنين..يارب العرش العظيم برحمتك أستغيث..خلصنا منهم.خلصنا منهم يارب.

****

-١٧-

فى احـــدى الجرائد المحلية عديمة الجدوى ، معدومة الانتشار ، و التى تشغل الاعلانـــات نصـــف حجمها و يشغل النصف الآخر صور المحافظ و رئيس الجمهورية و رئيس الحكم المحلى ، كتب عنى صحافى فاشل يقول "ان رجلا مهووسا مختل العقل!! يتجاوز الأربعين من العمر ويدعى منصور عبد الرازق قد اقتحم قرب الفجر منزل الأستاذ الجامعى الدكتور أدهم جبريل حيث كان الدكتور مع زوجته فى وضع حميمى،فأفرغ فى صدره رصاص مسدسه وراح يرقص ويغنى بكلمات غير مفهومة عن الحرية،بينما تعالت صرخات الزوجة تطلب النجدة من الجيران.

****

سعيد سالم

الاسكندرية فى مارس٢٠٠٤

نبذة عن القضايا التى يتناولها سعيد سالم فى أعماله
وآراء النقاد والكتاب حولها

أولا: تعريف بالكاتب سعيد ســـــالم *

-سعيد محمود سالم

-من مواليد الاسكندرية ١٩٤٣

-عضو اتحاد كتاب مصر.رقم العضوية ٤٠٠

-عضو اتحاد الكتاب العرب.رقم العضوية ٦٢٤

-عضو لجنة النصوص الدرامية بالادارة المركزية للإذاعة والتليفزيون

-عضو هيئة الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

-عضو أتيليه الكتاب والفنانين

-عنوان المنزل ٥شارع على باشا ذو الفقار شقة ١٠ بمصطفى كامل.الاسكندرية

-تليفونات:المنزل٥٤٦٢٨٦٩ الموبايل٠١٢٤٣٩٠٢٥٩ العمل ١٣ / ١١ / ٥٦٢١٨١٠

-المؤهلات:١-بكالوريوس الهندسة الكيمائية ١٩٦٤.كلية الهندسة.جامعة الاسكندرية

٢-ماجستــير الهندسة الكيمائية ١٩٦٨. كلية الهندسة.جامعة الاسكندرية

-المهنة: رئيس القطـــاع الفنى بشركة الورق الأهلية (سابقا) ومهندس استشارى حاليا

مجمل أعمال الكاتب حتى عام ٢٠٠٤

-فى مجال الرواية: ١٢ رواية

-فى مجال القصة القصيرة: ٩مجموعات قصصية

-فى مجال الدراما الإذاعية: عشرات المسلسلات والسباعيات والسهرات الدرامية بإذاعتى القاهرة والاسكندرية.

-فى مجال المسرح:مسرحيتان كوميديتان كل منهما فى ثلاثة فصول

----

* أعد هذا الملف الاستاذ الدكتور محمد زكريا عنانى بالتعاون مع المؤلف

–فى مجال النقد الأدبي:مجموعة دراسات عن أعمال بعض الكتاب المصريين والعرب نشرت بمجلات وجرائد مختلفة.

–فى مجال المقالة: مجموعة مقالات ثقافية وسياسية واجتماعية نشرت بمجلات وجرائد مختلفة.

أهم الجوائز التى حصل عليها الكاتب :

١–جائزة إحسان عبد القدوس الأولى فى الرواية لعام١٩٩٠ عن رواية "الأزمنة" الصادرة عن روايات الهلال بالقاهرة.

٢–جائزة الدولة التشجيعية فى القصة القصيرة لعام٩٤/٩٥ عن مجموعة"الموظفون" الصادرة عن مطبوعات اتحاد الكتاب العرب بدمشق.

٣–جائزة اتحاد كتاب مصر فى الرواية لعام ٢٠٠١ عن رواية "كف مريم".اتحاد الكتاب بمصر.

٤–رشح لجائزتى التفوق الأولى والثانية لعام ٢٠٠٢–

مجالات نشر قصصه القصيرة :

على مدى مايقرب من ثلاثين عاما نشرت له مئات القصص القصيرة والمقالات فى الجرائد والمجلات المصرية والعربية الآتية:

الأهرام–الأخبار–أخبار اليوم–أخبار الأدب–الجمهورية–المساء–أكتوبر– حواء–مايو–الهلال–الثقافة–الكاتب–إبداع–آخر ساعة–روز اليوسف– القصة– عالم القصة–البعث–تشرين– الموقف الأدبي–الآداب–الثورة–الأسبوع الأدبي–البيان–الأنباء– العربى–الفيصل–المجلة–الحرس الوطنى–الشرق الأوسط–الدستور– الرأى–اليوم السابع–صباح الخير–الكويت–البحرين الثقافية–الرافد.

الروايات المنشـــــورة :

١–جلامبو	جماعة أدباء الاسكندرية	١٩٧٦
٢–بوابة مورو	جماعة أدباء الاسكندرية	١٩٧٧

٣-عمالقة أكتوبر	الهيئة المصرية العامة للكتاب	١٩٧٩	
٤-آلهة من طين	الهيئة المصرية العامة للكتاب	١٩٨٥	طبعة أولى
	دار الجليل بدمشق	١٩٨٦	طبعة ثانية
٥-عاليها واطيها	وزارة الثقافة بدمشق	١٩٨٥	طبعة أولى
	دار المستقبل بالقاهرة	١٩٩٢	طبعة ثانية
	الهيئة المصرية العامة للكتاب	١٩٩٥	طبعة ثالثة
٦-الشرخ	دار طلاس بدمشق	١٩٨٨	
٧-الأزمنة	روايات الهلال بالقاهرة	١٩٩٢	
٨-الفلوس	دار المستقبل بالقاهرة	١٩٩٣	
٩-الكيلو ١٠١	دار المستقبل بالقاهرة	١٩٩٧	طبعة أولى
	الهيئة المصرية العامة للكتاب	١٩٩٩	طبعة ثانية
١٠-كف مريم	اتحاد كتاب مصر	٢٠٠١	
١١-حالة مستعصية	روايات الهلال	٢٠٠٢	

المجموعات القصصية المنشورة:

١-قبلة الملكة	اتحاد الكتاب العرب بدمشق	١٩٨٧
٢-الموظفون	اتحاد الكتاب العرب بدمشق	١٩٩١
٣-الجائزة	قايتباى للطباعة والنشر	١٩٩٤
٤-رجل مختلف	الهيئة المصرية العامة للكتاب	١٩٩٥
٥-الممنوع والمسموح	مختارات فصول	٢٠٠٢

المجموعات القصصية تحت النشر:

١-أقاصيص من السويد	مكتبة الأسرة
٢-هوى الخمسين	-
٣-قانون الحب	الكتاب الفضى
٤-رحيق الروح	-

ثانيا:القضايا الجوهرية فى أعمال سعيد سالم

تـعرض أعمـال سـعيد سالم الروائية والقصصية والدرامية للعديد من القضايا والأفكار المعاصـرة ذات الطابع الانسانى من خلال لغة سردية عالية تجمع بين التفلسف والسخرية، يتخلـلها حـس صوفى ازداد ظهوره فى إبداعاته الأخيرة. وإذا كانت لغة الواقع هى اللغة السائدة فى معظم أعماله فإنه يمزج بها الخيال والفانتازيا أحيانا فى أشكال فنية متعددة دائمة التطور والتغير بما يتلاءم مع طبيعة المضامين الفكرية التى يتناولها.

وهـو لايعتمد بصفة أساسية على السرد،وإنما يستخدم بتلقائية فنية وسائل متنوعة يطوع فـيها سـائر الفنون الأخرى لخدمة فنه الروائى،فنجده يستخدم الحوار الاذاعى والمسرحى والمونولـوج الداخلى والرسائل المتبادلة وحديث الشخصيات والسيناريو السينمائى وتيار الوعـى فى مزيج يشعل من لهيب العمل ويزيد من جاذبيته.ومن ثنايا حديثه لنادى روتارى شرق الاسكندرية فى٢٠٠١/١/٨ نتلمس إحساسه بأهمية الرواية كفن أدبى،ودورها المؤثر فى المجـتمع مـن حيث مخاطبتها للعقل والوجدان،رافضا مذهب الفن للفن،فالفن عنده وسيلة لتحقيق التناغم والتصالح بين الانسان ونفسه من جهة،وبينه وبين الحياة والكون والخالق من جهة أخرى،وهو يرى أنه رسالة تحمل من الدلالة أكثر مما تحمل من الفكر.

والمتابع لمراحل التطور الفنى لأعمال سعيد سالم يمكنه أن يقسمها الى مراحل خمس.من هذا المـنطلق نجـد أعمالـه الأولى"جلامبو-بوابة مورو-عمالقة أكتوبر"تتناول قضية الانتماء، لابدرجاتـه المتصـاعدة ابتداء من لدى الأم وانتهاء بالكون العظيم والخالق الأعظم، وانما باختـيار الانـتماء للوطن بصفة خاصة.وفى مرحلة تالية:"آلهة من طين ومجموعات قصصية أخرى"يتناول فكرة خلاص الانسان من خلال الدين والفن،ثم يقترب من الفانتازيا فى مرحلة ثالـثة:"عاليها أسفلها-الأزمنة-قبلة الملكة -الموظفون-رجل مختلف"-يتعرض فيها لقضايا أخـرى كهويـة الـثقافة المصـرية،وظاهرة الفسـاد الذى استشرى فى المجتمع،ومفهومه للحرية،ورؤيته للوجود الانسانى..ماذا يريد الانسان من الحياة وكيف يحقق سعادته..ويغلب على هذه المرحلة طابع التأمل والتفلسف والتساؤل.

وفى المرحلة الرابعة يتصاعد اهتمامه بالقضايا السياسية القومية والعالمية من منظور انسانى ، كمـــا يــتعرض فى هذه المرحلة لتناول فكرة المال وعلاقته المعقدة بالانسان، ويلاحظ غلبة التحلـــيل النفســـى عـــلى معظـــم أعمال هذه المرحلة:"الشرخ– الفلوس– الأزمنة–حالة مستعصية–الجائزة".

وفى المـــرحلة الخامســـة يتصاعد الحس الرومانسى والصوفى فى روايتيه الأخيرتين:"الكيلو ١٠١"و"كـــف مـــريم"، ويتسع أفق رؤيته للإنسان والكون والحياة، وتتبلور رؤيته لطبيعة التـــناقض بين العديد من الثنائيات الفكرية كالأصالة والمعاصرة، أوالفرد والمجتمع، أو الدين والدولـــة،أو الأصولية والليبرالية، من خلال تناوله لقضايا معاصرة كالاغتراب والإرهاب والعلمانـــية والفتنة الطائفية، وفى "كف مريم" بصفة خاصة كان أمرا مثيرا للدهشة أن يتم تناول مثل هذه الموضوعات الشائكة من خلال قصة حب رومانسية شديدة الخصوصية بين رجل وامرأة من ديانتين مختلفتين وقد تجاوزا مرحلة الشباب.

ومـــن الممكن أن نلقى بنظرة عاجلة على تلك المضامين التىتناولها سعيد سالم بجرأة شديدة ومكـــر روائـــى كما وصفها الدكتور صلاح فضل ،وذلك من خلال آراء النقاد والكتاب الذين أدلوا بدلوهم فيما كتب :

الانتمـــــــــــاء:

كـــثيرا مـــا عبر سعيد سالم عن فكرة الانتماء–عند الشباب بصفة خاصة–سواء فى بدايات أعمالـــه الروائـــية والقصصية، أو من خلال أحاديثه الصحافية والإذاعية،بأنها أشبه بوثيقة مواطـــنة موقعة من طرفين هما الوطن والمواطن–"قصة المواطن.أخبار اليوم / /٢٠٠٢"– وأنـــه إذا غاب توقيع أحد الطرفين أصبح التعاقد بينهما لاغيا.فإذا كان الطرف الغائب هو الوطن–لأسباب يتناولها– فإن هذا يؤدى بدوره إلى احتمالات عديدة:

*اغتراب الشاب خارج وطنه بحثا عن وطن آخر يوقع معه على الوثيقة.

*اغتراب الشاب داخل وطنه بتعرضه للاكتئاب والإحباط والألم.

*اغتراب الشاب داخل ذاته بانضوائه تحت ألوية التمرد والتطرف والانحراف

وقد تعرض في رواياته الثلاث الأولى"جلامبو-بوابة مورو- عمالقة أكتوبر" لنماذج ثلاثة من الشـباب اللامنتمي الذى يعتصره الضياع ويهدد مستقبله ووطنه، والشباب ذى الانتماء السلبي الـذى تعوقه مسببات اجتماعية أوسياسية أو نفسية عن تحقيق انتماء يرغب فيه ويعمـل جاهدا على تحقيقه، والشباب ذى الانتماء الإيجابي الذى كتب عليه أن يبذل حياته مناضلا لأعتى قوى الشر والفساد والطغيان حتى يحقق ذلك الانتماء.

ولقـد فوجىء الكاتب فيما يبدو بأن نقادا وكتابا كنجيب محفوظ والدكتور على الراعى والدكـتور يوسف إدريس ويوسف الشاروني والدكتور سيد حامد النساج والدكتور محمد مصطفى هداره والدكتور السعيد الورقى والدكتور محمد زكريا عنانى والدكتور عبد العزيز الدسـوقى والدكتور يوسف عز الدين عيسى، قد استقبلوا هذه الأعمال باهتمام شديد مما جعل سعيد سالم يصرح بأنه أصيب بالرعب عندما قرأ هذه الآراء حيث كان شعوره بفداحة المسـئولية عما يمكن أن يكتبه مستقبلا ،أقوى بكثير من شعوره بالفرحة لهذا الاهتمام غير المنتظر.

الديـــن والفـــن:

لعلـه مـن الملفت للنظر ألا تكاد رواية من روايات سعيد سالم تخلو من إشارات فنية إلى مقدسات دينية إسلامية أو مسيحية أو يهودية، إن لم تتناول أعمال بكاملها:"آلهة من طين- الكيلو ١٠١-كف مريم" التعرض لفعل الدين عند الانسان،إذ يرى سعيد سالم أن "خلاص الانســان فى الأرض لايـتحقق إلا بالحب،وأن خلاصه فى السماء لايتحقق إلا بالدين، وأن الفـن هو الجسر البرزخى الذى يصل بين الخلاصين". وهو ككاتب مسلم يعترف بالأديان الـثلاثة ، يؤمـن-كما يتبين من كتاباته- بأن النصوص الدينية الثلاثة أشبه بطبعات ثلاث متتالـية لكـتاب واحـد آخـذة فى الـتطوير والتنقـيح حتى انتهت إلى طبعتها المثالية الإسلامية.فإذاكانت الديانة اليهودية تمثل عالم الملك والقوة والمادة والإله الجبار،فإن الديانة المسـيحية تمثل عالم الملكوت والتسامح والروح المتسامية والإله الرحيم، بينما تمثل الديانة الاسـلامية وسطا متوازنا رائعا بين عالمى الملك والملكوت،وبين القوة والتسامح،وبين المادة

والــروح،ولا عجــب فهــي ديانــة الإله العــــــادل".(حوار بندوة روتارى شرق الاسكندرية).

وعــلى ذلــك فــإن العبرة عنده بجوهر الأديان الواحد بما تدعو إليه جميعا من حق وخير وجمــال، الأمر الذى تؤكده دعواه الفنية المتكررة بنبذ التعصب والتطرف من جهة، وعدم الخلط بين المطلق والنسبى من جهة أخرى"مقالة المطلق والنسبى-نشرة اتحاد الكتاب.فبراير ٢٠٠١"-ورواية"حالة مستعصية". ومن خلال روايته"كف مريم"الحاصلة على جائزة اتحاد كتاب مصر لعام٢٠٠١ يصف الدكتور السعيد الورقى-"الأهرام١١/١١/٢٠٠١"-سعيد ســالم بأنــه"حكواتى مثقف يملك تلقائية الحاكى الذى يظل مسيطرا على ذهنك حتى نهاية الحكاية، وهكذا كان يوسف إدريس العظيم.وقد استطاع سعيد سالم أن يصنع نسيجا سرديا مثقفا، فيه شاعرية الأداء والتصوير،وديناميكية الحركة المتدافعة،وسحر اللغة الصورة، وعمق الفكر، فى جدل الحوار الذهنى.وقد تناول الكاتب قضية الإرهاب -وهذه براعة منه-دون تحديد قاطع لهويته ،مع أن القتلة ملتحون والقتيل مسيحى،إلا أن الكاتب مسها وكأنها قضية صــراع طبقى ولورة الاحساس بقهر الحاجة وتمرد المتخبط بين ايديولوجيات الفكــــر. وقد استغل الكاتب قصة الحب الشائكة بين حليم ومريم بما فيها من رومانسية شاعرية رقيقة لــيطل على عدد من القضايا الواقعية والفكرية كتلاقى الأديان وذوبانها فى دين واحد،وهل يمكن لمريم المسيحية وحليم المسلم أن يذوبا فى كيان واحد ووجدان مشترك، وهل يستطيع الحب والتسامح أن يحققا هذا؟..كما تناول قضية الاغتراب خارج الوطن وداخله. ولاتقف براعة سعيد سالم-فى روايته كف مريم-المانع المانع على قدرته فى وضع تصميم بنائى محكم لعمله،ولا على دقته فى رسم شخصياته،وفى تكوين علاقات هذه الأشخاص ببعضها وبنفسها وبــالحدث، ولا عــلى منظومة القضايا والأفكار التى كانت حاضرة فى ذهنه وحركها من خــلال شخصياته،ولا على التوازن الحسابى الدقيق لاستحضار أصوات شخصياته وتناسب حجمهــا مع حضورها، وإنمــا يقف على قمة براعته الأدائية لغـــة السرد لديه بما فيها من شاعرية مثقفة وما فيها من قدرة حركية تمتلك خصوصيات السرد".

ويلاحظ أن نفس الناقد قد سبق له أن تناول أولى روايات الكاتب بالنقد منذ خمسة وعشرين عاما على وجه التحديد.

وعن نفس الرواية وصفه الكاتب عبدالعال الحمامصي "مجلة أكتوبر ٢٠٠١/١١/٢٣ "بقوله:"منذ بزوغه مبدعا موهوبا فى السبعينات من القرن الآفل،أعطانا الكاتب السكندرى الكبير سعيد سالم مجموعة كبيرة من الأعمال الإبداعية روائيا وقاصا.وقد حملت هذه الأعمال من القيمة الأدبية ماجعله واحدا من أعلام الحركة الإبداعية بين أدباء الجيل".

وتصفه الناقدة فوزية مهران"جريدة الأسبوع العدد٢٠٠١/٢٣٥ "بتألق أسلوب السرد المبدع وارتفاعه الى شاعرية نادرة بمقامات الحب والعشق والقدرة على تصوير المشهد بالحوار الذكى الموحى ليحيط بما يجرى على أرض الواقع وداخل النفوس".

وقد عبر الناقد السورى شوقى بغدادى فى مقدمته للطبعة الثانية من رواية "آلهة من طين" عن رأيه فى هذه الرواية بقوله:"إن سعيد سالم شخص لايمكن نسيانه بعد الآن.لقد صار لكلماته معناها الحى الحاضر فى الذهن وكأنى أعرفه شخصيا منذ سنين عديدة،ذلك أن الرواية لم تكن مجرد متعة فنية،بل كانت أيضا وثيقة شخصية فى اعتقادى على صاحبها ، فالاسكندرية كبيئة والتخصص العلمى كخلفية والخصوصية المتفردة كأداء ، كلها كانت حاضرة فى الرواية بشكل أو بآخر كى تزيدك معرفة لابالفنان وحده ،بل بالانسان الذى يحمل إسم سعيد سالم ، ذلك الكاتب الذى يتميز بالاندفاع الشديد المتدفق بوتيرة متسارعة يلهث فيها القارىء والكاتب معا ، وكأن المخزون العاطفى والفكرى عنده يخضع لعملية انفجار أكثر منها عملية تأمل ،ولا تستطيع مناقشة الكاتب فى هذه المسألة ، ذلك لأنها تعود بالدرجة الأولى إلى طبيعة تكوينه كإنسان ذى توتر داخلى بالغ الشدة."

ولأن الشكل الفنى التقليدى قد لايتلاءم أحيانا مع طبيعة مضمون شديد الأهمية والحساسية كالدين ، فإن سعيد سالم-كما يقول الدكتور محمد مصطفى هدارة فى كتابه:النثر العربى الحديث ١٩٩٤-"لايعتمد على سرد الحكاية فقط وإنما يستخدم المونولوج الداخلى استخداما جيدا بلغة شاعرية شديدة التكثيف سريعة الإيقاع، ويوظف الرمز بصورة إيحائية تستثير الفكر وتجعله دائم اليقظة،وهو يجنح قليلا الى السوريالية فى بعض الأحيان ولكن دون

إغراق فى الغموض . ولاشك أن عينه الناقدة التى تعى جيدا ظروف مجتمعها كانت موجودة فى أقاصيص قصيرة تناول فيها بعض قضايا المجتمع المصرى ولكنها لم تكن مرتبطة بفرد بل بمجتمع وأمة على المستوى الإنسانى العام".

وسعيد سالم يعشق التجديد فى الشكل:" الظاهر والباطن.ملحق الأهرام٢٠٠٠/٩/٢٩ "وقصة"رحيق الروح.ملحق الأهرام ٢٠٠١/١٢/٢٨"(وهما تنتميان إلى مجموعة رحيق الروح)حيث نجد القصة مكونة من مجموعة مختلفة من الأقاصيص،كل أقصوصة قائمة بذاتها، لكن مجموعة الأقاصيص فى مجملها تشكل محورا فكريا ووجدانيا مشتركا.كما نجد أن رواية"آلهة من طين"-التى سبق أن تقررت دراستها فى منتصف الثمانينات على شعبة السيناريو بمعهد السينما تحت إشراف الدكتور محمد كامل القليوبى-تجمع بين السرد والمونولوج الداخلى والرسائل المتبادلة والحوار الإذاعى والمسرحى.وقد كتب عنها الناقد السينمائى الدكتور رفيق الصبان فى مجلة روز اليوسف١٩٨٩/٣/٢٧ قائلا إنها"لو وجدت طريقها الى الشاشة فسوف تترك فى النفوس أثرا يماثل إن لم يفق الأثر الذى تركه قنديل أم هاشم ليحيى حقى أو شحات لنجيب محفوظ."

وفى رواية"الأزمنة"نجده يدخل-لأول مرة-السيناريو السينمائى فى نسيج العمل الروائى بتلقائية شديدة ودونما افتعال،بينما نجده يترك شخصياته تكشف عن خبايا نفسها وعن علاقتها بالآخرين بضمير المتكلم فى روايته"كف مريم".ورغم أن هذا التكنيك ليس من ابتكاره إذ سبقه إليه البعض ،إلا أننا نجد جمل الحوار عنده مختلفة حين يرويها طرفا الحوار كل من وجهة نظره .

الثنائيات المتناقضة:

مثلما اعترض سعيد سالم على مايمكن أن يشكل تناقضا بين الدين والفن، فالفن جمال والله جميل،نجده يرفض وجود جبهتين فكريتين متصارعتين تكاد تكفر كل منهما الأخرى باعتبارها صاحبة الحقيقة الواحدة والمطلقة، ذلك انه يؤمن بالحل الذى يقوم على التكامل لاعلى التفاضل ،فهو يرى مثلا انه كلما تعمقت الأصالة تألقت المعاصرة"فى حديثه لمجلة

الشـــراع اللبنانية٢٧/١٢/"١٩٨١- حيث يتوقف الأمر على حسن انتقاء مايلزم ورفض مـــالا يلـــزم،بما لايتعارض مع القيم الانسانية النبيلة من جهة أو مع قيم الحداثة والتقدم من جهة أخرى،بذلك تكون الحصيلة تكاملية لاتلفيقية.أما التشبث بالماضى بحذافيره دون اعتبار لمـــرور الزمن و تجدد متغيراته ،أو الأخذ بأسباب المعاصرة من الغرب المتقدم كما هى بخيرها وشرها فذلك كله مرفوض.وهو يرى أن تبنى هذا الفكر التكاملى يؤدى الى ازالة الكثير من التـــناقض بـــين اتجاهـــات فكـــرية عديـــدة مازالت فى جدل عقيم حتى الآن كالأصولية واللـــبرالية،التراث والحداثة،الفرد والمجتمع،الدين والدولة، وغيرها من التيارات المتقاتلة فى ضـــراوة والـــتى تكرس حالة من الانفصام الفكرى على مستوى المجتمع والفرد وتؤدى فى الـــنهاية إلى التردد والعجز عن اتخاذ قرارات مصيرية أصيلة قائمة على المبادرة بالفعل وليس على رده فقط:"رواية حالة مستعصية".ولعل حيوية الدراما فى مجمل أعمال سعيد سالم ترجع بالدرجة الأولى إلى احتدام الصراع الفنى والفكرى بين العديد من المتناقضات التى نراها ممثلة فى شخوصه وأحداثه.

المـــــــــــــــال:

بقيت فكرة المال وعلاقته بسعادة الإنسان مستترة فى بعض أعمال سعيد سالم التى تسخر مما آلت إليه حياتناالمعاصرة من تعليب للوعى و تسعير للشعور وتسويق للوجدان حتى بدأ العالم يتحول إلى غابة لايستطيع الحياة فيها سوى أقوى الوحوش، إلى أن اقتحم معاقلها بجرأة فنية تجريبـــية فى روايـــته"الفلوس"ومسلسله الدرامى"رحلة الصعود والهبوط.إبريل١٩٩٤". إنه يؤكـــد لـــنا مـــن خلال حكيه الفنى المحكم-والذى اشترك فيه الحيوان مع الانسان-على بديهيـــات قد نعلمها جميعا ولكننا ننساها فى خضم الحياة،وهى أن المال وسيلة لاغاية،وهو زائـــل لامحالة إما لأسباب دنيوية وإما بالموت،وأن هناك قواعد سماوية تريح الانسان وتدفع عنه الجهد والعناء لو اتبعها فى التعامل مع هذا المال الذى هو بمثابة عهدة مؤقتة استخلف فى الأرض لإنفاقها..وكأن سعيد سالم يقتفى أثر سيدنا على بن ابى طالب حين يقول"إذا أقبلت علـــيك الدنيا فأنفق فيها فإنها لاتفنى،وإذا أدبرت عنك الدنيا فأنفق فيها فإنها لاتبقى"وذلك

من منطلق اعتقاده-حسبما تؤكد كتاباته-بأن رزق الانسان هو ما ينفقه فى دنياه،أما مايكره فهو رزق غيره.وفى مسلسل"مفتاح السر"الذى أذيع فى يوليو ٢٠٠٠ يقوم العمل بأكمله على الجدل حول فكرة الإمام الشافعى التى يطرحها قائلا:

رب قسمتها حظوظا علينا/فنعما لذا وتعسا لذاكا

لاعلم ولاذكاء ولكن / لك سر يحير الإدراكا

إذ يعرض لنا فى حوار أذيع على مدى شهر كامل وكانت الغلبة فيه للأخذ بالأسباب واحترام قيمة العمل دون تكالب أو لهاث أو صرع على المال، بما يحقق للإنسان سعادته المرجوة دون التخلى عن إنسانيته. وفى مسلسله الكوميدى: "الدكتور مخالف".الإذاعة.إبريل ١٩٧٧ نجده يحث على أنه لابد لكل إنسان-خلال مسيرة حياته-من وقفة مكاشفة مع النفس ومواجهة مع الضمير، يسترجع فيها مواقفه من الحياة بخيرها وشرها،ويلتقط فيها أنفاسه استعدادا لمواصلة الرحلة فى ظروف أفضل وفى مناخ أجمل ،متخلصا من سلبيات الماضى وأخطائه، مستشرفا مستقبله الجديد بروح عامرة بالحب والصفاء.وكما تتحتم هذه الوقفة على الفرد فإنها بنفس الكيفية تتحتم على المجتمع، خاصا بالذكر مجتمعنا المصرى سليل المجد القديم.

ولأن سعيد سالم مولع بالثنائيات والمتناقضات الجدلية -ولعل ذلك راجعا بالدرجة الأولى إلى طبيعة تفكيره كمهندس كيمائى مارس بيديه تفاعل العنصر مع عنصر آخر لينتج مركبا ثالثا يمكنه التفاعل مع مركب رابع لينتج خامسا وهكذا، فمن التناقض يتم التخليق-فإننا نجده يعقد مقابلات صارخة بين فكر الشرق وفكر الغرب بوجه عام فى مجموعاته القصصية: "أقاصيص من السويد"و"هوى الخمسين" و"رجل مختلف" وبوجه خاص حول التعامل مع المال والقانون والوقت والعمل فى مسلسله الدرامى:"زارع الأمل".سبتمبر ١٩٨٧ .

إسرائيل وحلم الوحدة العربية:

من الهموم الملحة التي تؤرق فكر سعيد سالم هم الوحدة العربية المؤجلة إلى أجل غير مسمى:"الجائزة"، إذ يزعجه إلى درجة الجنون اتحاد دول أوروبا رغم تناقضاتها اللغوية والجغرافية والدينية والاجتماعية،في الوقت الذي يعجز فيه العرب، المتجاورون جغرافيا وأصحاب اللغة الواحدة والدين الواحد والمصلحة القومية الواحدة أمام تحديات الاستعمار والصهيونية، عن اتحاد مماثل يواجهون به عصر العولمة والتكتلات الاقتصادية الكبرى و سيطرةالإعلام العنصري الأمريكي والغربي والصهيوني،مهيئين بذلك الموقف المتخاذل فرصة لاتعوض أمام إسرائيل لتحقيق حلمها الأسطوري الخرافي باحتلال العالم العربي من النيل إلى الفرات استنادا إلى أكاذيب لاهوتية يعلمون أنها مختلقة، مطبقين بروتوكولات حكماء صهيون تطبيقا حرفيا بنجاح لاحدود له:"قصة آلام يعرب، وقصة بروتوكولات حكماء الشركة العربية المتحدة للصوتيات والمرئيات"..حيث تتردد عبارات وحدوية مثل:الولايات المتحدة العربية،و"المعجزة الإسلامسيحية"و"التجمع الإنساني"و"وحدة الأديان" في سياق العمل بما يؤكد توقه الخارق إلى تحقيق الوحدة العربية كحل لابديل له عن فناء الأمة العربية.

هوية مصر الثقافيـــــــة:

لايتفق سعيد سالم مع من يحصرون هوية مصر في انتماء تاريخي أو جغرافي معين كالفرعونية أو القبطية أو الإسلامية أو البحرأوسطية ،إذ أنه يرى في هذه الهوية مصهورا إنسانيا مركبا شديد الخصوصية، نجح في استيعاب الحضارات الانسانية كافة.وفي حديثه لأخبار الأدب١٣/١٢/٢٠٠٢ يقول"إن الثقافة المصرية تمثل بخلاف وجهها الوطني ثقافة قومية بحكم انتمائها العربي كما تمثل ثقافة عصرية تستوعب التيارات الانسانية المتجددة،وهي أيضا ثقافة عالمية بحكم تفاعلها عبر القرون مع الثقافات الأخرى ودون الوقوع في أسرها.

غير أن المرحلة الفرعونية تمثل هوى خاصا لدى الكاتب نلحظه في رواية:"عاليها أسفلها" وهي الرواية الوحيدة التي كتبها سعيد سالم بلغة الفانتازيا الخالصة، حيث نما إلى علم الفراعنة أن أهراماتهم قد انقلبت فصار عاليها سافلها وأن أحفادهم المعاصرين عاجزون عن

إعادتهـــا إلى وضـــعها الطبيعي،فقرروا إيفاد ممثلين عنهم ليلتقوا بالمعاصرين من رجال الفكر والعــلم والدين والفن والسياسة والاقتصاد والاجتماع لدراسة أسباب الانقلاب والبحث عـــن حلـــول جذريـــة ناجعة لإعادتها إلى وضعها الطبيعي.كما نلمح هذا الهوى فى روايته القديمة:"عمالقة أكتوبر"،ورغم أنها رواية واقعية إلا أنه لم يعدم سببا فنيا لبعث روح أجداده الفراعـــنة كـــى تلقى بظلالها التاريخية على الأحداث،ولا غرابة إذن حين يعاود سعيد سالم الإشـــارة إلى فرعونيـــته فى مقدمة رواية"الأزمنة"إذ يعرفنا الراوى بنفسه قائلا:"أنا مواطن مصرى الجنسية وإن كان لابد أن أذكر ديانتى فأنا مسلم لكن أبي مسيحى وأبوه فرعونى أما جدى الأكبر فكان يدين بالكون العظيم."

الإنســـــان والحيـــــــاة:

تساؤل الإنسان الأزلى عن لغز الحياة، وعن حيرته الأبدية فى الإجابة عنه ، نجده مطروحا على الدوام فى الكثير من أعمال سعيد سالم القصصية والروائية، وقد بلغ ذروته فى مجموعته القصصية:"قبلة الملكة". يقول الناقد محمد السيد عيد فى مجلة إبداع.أكتوبر١٩٨٨ : "يردد الكاتـــب بإلحـــاح عـــبارات بعيـــنها مـــثل:"لســـت أدرى"و"لست أفهم"و"الأمر شديد الغموض"و"هل تستحق الحياة كل مايبذل فيها؟"و"ما هو قانون الحياة؟" ، ثم نجده يقول:"إن مولـــدى ومماتى لايعنيان أكثر مما تحمل الكلمتان من معنى، أما المسافة بينهما فلم تكن غير حـــلم ســـخيف."ليذكرنا بما قاله أحد الفلاسفة اليونانيين:"إذا كان الوجود موجودا فأنا لا أستطيع أن أدركه لقصر العمر وغموض المسألة" ، ونخرج من الحديث عن رؤية الكاتب فى قصصـــه الفلسفية بأنه كاتب جاد يحاول أن يمشى طريقا خاصا به لايشاركه فيه معظم أبناء جـــيله،مما يؤكـــد طموحه وجرأته".. ويجمل محمد السيد عيد رؤيته فى إبداعات سعيد سالم القصصـــية بقوله:"إنه كاتب طموح يحاول أن يعرف سر الحياة الإنسانية وأن يثبت قدمه فى أرض التفلســـف ويتأثر فى رؤيته كثيرا بالعبث كما يتأثر به فى شخصياته وأحداثه،أما اللغة فتبـــتعد عن التجريب لكنها فى مجملها جيدة"..وتلح فكرة السعادة على الكثير من قصص ســـعيد ســـالم التأملية وهو يستشهد فى روايته"حالة مستعصية"بالمقولة الصوفية"ماذا يصنع

أعدائى بى وجنتى وبستانى فى صدرى؟إن حبسونى فحبسى خلوة ، وإن أخرجونى فخروجى سـياحة، وإن قـتلونى فقتلى شهادة" مستدلا بذلك على مفهومه الراسخ عن السعادة بأنها شـعور ينـبع كالنور من الداخل ليضفى تأثيره على ما بالخارج وليس العكس كما يعتقد الكثيرون.. وحول موضوع الإنسان والحياة يقول أحمد زكى عبد الحليم فى مجلة حواء١٩/ ١٩٨٨/٣ "يظـل سـعيد سالم صاحب أسلوب متميز ليس بطلاوة الكلمة فحسب ولكن بمقـدرة هذه الكلمة على اختراق الحجب والوصول إلى جوهر الأشياء، بحيث نرى حياتنا ونقف على أقدارنا ونبتسم فى سخرية أو فى حزن من أجل أيام ماضية وأيام مقبلة."

المـــــرأة:

فى شـهادته بعـنوان"رحلـتى مـع الرواية والقصة" المنشورة بمجلة فصول.عدد الأدب والحـرية.مـايو ١٩٩٢ص١٤٢-١٥٣والـتى أعاد طرحها فى ندوة له بعنوان"تجربتى مع الكـتابـة" فى قصر ثقافة مصطفى كامل.أغسطس٢٠٠٠ يقول سعيد سالم:"بدأت تجاربى الجوهرية الأولى فى عالم المرأة مع أمى التى كانت بمثابة المستودع الكونى لعاطفتى إذ توفى أبى قـبل أن أتجاوز الثانية من عمرى.هكذا نشأت مع سيدة تقوم بدور الأم والأب معا.شديدة الذكـاء.حاضـرة الـبديهة.قوية الشكيمة.نافذة البصيرة.قمة فى التضحية.أيوبية فى الصبر والصـمود أمـام متاعب الرزق وتنكر الأقارب، ورغم هذا كله فقد كانت تتمتع بروح السخرية والمرح.كان اختيارها النهائى ألا تتزوج بعد وفاة زوجها وهى الشابة المرغوبة ذات الخمسةوالعشـرين ربـيعا ،وألا تعرف لنفسها رسالة فى الحياة سوى تربية أبنائها وتعليمهم وحراستهم من نوائب الدنيا،ولقد نجحت فى ذلك.ومثلما كان حضنها دافئا كانت صفعاتها على الوجه قاسية وكأنها -بالفطرة-تدرك فن الإدارة من خلال الثواب والعقاب.

أما التجربة الثانية فى هذا العالم الخصب الجميل-عالم المرأة-فكانت مع فتاتى التى أحببتها منذ صباى ثم تزوجتها فى النهاية وأصبحت أم أولادى ورفيقتى فى الحياة.وهى الأخرى تتمتع بقـوة الشخصـية وحدة الذكاء وبصفات أخرى عديدة تشابهت مع صفات أمى، غير أنها كانـت تتمتع بجمال فريد مازالت بقاياه تشع من عينيها الخضراوتين حتى اليوم.ولعل أكبر

إنجاز قامت به فى حياتى هو مساندتى فى رحلتى الأدبية الشاقة".ويضيف سعيد سالم فى حديثه لمجلة حواء٢٢/٧/١٩٩٥-التى ينشر فيها معظم قصصه القصيرة-"إن بطلاتى فيهن شهامة الرجال".

يفهـــم مما قيل أن كاتبنا يتمتع بشبع عاطفى إلى حد كبير،ولكن الشبع لايولد فنا مشحونا بعواطف ساخنة متجددة-على عكس ما نلحظ فى أعماله التى تتفجر بالعاطفة!!-وعلى وجه العمـــوم فـــربما كانت نشأته كيتيم ذات أثر خاص فى رؤيته للمرأة،فاليتيم بطبعه شخصية تأملـــية،لذا نجـــده يقول فى نفس الندوة:"لقد كنت فى صباى أجلس الساعات الطوال إلى شـــاطىء الـــبحر متأملا فى الأفق البعيد ، متسائلا فى حيرة فائقة عن معانى الحب والسعادة والمـــرأة والجـــنس والموت والظلم والعدل والجريمة والسلطة والثروة ، فلا أجد الإجابة ، ولذلك لجأت إلى الكتب فى سن مبكرة بحثا عن هذه الإجابات، وكان من الطبيعى أن أتناول بعد ذلك كل هذه الموضوعات فى كتاباتى باهتمام شديد جدا فاق اهتماماتى بأمور كثيرة فى الحياة."

يتـــناول ســـعيد ســـالم فى أعماله نماذج متنوعة من المرأة، ففى مجموعته القصصية:"رجل مخـــتلف"يصطدم البطل بنموذج عصرى عجيب للمرأة الغربية ص١٠٩ فيقول"كشفت لى عـــن وقاحـــة تفوق الوصف ثم طلبت منى أن أضربها بعنف وكانت تبكى وتضحك فى آن واحـــد، بيـــنما اســـتنفدت جل طاقتى فى إشباعها ضربا حتى منتصف الليل ، حين نامت حضارتان مجهدتان على فراش الحضارة المنتصرة. وفى الصباح عاملتنى كما لو كنت إنسانا تراه لأول مرة.ضاعفت قبلتها الباردة من احتقارى لها.انصرفت بعدأن دعتنى لتناول الغداء بجوارهـــا فى اليوم التالى ولكنها لن ترانى الى الأبد.".. وفى المقابل يعرض علينا الكاتب صورة مناقضة معبرة عن رقة المرأة الشرقية وحنانها فى قصته"رحيق الروح".ملحق الأهرام٢٨/١٢/ ٢٠٠١ عـــلى لســـان البطل الذى يصف محبوبته قائلا:"حين يتوسد رأسى صدرها الحنون ويحيط ذراعى بخصرها الهش ، أغادر الأرض بقهرها وقسوتها وملالتها ، لا إلى السماء حيث العـــدل والرحمة ، وإنما إلى كون آخر يفصل بينهما مثلما يصل..كون برزخى يستقطر فيه عســـل الحب والرضا إلى رحيق العشق المتفانى وهى تربت بكفها الرقيق الدقيق على رأسى

لأذوب في عبير عطائهـا المسكر ، وكأنها تغسلني في ينبوع الخلد المتدفق من هذا الصدر العبقري لتزيل عن روحي أدران المادة وأثقال الشتاء وتمتص ذبذباتي وعذاباتي وحيرتي وقلقي. يا إلهي.. كم أحببتها".

وفي رواية الشـــــرخ نلتقي بنماذج لاحصر لها من المرأة يعرضها تجمع للمدرسات المعارات من دول مختلفة إلى دولة عربية أخرى، في سكنهن الجماعي حيث يتحررن في المساء من كل قيد وينطلقن في أحاديثهن عن الرجال بلا ضابط أو رابط في كلمات يعبرن بها عن خواطـرهن وغرائـزهن وهواجسـهن دون تحفظ ، في خليط يجمع بين الجريئة والخجولة والمتدينة والماجنة والصامتة والمرحة والمنطوية على نفسها.

ونسـتطيع أن نخلص من النماذج التي قدمها الكاتب عن المرأة والتي تجمع بين تناقضات هائلـة إلى رؤيته بأن المرأة الشرقية -بوجه عام- تعيش في عالم ذكوري يعتقد في تميز الرجل على المرأة وحقه في السيطرة على مصيرها بقدر كبير ، ولا يمنع هذا من وجود نماذج أخرى من المرأة المتمردة على هذا الوضع -مثل نرجس في رواية الشرخ- سواء انتهى هذا التمرد إلى تحقيق ذاتها لقاء ماتدفع من ثمن ، أو هزيمتها واستسلامها للواقع المشار إليه. وهذا ما تؤكده رواية "حالة مستعصـيـة" حين تكتب الصحافية الشابة "أمنيه" إلى معشوقها قائلة: "الواقع مـن حـولي يا إلهـي -يـا أستاذي وصديقي وحبيبي- أبعد من أحلامي بعد السماء عن الأرض. والعصي كتل هلامية تدعي بشرا. عقول من العصر الحجري. حرام على المطلقة أن تضـحك حـتى في مجلـس أبيها ، أو أن تكشف عن شعرها أمام ابن عمتها. عيب عليها المعـرفة. عليها فقط أن تبقى في انتظار السيد الجديد لتتزوج منه وتنجب له وتخدمه ولاترى من العالم الخارجي إلا الطرقات التي تؤدي إلى بيت أهله وأهلها."

المـرأة إذن مظلومة عند سعيد سالم ، ولكن عيناه لاتغفلان عن رصد المرأة المتسلطة قاسية القلـب في قصـة "العاقب" -مجموعة الموظفون الحائزة على جائزة الدولة التشجيعية- والتي تدفـع بالـرجل إلى قتل أبيه. كما نرى المرأة اللعوب في رواية الكيلو ١٠١ كماشقة تبذل المسـتحيل حتى لايملها العشيق ويتركها كما ترك غيرها ، فتتلون على كل الألوان لنجدها يومـا تعـيش معه بشخصية الخادمة ويوما بشخصية العالمة ويوما بشخصية الطبيبة ، حيث

تـؤدى ادوارها باتقان شديد بمجرد أن تجدد من نفسها وتشعره فى كل يوم أنها امرأة أخرى مخـتلفة عن تلك التى ضاجعها فى اليوم الفائت ، ورغم ذلك فلم يكن مصير تلك العلاقة إلا الفشل والنسيان.

وفى رواية الفلـــوس تبيع مديحه عهدها لحبيبها عبد الخالق لقاء الارتباط بمن هو أقدر مـنه ماليا واجتماعيا فتكون سببا فى انقلاب جذرى بحياته ليصبح من أثرى أثرياء المدينة ، وحين تعود إليه مثقلة بالإحباط والندم لايستطيع أن يعرفها فقد أصبح كائنا آخر غير الذى عرفته من قبل.

ممـا سـبق من نماذج متنوعة للمرأة طرحها سعيد سالم فى أعماله يمكن القول بأنه يرى فى المـرأة كائنا رقيقا متفجرا بينابيع الحب والرحمة ولكنها تحت ضغط المجتمع الذكورى الظالم الـذى لايكـف عـن قهر إرادتها تجد نفسها مضطرة إلى إشهار أسلحتها الغريزية الفتاكة كالمراوغة والنفاق والتدلل والدموع والحيلة حتى تجد لنفسها طريقا فى الحياة.

الحـــريـــة:

يقـول الدكتور سيد حامد النساج فى معرض حديثه عن قبلة الملكة فى البرنامج الثانى من القاهرة ١٢/١٢/١٩٩٠ "إن الفكرة المسيطرة على سعيد سالم فى كثير من قصصه هى فكرة الحـرية.وقـد اختار فى الأغلب الأعم شخصيات مكبوتة وشخصيات فردية تعيش أزمات فـردية أيضا ، وربما وصف بعض النقاد القصة القصيرة انها فن الفرد المأزوم التى تعبر عن آرائه الفردية..إن ماورائيات قصص سعيد سالم مكتوبة بوعى شديد على عكس مانصادف كـثيرا من الكتابات التى لاتكشف عن وعى كاتبها سواء بواقعه أو بفنه أو حتى بما يريد أن يقوله فى بعض الأحيان".ويشير الناقد السورى نذير جعفر فى جريدة تشرين السورية ٦/٢/ ١٩٨٨ إلى أن "قصص سعيد سالم تشكل فى مجملها صرخة احتجاج على الظلم والاستبداد والعلاقـات اللاإنسانية ، ولعل ذلك ماجعله يلجأ إلى الترميز ومزج الواقع بالخيال فى غلالة مـن الغموض الفانتازى الذى يصل أحيانا إلى حد الإبهام خشية التعرض للقمع المباشر من السلطات التى يعريها ويدين ممارساتها".

وفى مجموعته القصصية الممنوع والمسموح تتأكد المفاهيم السابقة من خلال معالجاته لقصص"ملفات المواطن عبد الصبور"و"التائه"و"الجحر"و"نشرة الأخبار".ونرى البطل يتساءل فى روايته الأخيرة حالة مستعصية "ماذا أفعل وحاملة الطائرات الأمريكية العملاقة تقف بعيدا فى عرض البحر عند حافة الأفق معترضة حلمى القديم بالجنة.لقد كنت أنوى الاستحمام عاريا قرب الشاطىء لكنى تراجعت.يبدو أننى جبان.استولت على فكرة مفاجئة:ماهو تعريف العدو؟..تخيلت نفسى داخل زنزانة عربية تجمع بين الأصالة والمعاصرة فى نسق تركيبى منسجم لايعرف التناقض .تتدلى الورود والأغصان من بين فتحات أسلاكها الشائكة وأسوار قضبانها الجميلة، والتهمة هى السب فى ذات الزعيم:أى زعيم. أنت وحظك يابطل.ياإخوانى نحن الكتاب العرب ضمير الأمة.هه.دعونا حتى نتكلم فقط."وهو يعبر بحرقة فى مجموعته أقاصيص من السويد عن تلك العوامل التى تعترض حريته وتقيده بالفولاذ:"ذلك التراث الطويل العريض العميق من القهر الفردى والجمعى والفكر الموروث الذى تكاتف الزمن والموقع والدين والحكام والتاريخ فى تكبيلى به.يقتلنى التردد.يعذبنى.يكوينى بلهيب الخوف من المحظور وسوء الظن وخشية سوء الفهم وشىء من الإحساس بالدونية،رغم المخزون الهائل الذى لقنته منذ طفولتى عن حضارة آلاف السنين."إن الإحساس بالقهر فى الحاضر والخوف من المستقبل فى مجموعته:الممنوع والمسموح يدفعان بالبطل الباحث عن الخلاص فى الحرية لأن يقول:"فكرت بإخلاص شديد أن أقفز من أعلى البرج لا منتحرا ، وإنما راقصا مصفقا فى ليلة أنس أستقطر فيها متع الدنيا بنسائها الخمريات والبيض والسمر وقناطيرها المقنطرة من الذهب والفضة . بدأت حدة شعورى بالخوف من المستقبل تخف تدريجيا.ولما ازدادت ثقتى بنفسى بدأت أخلع ملابسى قطعة وراء الأخرى وألقى بها إلى الشارع دون أن أتوقف لحظة عن الرقص..بينما تعالت أصوات التهليل والتكبير من أسفل إلى أعلى."

ظاهرة الفســـــــاد:

يقـــول الدكــتور مصــطفى عبد الغنى الناقد الأدبى بجريدة الأهرام فى كتابه "قضايا الرواية العربـــية". الــدار المصــرية اللبنانـــية ١٩٩٩ عـــن تناول سعيد سالم لظاهرة الفساد فى أعماله "ويكون الراوى من الفطنة بحيث يربط بين الفساد الداخلى وعلاقة القوى الغربية به ، فكل أولئك الذين ينهشون جسد مصر كل يوم إنما يعيشون تحت تبعية القوى الامبريالية ، فهـــذه القوى تسعى إلى حماية النظام السياسى الفاسد لكى يحقق طموحها المستمر فى الهيمنة خـــلال خلق مجموعة من الفاسدين المستفيدين من ذلك، وبهذا تستطيع أن تحقق أهدافها. إن الكاتـــب كان دائم العود إلى العدو الخارجى وربطه بما يحدث فى العالم مستخدما كثيرا من اساليبه الفنية من التقطيع السينمائى والاسترجاع والتسجيل وما إلى ذلك."

وتكـــاد تكون قضية معالجة الفساد الذى يستشرى فى المجتمع المصرى والعربى أن تكون هوايـــة سعيد سالم المفضلة والتى لايكاد يتركها فى عمل حتى يعود إليها فى عمل آخر. فرغم نجـــاح المصـــريين فى عبور خط بارليف الرهيب باقتحامه ثم تدميره ، إلا أنهم لم يحققوا نفس الـــنجاح فى تصـــديهم لخط بارليف الفساد الداخلى الذى ظل ينخر فى جسد القطاع العام حتى أتى عليه.. ذلك الفساد الذى يحول دون تقدم الأمة وانطلاقها إلى آفاق العصر الحديث ، والـــذى يـــتعرض له من جوانب مختلفة فى رواياته: "عمالقة أكتوبر" و"الأزمنة" و"الكيلو ١٠١" وهـــو حـــين يتعرض لفساد أصحاب الثروة والسلطة من المتاجرين فى قوت الشعب وأراضـــى الدولة حينا وفى السموم والمخدرات حينا آخر ، فإنه لايكتفى بإلقاء الضوء على وقائع الفساد وإنما يتغلغل فى أعماقه وجذوره ودوافعه ، ليكشف لنا عن ضعف الرقابة على المال العام وعدم مراعاة العدالة فى توقيع العقاب على المفسدين. وهو يعرى لنا تكنيك هؤلاء المفسدين فى توريطهم لمسئولين من السلطة لضمان السكوت وتوزيع المسئولية عند السقوط ، كمـــا يفضـــح قدرتهم على التمويه باستخدام الإعلانات والتمسح بالدين وبناء المساجد وتوزيـــع ممـــتلكاتهم المســـروقة بأسماء أقاربهم ، ويسخر من وقاحتهم حين يبررون الفساد بادعـــائهم أن العمولـــة أمر معترف به عالميا وأن لكل إنسان ثمن مهما ارتفع ، ولئن مادام

الكــبار ينهـــبون فلا مانع من مشاركة الصغار ، وأنه بدون سلطة أو ثروة تستحيل الحياة الكريمة..ولقد أفاض سعيد سالم-بحكم عمله فى الصناعة-فى شرح هذه الأمور خلال لقاءاته المختلفة فى المنتديات الأدبية.

وفى مســـرحيته الكومـــيدية"الدكتور مخالف"المأخوذة عن روايته عاليها أسفلها يطرح لنا تـــبريرا كومـــيديا للرشـــوة كمذهب يعتنقه بعض الموظفين وهو ما أسماه بمذهب "التكافل الاجـــتماعى الإجبارى". ذلك أن الأغنياء لايساهمون فى التكافل الاجتماعى السماوى ممثلا فى الزكاة والصدقات ولا فى التكافل الاجتماعى الأرضى ممثلا فى الضرائب ، ولذلك وجب على الموظفين أن يجبروهم على المساهمة رغم أنوفهم بدفع الرشوة.

ونعـــود إلى شهادة سعيد سالم بمجلة فصول.خريف١٩٩٢ لنجده يتحدث بجرأة بالغة عن ظاهـــرتى الكذب والنفاق من حيث ارتباطهما بالفساد فيقول:"إن الكذب فى حياتنا قد بلغ ذروته حتى اصبح وجه مجتمعنا قبيحا كأمعائه..وحين اطالع الجرائد والمجلات أصاب بحالة من القرف والاشمئزاز لشدة النفاق الذى يحول الشىء إلى نقيضه بجرة قلم،ويكفى أن أدلل على ذلـــك بالتصريحات الكاذبة لبعض الوزراء والمسئولين الذين يتعاملون مع الواقع كأنه وهم ومـــع الوهم كأنه واقع كما لو كانوا يخاطبون شعبا قد فقد عقله وذاكرته وإحساسه،ففى الـــيوم الذى يصرح فيه أحدهم بثبات سعر سلعة ما ، نجدها قدْ ارتفع سعرها فى اليوم التالى مباشـــرة ، وكأنما امتزج الكذب بالصدق امتزاجا"جنسو كيماتيا"يصعب معه إعادة فصلهما مرة ثانية،مثلما يصعب فصل المزيج الكيمائى المكون من مادتين،وإنما تسفر هذه العلاقة غير المشـــروعة-حيث الكذب هو العنصر الفاعل والصدق هو المفعول به- عن وليد مشوه هو واقعنا الهلامى العجيب الذى تحولت فيه القمة إلى قاع و القاع إلى قمة ."

ثالثا:نماذج من آراء الكتاب والنقاد حول أعمال سعيد سالم

نجيب محفوظ

من حسن الحظ أنني تمكنت من قراءة بوابة مورو، وأشهد بأنها جذبتني إلى قراءتها بسحر فيها لاشك فيه وهى عمل جيد فى تصويره للبيئة ، وبما قدمته من شخوص حية ممثلة في الراوي والأب والفتاتين ، وأسلوبها ينبض بالحياة والتلقائية ، وإني أهنئك عليها وأعتبر عملك من آيات البشرى ببعث الحياة الثقافية التي لم يعد لها من عماد إلا حماس بعض الشبان أمثالك من أدباء مصر العزيزة- مجلة أكتوبر ١٩٧٨/٣/٧

يوسف ادريس

سعيد سالم هو ابن الإسكندرية الذي دخل المسرح الأدبى دخول العاصفة ، والذي أتوقع أنه سيظل يثير من حوله تلك العواصف الخلاقة، وأنا قرأت أعماله الروائية الثلاثة"جلامبو" وبوابة مورو" و"عمالقة أكتوبر" وكنت سعيدا بها جدا ، وسعيد سالم أقل الكتاب تأثرا بي، فله استقلاله الفني وله طريقته الخاصة وله مدرسته في الكتابة أن قصص سعيد سالم أحسن من قصص يوسف عجنون مليون مرة–مجلة البيان الكويتية – يوليه ١٩٨٢

الدكتور على الراعي

مما لاشك فيه أن سعيد سالم قد قدم في بوابة مورو عملا جادا يستأهل النقد الجاد، ومن ثم احتفيت به بالطريقة الوحيدة التى يستأهلها العمل الجاد ، وهى حمله على محمل الجد فعلا ، ومعاملته معاملة الفن القادر على أن يثبت للتحليل ، بما يعنيه هذا من استخدام لأسلحة النقد الثقيلة في عرضه وتفسيره وتبيان نواحي ضعفه ومواطن قوته – مجلة المصـــــور – ٢٦ نوفمبر ١٩٨٢

الدكتور سيد حامد النساج

إن الفكرة المسيطرة على سعيد سالم في كثير من قصصه هي فكرة الحرية ، واختياراته في الأغلب الأعم هي شخصيات مكبوتة تعيش أزمات فردية والواقع موجود في ذهن الكاتب وهو يكتب ، لكنه يستخدم الفنتازيا أحيانا ليعبر من هذا الواقع برسائل الرمز والإيعاز والتضمين ، وأنا اتفق مع الكاتب فى ما ورائيات قصصه فهي مكتوبة بوعي شديد – إذاعة البرنامج الثاني برنامج مع النقـــــــــاد

يوسف الشاروني

أحب أن أعلن أن رواية "جلامبو" – كعمل أدبي أول على مستوى فني ناضج وملفت فيه دفقه الشباب ونظرته المحتجة على كثير من الأوضاع التي لا يرضى عنها في مجتمعه وفى نفس الوقت فان حبه لمصر لم يلهه عن فنه فلم ينس أنه يقدم عملا روائيا ، فلم يقع في براثن التقريرية ولا الأسلوب المباشر ولا حتى الأساليب التقليدية ، ونحن نستنشق في كل سطر من سطور الرواية عبق الإسكندرية ونكاد نتذوق طعم ملوحة بحرها ونستمع إلى أغانيها ونجوس وسط فلايكها وقد هبت علينا عواصفها وهطلت أمطارها– كتاب نماذج من الرواية المصرية هيئة الكتاب ١٩٧٧

الدكتور عبد العزيز الدسوقي

سعيد سالم روائي وقاص موهوب ، وقد احتفيت به وقدمت قصصه باعتزاز في مجلة الثقافة وسأظل أعتز بنشر إبداعه في المجلة لأنه–في رأيي– من أعظم كتاب القصة والرواية في جيل السبعينات – مجلـــــــــة الثقافـــــــة ديسمبر ١٩٧٧

دكتور صلاح فضـــــل

١–عمالقة أكتوبر:

إن القصاص سعيد سالم يستحق عناية نقدية خاصة لأنه لايكتفى بموهبة الحكى بل يحاول استثمارها بذكاء ومهارة وهو يتميز بقدرة تصويرية ذات أبعاد تشكيلية تفيد من الإنجازات السينمائية وتقترب من التسجيل التشكيلي المجسد ، وهو لا يستقر على منظور واحد يرصد منه المشهد وتيار الوعي هو السمة الغالبة على الأداء القصصي عنده – جريـــــــــدة الأهـــــرام ٢٢ ينايـــــــر ١٩٨٠

٢–كف مريم:

اســـتطاع ســـعيد ســـالم بدأبـــه ومثابرته أن يستثمر ذكاءه الابداعى وتوقه الطلـــيعى معا وأن يزحف بثقة الى الصفوف الأولى من كتاب السرد العربى فى مصر.وكنت قد تنبأت له منذمطلع الثمانينات بمستقبل واعد فى فن القص لموهبته ودهائه وقدراته التشكيلية البارزة وهاهو اليوم يقدم مايعتبره ذروة ابداعـــه ودرتـــه الفريدة وهى رواية"كف مريم"...ونلاحظ أن جسارة الكاتب وتجريـــبه لعوالـــم جديـــدة فى كلا الجانبين التقنى والدلالى قد أضفى على

الـــرواية قـــدرا مـــن العمـــق والأصالة التى توقظ فى القارىء حس التوتر الدرامـــى والشـــفافية الروحية مما يعد شاهدا على نجاح المبدع فى تحريك السواكن الراكدة... وقد استطاع سعيد سالم أن يقيم البناء الدلالى لنموذجه الواعر على تحويل صورة "مريم" من مجرد امرأة مصرية تدفع ثمن فتنتها الأنثوية انتقاما من الزوج الذى اغتصبها الى رمز أعلى للعذراء التى تجمع بيـــن الـــتقديس الظاهر والتدنيس الباطن وقد احتشدت فى مسيرتها ملامح التميـــيز فى الجنس والدين والهجرة والعمل والحقد الدفين المتنامى لجرائم التعصب الأعمى.

الأهرام ٢٠٠٣/٦/١٦

__محمد السيد عيد__

لقد أسعدني تماما أن أجد في مجموعة " قبلة الملكة" خروجا على القضايا المألوفة في ساحتنا الأدبية ومحاولة جادة للتفلسف يقوم بها الكاتب السكندري سعيد سالم ، والمحور الذي يدور حوله كاتبنا هو "الحياة" وما يؤرقه في هذه الحياة هو غموضها لذلك نراه يردد بإلحاح عبارات مثل: "لست أدرى" ، "لست أفهم" ،" المر شديد الغموض" انه كاتب طموح يحاول أن يعرف سر الحياة وأن يثبت قدمه في أرض التفلسف ، ويتأثر فى رؤيته كثيرا بالعبث ، كما يتاثربه في أحداثه وشخصياته أما اللغة فتبتعد عن التجريب لكنها في مجملها جيدة ومعبرة – مجلـــــــة إبداع أكتوبر ١٩٨٨.

__دكتور يوسف عز الدين عيسى__

عندما قرأت روايتي"جلامبو" و"بوابة مورو" للأديب المهندس سعيد سالم شعرت بأنني أقرأ لشاب موهوب مطبوع لا مصنوع ، وربما يكون ذلك راجعا إلى خبرته في كتابة البحث العلمي فهو حاصل على الماجستير في الهندسة الكيمائية من جامعة الإسكندرية، وهو يكتب بتلقائية تشبه تلقائية الكاتبة الإنجليزية"جين أوستن" والتي وصفها أحد النقاد بأنها تكتب كما يزقزق العصفور ويبدو تركيب روايتيه في نظام هندسي مترابط ، وتتحرك أحداثهما فى قفزات تشبه القفزات المرسومة بدقة في بعض أنواع الرقص الإيقاعي أو رقصات البـــاليه – جريدة الأخبــــــار يوليـــــو ١٩٧٩

__دكتور محمد مصطفى هداره__

تأتى معظم قصص سعيد سالم كصرخة احتجاج لحرية الانسان وقيمته الذاتية وكتأكيد لأهمية الفكر فى زمن المادة والبطل فى هذه القصص هو

الفكرة وليس الشخصية أو الحدث والكاتب يتقن الوسائل الحديثة فى فن القصة القصيرة ،فهو لايعتمد على السرد والحكاية فقط وانما يستخدم المونولوج الداخلى استخداما جيدا بتعبير فيه تكثيف وشاعرية ، وهو يجنح قليلا الى السيريالية دون اغراق فى الغموض، كما يستخدم الشكل الأسطورى فى بعض الأقاصيص، أما لغتـــــه فهى متميزة فى مستواها الفنى والفكرى برنامج مع النقاد – اذاعة البرنامج الثانى ١٢ فبراير ١٩٩٠

دكتور السعيد الورقى

جلامبو ١٩٧٦*

من القراءة الأولى لرواية "جلامبو" نكتشف أننا أمام كاتب سكندرى حقيقى ، فى كتاباته طعم الماء المالح ورائحة اليود وأعشاب البحر ، وفى شخصياته صدى لاضطرابات البحر وصراع الانسان وقصة كفاح كل يوم ، والى جانب شخصية البطل قدم سعيد سالم فى عمله القصصى حشدا من الشخصيات الرائعة التى تستطيع كل منها على حدة أن تكون نواة قصصية لعمل قصصى رائع- مجلـــــــة الكاتب مايو ١٩٧٦

*كف مريم ٢٠٠١

لاتقف براعة سعيد سالم فى روايته"كف مريم" المائع المائع على قدرته فى وضع تصميم بنائى محكم لعمله،ولا على دقته فى رسم شخصياته وفى تكوين علاقات هذه الأشخاص ببعضها وبنفسها وبالحدث،ولا على منظومة القضايا والأفكار التى كانت حاضرة فى ذهنه وحركها من خلال شخصياته،ولا على التوازن الحسابى الدقيق لاستحضار أصوات شخصياته وتناسب حجمها مع حضورها،وإنما يقف على قمة براعته الأدائية لغة السرد لديه بما فيها من شاعرية مثقفة وما فيها من قدرة حركية تمتلك خصوصيات السرد..

سعيد سالم حكواتى مثقف،يمتلك تلقائية الحاكى الذى يظل مسيطرا على اذنك حتى نهـــــاية الحكاية وهكـــــذا كان يوسف إدريس العظيـــــم.(الأهرام ٢٠٠١/١١/١١)

شـــــوقى بغدادى

ان هذا الشاب المختص بالكيمياء مسكون بهاجس الكتابة القصصية الى حد الهوس ، وكأن شيطانا داخليا لايقاوم يدفع به الى انجاز عمله فى جلسة واحدة وهو عارف بأصول اللعبة القصصية بتقنياتها المعروفة قديمها وحديثها ، وكتابته أشبه ماتكون بنهر غزير سريع التدفق ، وجمال عمله

وحديثها ، وكتابته أشبه ماتكون بنهر غزير سريع التدفق ، وجمال عمله كامن فى وحشيته – تقديم رواية آلهة من طين – دار الجليل دمشـــــق ١٩٨٦

– مصطفى عبد اللطيف السحرتى

يمثل هذا الكاتب الجيل الغاضب ، بل الجيل المتمرد المعربد وهو يسير على تقنية جديدة هى الكتابة بجمع اللقطات فى حركة جد سريعة أشبه باللقطات السينمائية وقد مثل لنا سعيد سالم المنتمى السلبى الفوضوى الذى أراد أن يغير المجتمع فخاب ، وبقى أبناء الحى – بوابة مورو – كما هم فى رضا وتواكل وقناعة ، وبقى هو فى حيرته وقلقه – مجلة الثقـافة يونية ١٩٧٧

جلال العشـــــــــرى

تختلف "آلهة من طين" عن روايات سعيد سالم السابقة سواء من ناحية المضمون وزاوية الرؤية أو من ناحية الشكل وأداة التعبير ، وأخيرا من ناحية الأسلوب وطريقة الصياغة، مما يجعلها رواية غير تقليدية تتمرد على كل ماهو مألوف فى الفكر والصياغة والتعبيروالرواية فى الحقيقة تتجاوز حدود الواقع لكى تقترب من مملكة الرمز وتصبح الشخصيات دلالات على معان ميتافيزيقية وفلسفية، وتصير القضية المحورية التى يرتكز عليها الصراع الروائى هى قضية العلاقة بين الفن والدين ومن هنا اتسم شكل الرواية بالنـــزعة اللاواقعية التى تبتعد عن الأساليب التقليدية فى السرد والحوار ، ففيها يمتزج المونولوج الداخلى بالمذكرات الشخصية أو أسلوب الاعتراف ، ويلتقى الحوار المتداخل بالاسترجاع ، ويجتمع الطابع التسجيلى للاحداث والتواريخ بالشطح الفلسفى الذى يقود الى التأمل فى جوهر الخلق وماهية الابداع – مجلة الاذاعـــــة والتليفزيون ١٩٨٥/١٢/١٤

أحمد زكى عبد الحليم

فى " قبلـــــــة الملكة" يبدو سعيد سالم حريصا على أن يمسك بتلك الخيوط الرئيسية فى حياة الانسان وخاصة أولئك الذين يعيشون حياتهم على نور العقل والمعرفة فينسج من هذه الخيوط أوتارا يعزف عليها مفارقات الحياة من خلال ألحان حزينة وشجية ويظل سعيد سالم صاحب أسلوب متميز ليس بطلاوة الكلمة ولكن بمقدرتها على اختراق الحجب والوصول الى جوهر الشياء بحيث نرى حياتنا دمعة على أقدارنا ونبتسم فى سخرية

أو فى حزن من أجل أيام ماضية وأيضا من أجل أيام مقبلة –مجلـــــة حواء ١٩٨٨/٣/١٩

دكتور محمد زكريا عناني

ونحن نقرأ رواية " الأزمنــــــــــة" نشعر أن الواقع كيان راسخ يتمثل فى كل جملة فيها ، ونعيد قراءتها فنهتز بفيض رومانسيتها وشجنها ، ولهذا الحب الموؤد بين بطلها ونجلاء، ولموت الأب وعذاب الغربة ثم نسترجع أصداءها فأذابها دنيا من الرموز التي تتساب طبيعية طيعة لا يفرضها منطق جامد ولا تخطيط نظري فإذا بنا أمام بناء فني يستفيد من كل الإمكانيات الفنية التي يسمح بها جنس الرواية– جريدة الأخبــــــــــار ١٩٩٢/٩/٢

الدكتور مصطفى عبد الغنى:

منذ البداية نكتشف أن سعيد سالم كان مهتما بفكرة الانتماء التى قد تعوقها أشياء كثيرة كى لاتغدو انتماء ايجابيا. وقد كان يعوق الانتماء–فيما يرى– الكثير من مظاهر الفساد الاقتصادىوبوجه خاص، ونستطيع أن نربط هنا بسهولة بين هاجسه المضمر(الانتماء)وخوفه المعلن من الفساد.لقد تبلورت قناعته التى لخصت رواياته الأربع الأولى من مفهوم(الانتماء)وهو موقف شعورى ايجابى لايمكن أن يتحقق مالم يكن متبادلا بين الوطن والمواطن ، الى تأكيد هذا المفهوم بازالة معوقات الفساد من أمامه فى أعماله الأخيرة.ان الكاتب كان دائم العود الى العدو الخارجى وربطه بما يحدث فى العالم، مستخدما كثيرا من أساليبه الفنية من التقطيع السينمائى والاسترجاع والتسجيل وما الى ذلك. ان مايريد تأكيده سعيد سالم هو أن الواقع السياسى بدأ فى التغير تحت عنف معاول الاقتصاد الغربى والأمريكى بوجه خاص، بمؤسساته وأحلامه الجديدة فى السيطرة على العالم، ومع ذلك فانه لم يصل به الأمر الى اليأس والقنوط قط..

اتاب قضايا الرواية العربية. الدار المصرية اللبنانية١٩٩٩

رابعا: **بعض الآراء الخاصة للكاتب**

مـــن واقع اهتمام الكاتب بالتواصل مع منجزات الاتصال الحديثة وتواجده على موقع الانترنت المعروف بarabworld books.com يمكننا الاطلاع علـــى مفاهيمه حول ماهية الفن ولماذا يكتب ولمن يكتب وكيف وفيم يكتب، كمـــا يمكننا الاطلاع على رأيه الخاص في قضية الشكل والمضمون وقضية الفصحى والعامية وذلك في الفقرات الآتية المقتبسة من الموقع المشار إليه:

رؤيتي لماهية الفن:

من خلال عشرين عمل هم حصيلة انجازى الأدبى حتى الآن : أحدى عشرة رواية وتسع مجموعات قصصية أستطيع أن أصرح باعتقادى فى صحة المقولة المعروفة أن" الفن امتاع وتنوير " ، وأنه ان لم يحقق الهدفين معا هبطت قيمته. انى أرى فى الفن سبيلا راقيا لتحقيق التصالح والتناغم بين الانسان ونفسه من جهة ، وبينه وبين الحياة والكون وخالقه من جهة أخرى انى أرى فى الفن خلاصا شجيا يصل الانسان بالأرض والسماء فى حب لاحدود له ولقد وجدت فى فن الابداع الروائى والقصصى ضالتى التى تحقق لى كل تلك الغايات مجتمعة

لمـــاذا أكتب ؟؟؟ ...

أكتب لأننى مدفوع الى ذلك الفعل الذى يكاد يكون غريزيا ، والذى أسميه أحيانا بشهوة الابداع ، ولأننى لو لم أمارس هذا الفعل الفطرى التلقائى فاننى أختل من داخلى وتتعاكس ملكاتى وتضطرب نفسي ويدهمنى اكتئاب لاتنقطع موجاته المتعاقبة لكنى فى الوقت ذاته أشعر بثقة شديدة أننى أؤدى رسالة لامبرر لوجودى على قيد الحياة ما لم أجتهد فى توصيلها لعشيرتى فى الانسانية وأنا لست أجهل أن توصيل الرسالة من الكاتب للآخرين مرتبط بأسباب أخرى خارجة عن ارادته ، كالنشر والنقد والجمهور القارىء ... تلك الأسباب التى تبدو – فى حالتى على الأقل – متعثرة الى حد كبير ، حتى أن بعض أعمالى تنشر بعد مرور عشرة سنوات على كتابتها أو يزيد مثل رواية الفلوس الا أننى حين أكتب لا أعبأ بسبب واحد من هذه الأسباب ، وانى لأشكر الله كثيرا على أن هدانى لذلك بعد أن حبانى بالموهبة

لمـــن أكتب ؟؟؟ ...

من المؤكد حسبما تشير الاحصائيات أننا شعب غير قارىء ، وبالتالى فأنا أكتب الى فئة محدودة جدا من مجتمعنا العربى الكبير -علىعكس الحال حين أكتب التمثيليات الدرامية بالعامية المصرية - لكنى أعتقد أن تأثير الفن فى دائرة محدودة من البشر يمكن أن يتسع فى دوائر أخرى أكثر امتدادا مع الزمن غير المرتبط بعمر الفنان ، بحيث يأتى تأثيره تراكميا لاوقتيا. ليست تلك ذريعة للاستمرار فى الكتابة بلا أمل ، وانما هى نظرة واقعية قائمة على تأمل عميق فى فلسفة أن يمضى انسان عمره فى تأدية عمل لايستطيع ولا يأمل أن يقطف ثمرته على الفور وليس المقصود بالثمرة نفع شخصى بقدر ما هو مقصود توصيل الرسالة المشار اليها ، فهذا هو النفع الأكبر والمتعة المشتهاه

كيف ، وفيم أكتب ؟؟؟ ...

ان ميلاد العمل الأدبى عندى يقوم بالدرجة الأولى على انشغالى المؤرق بقضية انسانية ما ، تسيطر على مشاعرى وأحاسيسى وتدفعنى الى البدء فى الكتابة دفعا لاسبيل الى مقاومته ولا يعنى ذلك أن الدافع الأولى عندى هو الفكرة المجردة "كالسعادة والحرية والعدالة"، بل هو الاحساس المصاحب لهذه الفكرة والمتوحد معها وأضرب على ذلك مثالين : الأول هو الذى حركنى لكتابة روايتى الرابعة التى تتعرض للعلاقة بين الفن والدين (آلهة من طين) كمرحلة أولى ، ثم روايتى العاشرة (حالة مستعصية) كمرحلة تالية كان الدافع هو احساسى بأننا كمصريين وعرب ، سواء على مستوى الأفراد أو المجتمعات نعانى من انفصام فكرى مقيت بين ثنائيات يعتقد الكثيرون أنها متناقضة، اذ يختلط فيها المطلق بالنسبى سواء عن غير قصد أو لقصد مشبوه ، مثل الأصولية والليبرالية ، أو الأصالة والمعاصرة أو التراث والحداثة ، أو الدين والدولة ... وغيرها من ثنائيات تشتعل بينها المعارك على جبهتين تعتقد كل منهما أنها صاحبة الحل الأفضل أو الأوحد، بينما يتغافل الجميع عن فكرة ايجاد حلول تكاملية لاتفاضلية ولا تلفيقية ، تشفى الأفراد والجماعات من ذلك الانفصام الذى يؤدى بقراراتنا ومواقفنا الحياتية الى أن تكون مجرد ردود أفعال لما يحدث فى الدنيا دون مبادرات ايجابية أصيلة من جانبنا، بل نظل متخبطين فى قياسنا للمطلق بالنسبى

أصيلة من جانبنا، بل نظل متخبطـــين فى قياسنا للمطلق بالنسبى وللنسبى بالمطلق ، حتى اذا سألت سائـــق عربـــة حكومية تقوم يوميا من القاهرة الى الاسكندرية وتستغرق المسافة المعروفة فى فترة زمنية محددة :

– متى تصل العربة الى القاهرة ؟

فيجيبك دون أن يجيبك

– الله أعلم أدع لنا بسلامة الطريق حتى نصل .

عاش هذا الحوار الذى شهدته بنفسى وتطور فى مخيلتى على مدى سنوات عديدة بدأت بآلهة من طين وانتهت بحالة مستعصية كعملين روائيين خالصين ذاب فيهما الفكر فى الفن وامتزجا فى مصهور خاص يمثل ذاتى الفنية أما المثال الثانى فهو الدافع الذى قادنى الى كتابة رواياتى الثلاث الأولى – جلامبو ،بوابة مورو، عمالقة أكتوبر– كان الدافع هو احساسى القوى بفكرة الانتماء بمعناها الشمولى أولا ثم الوطنى ثانيا. اننى أعتقد أن الانتماء هو عقد مواطنة مكتوب بين الوطن والمواطن وموقع من كليهما ، فاذا غاب توقيع أحد الطرفين أصبح العقد باطلا وهذا يفسر ما يحدث لشبابنا الذين يكتشفون أن عقودهم الانتمائية موقعة من طرفهم فقط، فاما يلجأون الى الاغتراب خارج الوطن للبحث عن الحلم الأمريكى وخلافه،أو الاغتراب داخل الوطن سواء بالانحراف أو التطرف ، كما أن البعـــض منهم وهوالأكثر حساسية وانطوائية قد يلجأ الى الاغتراب الداخلى فتدهسه الأمراض النفسية والعصبية ، بينما هو باق بجسده داخل وطنه من هنا كان بطل" جلامبو" لامنتميا وبطل"بوابة مورو" ذا انتماء سلبى ، أما بطل "عمالقة أكتوبر" فكان ذا انتماء ايجابى ، لكن الكثير من السلبيات والمعوقات حالت دون تحقيق انتمائه وفىالنهاية فاننى أستطيع استخلاص آراء النقاد حول معظم كتاباتى فى أنها كتابات أشبه ما تكون بالكوميديا السوداء التى تميل الى التفلسف الساخر وتتخذ من الطابع غير التقليدى أسلوبا لها ، اذ يمتزج فيها السرد بالمونولوج الداخلى بالحوار المسرحى والسيناريو السينيمائى والخطابات وتيار اللاوعى ، دون التخلى عن فكرة" الحدوتة" سواء باللجوء الى الواقعية أو الفانتازيا أو الى المزج بينهما ، ويشير بعض النقاد الى تصاعد الحس الصوفى فى لغة أعمالى الأخيرة مثل الكيلو ١٠١ الوجه والقناع وكف مريم.

رؤيتى لقضية الشكل والمضمون

يرى البعض أن الشكل هو الوعاء الفنى الذى يصب المضمون بداخله. أما أنا فأنضم الى هؤلاء الذين لاينظرون بصورة منفصلة للشكل عن المضمون، اذ أننى أرى فيهما مصهورا متجانسا أدايه الصدق الفنى. ويمكننى ايضاح ذلك بطريقة اجتماعية مرة وبطريقة كيمائية -بحكم مهنتى- مرة أخرى. فأما التفسير الاجتماعى فهو يشبه زواج -رجل بامرأة على أن يكون الصدق الفنى هو المأذون الذى يعقد عليهما. وأما التفسير الكيمائى فهو أن المصهور أو المزيج يصعب فصله الى مكوناته ، على عكس الخليط الذى يمكن فصله الى العنصرين المكونين له.

قضية الفصحى والعاميـــــة:

معنى القصة العربية أنها نوع من فنون الأدب المكتوبة باللغة العربية، واللغة فــى ذاتهــا هــى إحدى مكونات الجمال الفنى فى القصة، وهى أحد العناصر الأساسـية فى إنشاء القانون الفنىالمختص بذات القصة والنابع من جوهرها وشكلها.فإذا ماخلطنا العامية بالفصحى فى عمل قصصى فإننا نكون كمن أصدر قانونــا ثــم قام بالخروج عليه،هذا من حيث المبدأ، أما من حيث النتيجة فإن الخروج على القانون-مثلما يشكل جريمة فى عرف المجتمع-يشكل فى عرف الفن جريمة أيضا،وأقصد بذلك جريمة القبح والتشويه وعدم التجانس والنزول بالفن إلى درجة سفلى.

وإنى أتفق مع توفيق الحكيم ونجيب محفوظ وغيرهما من الكتاب المعاصرين الذين انتهوا من هذه المشكلة بنجاح فيما يسمى باللغة الثالثة التى تستخدم فى الحوار فقط،وهى لغة ذات جرس أو رنين أو إحساس عامى لكنها فصحى فى الأصــل،أما الســرد فيظل على عرشه الجدير به،إذ أن الحوار وحده هو الذى يــتعرض للتعبــير عــن متحاوريــن تــتفاوت مستوياتهم الثقافية والمعرفية والتعبيرية.

خامسا: مساهماته الإبداعية فى الأنشطة الثقافية والفكرية المختلفة

ســعيد سالم كاتب دؤوب يتمتع بقدرة غير عادية على الصبر والانتظار مع مداومة الإصرار على الفعل دون أن يستسلم لليأس.فمعظم رواياته لم تنشر إلا بعــد كتابتها بسنوات عديدة بلغت أحيانا عشرة سنوات(رواية الفلوس) وزادت عن ذلك أحيانا أخرى(رواية حالة مستعصية) ورغم ذلك فهو يقتحم

مجـــالات عديـــدة يعـــبر فيها عن فكره ويطرحه بصور متنوعة كالمقالات والمسلســـلات الدرامـــية والندوات والأحاديث الصحافية والإذاعية ، متحديا بذلك كل الظروف التى كان من الممكن أن تدفع به إلى اليأس والتوقف عن الإبداع.لذلك نجده يصرح فى شهادته المشار إليها فى مجلة فصول قائلا:"إن عملـــية قـــتل الإبداع لاتحدث إلا من داخل المبدع نفسه،فالعوامل الخارجية مهمـــا كانـــت قوتهـــا يستعصى عليها أن تقضى على الابداع،بل إنها ربما تستثيره فى حدود معينة،وهى قد تعوق المسيرة الابداعية حينا أو آخر طبقا لنوعها وأثرها لكن المبدع لايقتله أحد إلا نفسه.

إن ســـيكولوجية الابـــداع مسألة معقدة للغاية ولا يمكن أن تخضع لقواعد معروفة أو ثابتة إذأنها تختلف من كاتب إلى آخر، بل إنها تختلف عند الكاتب الواحـــد نفسه من حين إلى آخر...إن حالتى المزاجية المتقلبة بشدة ترتبط بـــالابداع إلـــى حد كبير،ولاشك أن هذه الحالة تأخذ طابعا خاصا حين يغزو العـــراق الكويت وحين تدمر أمريكا الشعب العراقى على مسمع ومرأى من العـــرب تحـــت راية الأمم المتحدة وحين أقع فى حب جديد وحين يتضاعف سعر رغيف الخبز فى بلادى وحين يقتل الشعب اللبنانى نفسه وحين يتصدى أطفـــال فلسطين للمجنزرات الصهيونية بالحجارة وحين تحاصرنى مكبرات الصـــوت المحـــيطة بمنزلى تنادى بعضها على بضاعة للبيع وتذيع بعضها القرآن عزاء لفقيد وتذيع الأخرى حفل زفاف همجيا".

ونخلـــص ممـــا ذكره سعيد سالم إلى أن هدفه الأساسى الملح من رحلته الابداعـــية هـــو توصـــيل فكره الى الناس بأية صورة، فإن واجه صعوبات كالنشـــر ومتطلـــبات الحياة اليومية وضغوطها والبعد عن العاصمة وقيود العمل والسكن ، فإنه لاينصرف إلى الشكوى والتذمر وإنما ينطلق إلى تنويع أدوات توصيل فكره ورسالته قدر المستطاع. ويمكن الاستدلال على ذلك من خلال مساهماته الآتية:

١-إلقـــاء المحاضـــرات حـــول قضايا الفكر والفن والمجتمع فى العديد من المنـــتديات الأدبـــية مثل قصور الثقافة والروتارى وبعض المراكز الثقافية الأجنبية وأتيليه الكتاب والفنانين وبعض البرامج الاذاعية مثل برنامج مجلة الاسكندرية ويوميات سكندرية.

٢-المشـــاركة فى التجمعات الأدبية ومعارض الكتاب خارج مصر والتصدى لمناقشة القضايا الثقافية الوطنية والقومية من خلال الحوار مع المثقفين فى سوريه والعراق والأردن وأمريكا والسويد.

٣-إعداد برنامج درامى أسبوعى بإذاعة الاسكندرية بعنوان "عالم القصة" يتم فيه تناول الأعمال القصصية للأدباء الجدد للتعريف بإنتاجهم ودفعهم إلى دائرة الضوء الجماهيرية.
٤-مخاطبة الجماهير فنيا من خلال تقديم عشرات المسلسلات الدرامية الشهرية والسهرات والتمثيليات القصيرة بإذاعتى القاهرة والاسكندرية.
٥-المشاركة فى بعض البرامج الثقافية التلفزيونية كالأمسية الثقافية بالقناة الأولى وكاميرا ٩ بالقناة الثانية ومساء الخير والصالون الأدبى وحياتنا وفى سهرتنا نجم بالقناة الخامسة.
٦-عقد ندوات دورية بنادى سموحة الاجتماعى الرياضى لمناقشة الأعمال الأدبية والفنية المختلفة وتشجيع البراعم الجديدة بدفع إنتاجهم للنشر.
٧-المشاركة فى عضوية لجنة النصوص الدرامية بالادارة المركزية لاذاعة وتلفزيون الاسكندرية لاختيار الأعمال الدرامية الصالحة التى تقدم فنا راقيا دون المساس بالقيم والمقدسات والأعراف.
٨-المساهمة فى رفع الكفاية الانتاجية للعمال وتقليل عوادم الانتاج والمحافظة على جودته وعلى نظافة البيئة من خلال تقديم أعمال درامية قصيرة لبرنامج مع العمال وذلك بحكم خبرته المهنية الطويلة فى هذا المجال.
٩-عقد صالون أدبى غير دورى بالمنزل للالتقاء بالكتاب والشعراء والأدباء والفنانين.
١٠-المساهمة فى الندوات الأدبية التى تعقد بالمراكز الثقافية المختلفة خارج الاسكندرية مثل الفيوم والوادى الجديد والبحيرة والاسماعيلية والسويس.
١١-طرح ومناقشة القضايا الثقافية العامة من خلال كتابة المقال الساخر فى بعض الجرائد والمجلات مثل أخبار الأدب وروزاليوسف والاسكندرية والدستور و القاهرة و هنا الاسكندرية.

••••